العلم والعلماء

obeikandl.com

obeikandl.com

فصل
فى العلم وفضله وشرفه
وبيان عموم الحاجة إليه وتوقف كمال العبد ونجاته فى معاشه ومعاده عليه

قال الله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] ،استشهد ـ سبحانه ـ بأولى العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده ، فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ .

وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه :

أحدها : استشهادهم دون غيرهم من البشر .

والثانى : اقتران شهادتهم بشهادته .

والثالث : اقترانها بشهادة ملائكته .

والرابع : أن فى ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم ، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ، ومنه الأثر المعروف عن النبى ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » (١) .وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة : رأيت رجلا قدم رجلا إلى إسماعيل بن إسحاق القاضى فادعى عليه دعوى، فسأل المدعى عليه فأنكر، فقال للمدعى:ألك بينة ؟ قال : نعم فلان وفلان ، قال:أما فلان فمن شهودى ، وأما فلان فليس من شهودى . قال : فيعرفه القاضى ؟ قال : نعم . قال : بماذا ؟ قال : أعرفه بكتب الحديث : قال : فكيف تعرفه فى كتب الحديث ؟ قال : ما علمت إلا خيرا . قال : فإن النبى ﷺ قال : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله » (٢) ، فمن عدله رسول الله ﷺ أولى ممن عدلته أنت . فقال : قم فهاته ، فقد قبلت شهادته .

الخامس : أنه وصفهم بكونهم أولى العلم ، وهذا يدل على اختصاصهم به ،وأنهم أهله وأصحابه ، ليس بمستعار لهم .

السادس : أنه ـ سبحانه ـ استشهد بنفسه وهو أجل شاهد ، ثم بخيار خلقه وهم

(١ ،٢) حديث حسن ،كنت قد جمعت كل ما يتعلق به سندًا ومتنًا ،فى تحقيقى لكتاب « شرف أصحاب الحديث» للخطيب،وراجع «بدائع التفسير (١/ ٤٧٩) ولذا لا يعتد بالتعليق رقم (١) (٧/ ١٣٠) فى جامع الفقه .

ملائكته ، والعلماء من عباده ، ويكفيهم بهذا فضلا وشرفا .

السابع : أنه استشهد بهم على أجل مشهود به ، وأعظمه وأكبره ، وهو شهادة : أن لا إله إلا الله ، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم .

الثامن : أنه ـ سبحانه ـ جعل شهادتهم حجة على المنكرين ؛ فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده .

التاسع : أنه ـ سبحانه ـ أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم ، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته ، وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته ، فكأنه ـ سبحانه ـ شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة ، فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقا وتعليما ، وهم الشاهدون بها له ، إقرارا واعترافا ، وتصديقا وإيمانا .

العاشر : أنه ـ سبحانه ـ جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة ، فإذا أدوها فقد أدوا الحق المشهود به ، فثبت الحق المشهود به ، فوجب على الخلق الإقرار به ، وكان ذلك غاية سعادتهم فى معاشهم ومعادهم ، وكل من ناله الهدى بشهادتهم وأقر بهذا الحق بسبب شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره ، وهذا فضل عظيم لا يدرى قدره إلا الله ، وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره أيضا ، فهذه عشرة أوجه فى هذه الآية .

الحادى عشر فى تفضيل العلم وأهله : أنه ـ سبحانه ـ نفى التسوية بين أهله وبين غيرهم ، كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، فقال تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر : ٩] ، كما قال تعالى : ﴿ **لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ** ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم .

الوجه الثانى عشر : أنه ـ سبحانه ـ جعل أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون ، فقال : ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ** ﴾ [الرعد : ١٩] فما ثم إلا عالم أو أعمى ، وقد وصف ـ سبحانه ـ أهل الجهل بأنهم : صم بكم عمى فى غير موضع من كتابه .

الوجه الثالث عشر : أنه ـ سبحانه ـ أخبر عن أولى العلم بأنهم يرون أن ما أنزل إليه من ربه حقا ،وجعل هذا ثناء عليهم واستشهادا بهم ، فقال تعالى: ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** ﴾ [سبا : ٦] .

الوجه الرابع عشر : أنه ـ سبحانه ـ أمر بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم ، وجعل ذلك كالشهادة منهم ، فقال : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** (٧) ﴾ [الأنبياء] ، وأهل الذكر هم أهل العلم بما أنزل على الأنبياء .

الوجه الخامس عشر : أنه ـ سبحانه ـ شهد لأهل العلم شهادة فى ضمنها الاستشهاد بهم على صحة ما أنزل الله على رسوله ، فقال تعالى : ﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** (١١٤) ﴾ [الأنعام] .

الوجه السادس عشر : أنه ـ سبحانه ـ سَلَّى نبيه بإيمان أهل العلم به وأمره ألا يعبأ بالجاهلين شيئا ، فقال تعالى : ﴿ **وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً** (١٠٦) **قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً** (١٠٧) **وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً** (١٠٨) ﴾ [الإسراء] ، وهذا شرف عظيم لأهل العلم وتحته أن أهله العالمون قد عرفوه وآمنوا به وصدقوا ، فسواء آمن به غيرهم أو لا .

الوجه السابع عشر : أنه ـ سبحانه ـ مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات فى صدورهم ، وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم ، فقال تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ** (٤٧) **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** (٤٨) **بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ** (٤٩) ﴾ [العنكبوت] . وسواء كان المعنى أن القرآن مستقر فى صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ ، وهو فى نفسه آيات بينات ، فيكون أخبر عنه بخبرين : أحدهما : أنه آيات بينات ، الثانى : أنه محفوظ مستقر ثابت فى صدور الذين أوتوا العلم . أو كان المعنى أنه آيات بينات فى صدورهم ، أى كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت فى صدورهم ، والقولان متلازمان ليسا بمختلفين . وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم فى ضمنه الاستشهاد بهم ، فتأمله .

الوجه الثامن عشر : أنه ـ سبحانه ـ أمر نبيه أن يسأله مزيد العلم ، فقال تعالى : ﴿ **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً** (١١٤) ﴾ [طه] وكفى بهذا شرفا للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه .

الوجه التاسع عشر : أنه ـ سبحانه ـ أخبر عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصة ، فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ**

خَبِيرٌ (١١) ﴾ [المجادلة] ، وأخبر ـ سبحانه ـ فى كتابه برفع الدرجات فى أربعة مواضع : أحدها هذا . والثانى : قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾ [الأنفال] . والثالث : قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) ﴾ [طه] . والرابع : قوله تعالى : ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ﴾ [النساء : ٩٥ ، ٩٦] . فهذه أربعة مواضع فى ثلاثة منها الرفعة بالدرجات لأهل الإيمان الذى هو العلم النافع والعمل الصالح . والرابع : الرفعة بالجهاد فعادت رفعة الدرجات كلها إلى العلم والجهاد اللذين بهما قوام الدين .

الوجه العشرون : أنه ـ سبحانه ـ استشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار فقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) ﴾ [الروم] .

الوجه الحادى والعشرون : أنه ـ سبحانه ـ أخبر أنهم أهل خشيته ، بل خصهم من بين الناس بذلك ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾ [فاطر] ، وهذا حصر لخشيته فى أولى العلم ، وقال تعالى : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨) ﴾ [البينة] ، وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء ، فدل على أن هذا الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النصين . وقال ابن مسعود ﷺ : كفى بخشية الله علما ، وكفى بالاغترار بالله جهلا .

الوجه الثانى والعشرون : أنه ـ سبحانه ـ أخبر عن أمثاله التى يضربها لعباده يدلهم على صحة ما أخبر به أن أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها ، فقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [العنكبوت] وفى القرآن بضعة وأربعون مثلا ، وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكى ويقول : لست من العالمين .

الوجه الثالث والعشرون : أنه ـ سبحانه ـ ذكر مناظرة إبراهيم لأبيه وقومه وغلبته لهم بالحجة ، وأخبر عن تفضيله بذلك ورفعة درجته بعلم الحجة ، فقال تعالى ـ عقيب مناظرته لأبيه وقومه فى سورة الأنعام : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) ﴾ [الأنعام] . قال زيد بن أسلم ﷺ : نرفع درجات من نشاء بعلم الحجة .

الوجه الرابع والعشرون : أنه ـ سبحانه ـ أخبر أنه خلق الخلق ووضع بيته الحرام والشهر الحرام والهدى والقلائد ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، فقال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)** ﴾ [الطلاق] ، فدل على أن علم العباد بربهم وصفاته وعبادته وحده هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر .

الوجه الخامس والعشرون : أن الله ـ سبحانه ـ أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم ، وأخبر أنه خير مما يجمع الناس ، فقال تعالى : ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)** ﴾ [يونس] ،وفسر فضل الله بالإيمان ورحمته بالقرآن ،والإيمان والقرآن هما العلم النافع والعمل الصالح والهدى ودين الحق ، وهما أفضل علم وأفضل عمل .

الوجه السادس والعشرون : أنه ـ سبحانه ـ شهد لمن آتاه العلم بأنه قد آتاه خيرا كثيرا ، فقال تعالى : ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [البقرة : ٢٦٩] . قال ابن قتيبة والجمهور : الحكمة إصابة الحق والعمل به ، وهى العلم النافع والعمل الصالح .

الوجه السابع والعشرون : أنه ـ سبحانه ـ عدد نعمه وفضله على رسوله ، وجعل من أجلها أن آتاه الكتاب والحكمة ، وعلمه مالم يكن يعلم ، فقال تعالى : ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)**﴾ [النساء] .

الوجه الثامن والعشرون : أنه ـ سبحانه ـ ذكر عباده المؤمنين بهذه النعمة وأمرهم بشكرها ، وأن يذكروه على إسدائها إليهم ، فقال تعالى : ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢)** ﴾ [البقرة] .

الوجه التاسع والعشرون : أنه ـ سبحانه ـ لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل فى الأرض خليفة قالوا له : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)** ﴾ [البقرة] إلى آخر قصة آدم ،وأمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى إبليس فلعنه وأخرجه من السماء . وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه :

أحدها : أنه ـ سبحانه ـ رد على الملائكة لما سألوه كيف يجعل فى الأرض من هم أطوع له منه ! فقال : ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠)** ﴾ [البقرة] فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن

الأمور وحقائقها مالا يعلمونه وهو العليم الحكيم، فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه وصالحى عباده والشهداء والصديقين والعلماء وطبقات أهل العلم والإيمان من هو خير من الملائكة وظهر من إبليس من هو شر العالمين، فأخرج ـ سبحانه ـ هذا وهذا،والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا ، ولا بما فى خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة .

الثانى : أنه ـ سبحانه ـ لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ميزه عليهم بالعلم ، فعلمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال :﴿ **أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ جاء فى التفسير أنهم قالوا : لن يخلق ربنا خلقا هو أكرم عليه منا فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذى يجعله الله فى الأرض ، فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة أقروا بالعجز وجهل مالم يعلموه ، فقالوا : ﴿ **قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم فقال : ﴿ **يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِم** ﴾ أقروا له بالفضل .

الثالث : أنه ـ سبحانه ـ لما أن عرفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه قال لهم : ﴿**قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** (٣٣) ﴾ [البقرة] فعرفهم ـ سبحانه ـ نفسه بالعلم ، وأنه أحاط علما بظاهرهم وباطنهم، وبغيب السموات والأرض فتعرف اليهم بصفة العلم وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم ، وعجزهم عما آتاه آدم من العلم ، وكفى بهذا شرفا للعلم .

الرابع : أنه ـ سبحانه ـ جعل فى آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات ، وأراد ـ سبحانه ـ أن يظهر لملائكته فضله وشرفه ، فأظهر لهم أحسن ما فيه ، وهو علمه ، فدل على أن العلم أشرف ما فى الإنسان ، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم ، ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف عليه السلام لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم ، أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير ، فحينئذ قدمه ومكنه وسلم إليه خزائن الأرض ،وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه وجمال صورته ، ولما ظهر له حسن صورة علمه وجمال معرفته ، أطلقه من الحبس ومكنه فى الأرض ، فدل على أن صورة العلم عند بنى آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية ، ولو كانت أجمل صورة .

وهذا وجه مستقل فى تفضيل العلم مضاف إلى ما تقدم ، فتم به ثلاثون وجها .

الوجه الحادى والثلاثون : أنه ـ سبحانه ـ ذم أهل الجهل فى مواضع كثيرة من كتابه ، فقال

تعالى : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)﴾ [الأنعام] ، وقال : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩)﴾ [الدخان] ، وقال تعالى : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤)﴾ [الفرقان] فلم يقتصر سبحانه على تشبيه الجهال بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلا منهم ، وقال : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢)﴾ [الأنفال] أخبر أن الجهال شر الدواب عنده على اختلاف أصنافها من الحمير والسباع والكلاب والحشرات وسائر الدواب ، فالجهال شر منهم وليس على دين الرسل أضر من الجهال ، بل أعداؤهم على الحقيقة ، وقال تعالى لنبيه وقد أعاذه : ﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥)﴾ [الأنعام] ،وقال كليمه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧)﴾[البقرة] وقال لأول رسله نوح عليه السلام : ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦)﴾ [هود] فهذه حال الجاهلين عنده ، والأول حال أهل العلم عنده ، وأخبر ـ سبحانه ـ عن عقوبته لأعدائه أنه منعهم علم كتابه ومعرفته وفقهه ، فقال تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ [الإسراء] ، وأمر نبيه بالإعراض عنهم فقال : ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾ [الأعراف]،وأثنى على عباده بالإعراض عنهم ومتاركتهم ،كما فى قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾[القصص]،وقال تعالى﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً (٦٣)﴾[الفرقان] وكل هذا يدل على قبح الجهل عنده وبغضه للجهل وأهله وهو كذلك عند الناس فإن كل أحد يتبرأ منه وإن كان فيه .

الوجه الثانى والثلاثون : أن العلم حياة ونور ، والجهل موت وظلمة ، والشر كله سببه عدم الحياة والنور ، والخير كله سببه النور والحياة ، فإن النور يكشف عن حقائق الأشياء ، ويبين مراتبها ، والحياة هى المصححة لصفات الكمال الموجبة لتسديد الأقوال والأعمال ، فكلما تصرف من الحياة فهو خير كله كالحياء الذى سببه كمال حياة القلب ، وتصوره حقيقة القبح ونفرته منه، وضده الوقاحة والفحش ، وسببه موت القلب وعدم نفرته من القبيح ، وكالحياء الذى هو المطر الذى به حياة كل شىء ، قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، كان ميتا بالجهل قلبه ، فأحياه بالعلم ،وجعل له من الإيمان نورا يمشى به فى الناس،وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾ [الحديد] ، وقال تعالى :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)﴾[البقرة]، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ [الشورى] ،فأخبر أنه روح تحصل به الحياة ،ونور يحصل به الإضاءة والإشراق فجمع بين الأصلين الحياة والنور.

وقال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾ [المائدة] ، وقال تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨)﴾ [التغابن] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) ﴾ [النساء] ، وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الطلاق]، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾[النور] فضرب سبحانه مثلا لنوره الذى قذفه فى قلب المؤمن كما قال أبى بن كعب رضي الله عنه مثل نوره فى قلب عبده المؤمن وهو نور القرآن والإيمان الذى أعطاه إياه كما قال فى آخر الآية :﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور:٣٥] يعنى نور الإيمان على نور القرآن،كما قال بعض السلف:يكاد المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالأثر ،فإذا سمع فيها بالأثر كان نورا على نور ،وقد جمع الله سبحانه بين ذكر هذين النورين وهما الكتاب والإيمان فى غير موضع من كتابه كقوله: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى :٥٢] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس] ففضل الله الإيمان ورحمته القرآن .وقوله تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الانعام : ١٢٢]،وقد تقدمت هذه الآيات .وقال فى آية النور:﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ وهو نور الإيمان على نور القرآن .

وفى حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبى ﷺ : « أن الله ضرب مثلا صراطا مستقيما وعلى كتفى الصراط داران لهما أبواب مفتحة على الأبواب ستور وداع يدعو على الصراط وداع يدعو فوقه ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) ﴾ [يونس] والأبواب التى على كتفى الصراط حدود الله ، فلا يقع أحد فى حدود الله حتى يكشف

الستر ، والذى يدعو من فوقه واعظ ربه » رواه الترمذى وهذا لفظه (١) . والإمام أحمد ولفظه : « والداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن » (٢) فذكر الأصلين ؛ وهما داعى القرآن ، وداعى الإيمان . وقال حذيفة : حدثنا رسول الله ﷺ : « إن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن ، فعلموا من الإيمان ، ثم علموا من القرآن» (٣) .

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه عن النبى ﷺ : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب،ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة ،طعمها طيب ولا ريح لها .ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كالريحانة ،ريحها طيب وطعمها مر ،ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها»(٤) فجعل الناس أربعة أقسام :أهل الإيمان والقرآن وهم خير الناس .الثانى: أهل الإيمان الذين لا يقرؤون القرآن وهم دونهم فهؤلاء هم السعداء ، والأشقياء قسمان : أحدهما : من أوتى قرآنا بلا إيمان فهو منافق . والثانى : من لا أوتى قرآنا ولا إيمانا . والمقصود : أن القرآن والإيمان : هما نور يجعله الله فى قلب من يشاء من عباده ، وأنهما أصل كل خير فى الدنيا والآخرة ، وعلمهما أجل العلوم وأفضلها ؛ بل لا علم فى الحقيقة ينفع صاحبه إلا علمهما : ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة] .

الوجه الثالث والثلاثون : أن الله ـ سبحانه ـ جعل صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها،وأباح صيد الكلب المعلم،وهذا أيضا من شرف العلم أنه لا يباح إلا صيد الكلب العالم،وأما الكلب الجاهل فلا يحل أكل صيده ،فدل على شرف العلم وفضله،قال الله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾[المائدة] ولولا مزية العلم والتعليم وشرفهما كان صيد الكلب المعلم والجاهل سواء .

الوجه الرابع والثلاثون : أن الله ـ سبحانه ـ أخبرنا عن صفيه وكليمه الذى كتب له التوراة بيده ، وكلمه منه إليه ، أنه رحل إلى رجل عالم يتعلم منه ويزداد علما إلى علمه ، فقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف] ،

(١) الترمذى (٢٨٥٩) فى الأمثال ، باب : ما جاء فى مثل الله لعباده ، وقال : « غريب » .
(٢) أحمد (٤ / ١٨٢ ، ١٨٣) ، وصححه الحاكم (١ / ٧٣) ، ووافقه الذهبى .
(٣) البخارى (٦٤٩٧) فى الرقاق ، باب : رفع الأمانة ، ومسلم (١٤٣ / ٢٣٠) فى الإيمان ، باب : رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب ، وعرض الفتن على القلوب .
(٤) البخارى (٥٠٢٠) فى فضائل القرآن ، باب : فضل القرآن على سائر الكلام ، ومسلم (٧٩٧ / ٢٤٣) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : فضيلة حافظ القرآن .

حرصا منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلم منه ، فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلم مع معلمه،وقال له: ﴿عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف] فبدأه بعد السلام بالاستئذان على متابعته ،وأنه لا يتبعه إلا بإذنه ،وقال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف] فلم يجئ ممتحنا ولا متعنتا ، وإنما جاء متعلما مستزيدا علما إلى علمه ، وكفى بهذا فضلا وشرفا للعلم ، فإن نبى الله وكليمه سافر ورحل ،حتى لقى النصب من سفره فى تعلم ثلاث مسائل من رجل عالم ،ولما سمع به لم يقر له قرار حتى لقيه وطلب منه متابعته وتعليمه ،وفى قصتهما عبر وآيات وحكم ليس هذا موضع ذكرها .

الوجه الخامس والثلاثون : قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة] ، ندب تعالى المؤمنين إلى التفقه فى الدين ، وهو تعلمه ، وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم وهو التعليم ، وقد اختلف فى الآية ، فقيل : المعنى إن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم ؛ بل ينبغى أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة تتفقه تلك الطائفة ، ثم ترجع تعلم القاعدين ، فيكون النفير على هذا نفير تعلم ، والطائفة تقال على الواحد فما زاد .قالوا :فهو دليل على قبول خبر الواحد ، وعلى هذا حملها الشافعى وجماعة . وقالت طائفة أخرى : المعنى وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم ؛ بل ينبغى أن تنفر طائفة للجهاد ،وفرقة تقعد تتفقه فى الدين ، فإذا جاءت الطائفة التى نفرت فقهتها القاعدة وعلمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام . وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا ﴾ ، ﴿وَلِيُنذِرُوا ﴾ للفرقة التى نفرت منها طائفة ،وهذا قول الأكثرين ،وعلى هذا فالنفير نفير جهاد على أصله ، فإنه حيث استعمل إنما يفهم منه الجهاد ، قال الله تعالى: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : ٤١] ،وقال النبى ﷺ :« لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » (١) وهذا هو المعروف من هذه اللفظة . وعلى القولين فهو ترغيب فى التفقه فى الدين وتعلمه وتعليمه ، فإن ذلك يعدل الجهاد ؛ بل ربما يكون أفضل منه كما سيأتى تقريره فى الوجه الثامن والمائة إن شاء الله تعالى .

الوجه السادس والثلاثون: قوله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾[العصر]. قال الشافعى رضي الله عنه : لو فكر الناس كلهم فى هذه السورة لكفتهم ،وبيان ذلك :أن المراتب أربعة ،وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله : إحداها : معرفة الحق . الثانية : عمله به . الثالثة : تعليمه

(١) البخارى (٣٠٧٧) فى الجهاد ، باب : لا هجرة بعد الفتح ، ومسلم (١٣٥٣/ ٨٥) فى الإمارة ، باب : المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير ، وبيان معنى : « لا هجرة بعد الفتح » .

من لا يحسنه . الرابعة : صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه ، فذكر تعالى المراتب الأربعة فى هذه السورة ، وأقسم ـ سبحانه ـ فى هذه السورة بالعصر أن كل أحد فى خسر ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به فهذه مرتبة ، ﴿ **وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى ، ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ** ﴾ وصى به بعضهم بعضا تعليما وارشادا ، فهذه مرتبة ثالثة ؛ ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ صبروا على الحق ، ووصى بعضهم بعضا بالصبر عليه والثبات ، فهذه مرتبة رابعة ، وهذا نهاية الكمال . فإن الكمال أن يكون الشخص كاملا فى نفسه مكملا لغيره ، وكماله بإصلاح قوتيه ؛ العلمية والعملية ، فصلاح القوة العلمية بالإيمان ، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات ، وتكميله غيره بتعليمه إياه ، وصبره عليه ، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل ، فهذه السورة على اختصارها هى من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره ، والحمد لله الذى جعل كتابه كافيا عن كل ما سواه ، شافيا من كل داء ، هاديا إلى كل خير .

الوجه السابع والثلاثون : أنه ـ سبحانه ـ ذكر فضله ومنته على أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده بما آتاهم من العلم ، فذكر نعمته على خاتم أنبيائه ورسله بقوله : ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** (١١٣) ﴾ [النساء] ، وقد تقدمت هذه الآية ، وقال فى يوسف : ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** (٢٢) ﴾ [يوسف]، وقال فى كليمه موسى : ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** (١٤) ﴾ [القصص] ولما كان الذى آتاه موسى من ذلك أمرا عظيما خصه به على غيره ولا يثبت له إلا الأقوياء أولو العزم هيأه له بعد أن بلغ أشده واستوى يعنى تم وكملت قوته ، وقال فى حق المسيح : ﴿ **يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ** ﴾ [المائدة : ١١٠] ، وقال فى حقه : ﴿ **وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ** ﴾ فجعل تعليمه مما بشر به أمه وأقر عينها به ، وقال فى حق داود : ﴿ **وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ** (٢٠) ﴾ [ص] ، وقال فى حق الخضر صاحب موسى وفتاه : ﴿ **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** (٦٥) ﴾ [الكهف] فذكر من نعمه عليه تعليمه وما آتاه من رحمته .

وقال تعالى يذكر نعمته على داود وسليمان : ﴿ **وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ** (٧٨) **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ [الأنبياء] ، فذكر النبيين الكريمين ، وأثنى عليهما بالحكم والعلم ، وخص بفهم القضية أحدهما ، وقد ذكرت الحكمين الداوودى والسليمانى ووجههما ومن صار من الأئمة إلى هذا ، ومن

صار إلى هذا ، وترجيح الحكم السليمانى من عدة وجوه ، وموافقته للقياس وقواعد الشرع فى كتاب الاجتهاد والتقليد .

وقال تعالى : ﴿ **قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ** ﴾ [الانعام : ٩١] يعنى الذى أنزله جعل ـ سبحانه ـ تعليمهم مالم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلا على صحة النبوة والرسالة؛ إذ لا ينال هذا العلم إلا من جهة الرسل ،فكيف يقولون: ﴿ **مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ** ﴾[الانعام:٩١]،وهذا من فضل العلم وشرفه،وأنه دليل على صحة النبوة والرسالة،والله الموفق للرشاد .

وقال تعالى : ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** (١٦٤) ﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** (٢) **وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (٣) **ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** (٤) ﴾ [الجمعة] يعنى وبعث فى آخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وقد اختلف فى هذا اللحاق المنفى ، فقيل : هو اللحاق فى الزمان أى يتأخر زمانهم عنهم ، وقيل : هو اللحاق فى الفضل والسبق وعلى التقديرين ، فامتن عليهم ـ سبحانه ـ بأن علمهم بعد الجهل ، وهداهم بعد الضلالة ، ويالها من منة عظيمة ، فأتت المنن وجلت أن يقدر العباد لها على ثمن .

الوجه الثامن والثلاثون : أن أول سورة أنزلها الله فى كتابه سورة العلق ، فذكر فيها ما من به على الإنسان من تعليمه مالم يعلم ، فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الإنسان بما علمه إياه ، وذلك يدل على شرف التعليم والعلم ، فقال تعالى : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** (١) **خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ** (٢) **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ** (٣) **الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** (٤) **عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** (٥) ﴾ [العلق] ،فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم وذكر خلقه خصوصا وعموما ، فقال : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ** (١) **خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ** (٢) **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ** (٣) ﴾ وخص الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته ،وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ،وذكر هنا مبدأ خلقه من علق لكون العلقة مبدأ الأطوار التى انتقلت إليها النطفة ، فهى مبدأ تعلق التخليق ، ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبرا عن نفسه بأنه الأكرم،وهو الأفعل من الكرم ،وهو كثرة الخير ولا أحد أولى بذلك منه ـ سبحانه ـ فإن الخير كله بيديه ، والخير كله منه ،والنعم كلها هو موليها ، والكمال كله والمجد كله له ، فهو الأكرم حقا ، ثم ذكر تعليمه عموما وخصوصا ، فقال :

﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس،ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصا ، فقال: ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطى الموجودات كلها بجميع أقسامها فإن الوجود له مراتب أربعة: إحداها: مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله: ﴿خَلَقَ ﴾ المرتبة الثانية : الذهنية المدلول عليها بقوله :﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . المرتبة الثالثة والرابعة : اللفظية والخطية ،فالخطية مصرح بها فى قوله : ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ، واللفظية من لوازم التعليم بالقلم ،فإن الكتابة فرع النطق والنطق فرع التصور ، فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها ، وأنه ـ سبحانه ـ هو معطيها بخلقه وتعليمه ،فهو الخالق المعلم،وكل شيء فى الخارج فبخلقه وجد،وكل علم فى الذهن فبتعليمه حصل، وكل لفظ فى اللسان أو خط فى البنان فبإقداره وخلقه وتعليمه ،وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . والمقصود : أنه ـ سبحانه ـ تعرف إلى عباده بما علمهم إياه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى ، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه،بل من أعظمها وأظهرها ، وكفى بهذا شرفا وفضلا له .

الوجه التاسع والثلاثون : أنه ـ سبحانه ـ سمى الحجة العلمية سلطانا . قال ابن عباس رضي الله عنهما : كل سلطان فى القرآن فهو حجة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** (٦٨) ﴾ [يونس] يعنى : ماعندكم من حجة بما قلتم إن هو إلا قول على الله بلا علم ، وقال تعالى : ﴿ **إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ** ﴾ [النجم : ٢٣] يعنى ما أنزل بها حجة ولا برهانا ؛ بل هى من تلقاء أنفسكم وآبائكم ،وقال تعالى: ﴿ **أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ** (١٥٦) **فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** (١٥٧) ﴾ [الصافات] يعنى حجة واضحة ، فائتوا بها إن كنتم صادقين فى دعواكم إلا موضعا واحدا اختلف فيه ، وهو قوله: ﴿ **مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ** (٢٨) **هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ** (٢٩) ﴾ [الحاقة] فقيل : المراد به القدرة والملك أى : ذهب عنى مالى وملكى فلا مال لى ولا سلطان ، وقيل :هو على بابه أى : انقطعت حجتى وبطلت فلا حجة لى . والمقصود : أن الله ـ سبحانه ـ سمى علم الحجة سلطانا ؛ لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره ، فله بها سلطان على الجاهلين ؛ بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد ؛ ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد ، فإن الحجة تنقاد لها القلوب،وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن ، فالحجة تأسر القلب وتقوده وتذل المخالف وإن أظهر العناد والمكابرة ، فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها ؛ بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يساس به فهو بمنزلة سلطان السباع ، والأسود ونحوها قدرة بلا علم ، ولا رحمة بخلاف سلطان الحجة ، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة ، ومن لم يكن له اقتدار فى علمه فهو إما لضعف حجته وسلطانه ، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له ، وإلا فالحجة ناصرة نفسها ظاهرة على الباطل قاهرة له .

الوجه الأربعون : أن الله تعالى وصف أهل النار بالجهل ، وأخبر أنه سد عليهم طرق العلم ، فقال تعالى حكاية عنهم : ﴿ **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)** ﴾ [الملك] فأخبروا أنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون ، والسمع والعقل هما أصل العلم وبهما ينال ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)** ﴾ [الاعراف] فأخبر ـ سبحانه ـ أنهم لم يحصل لهم علم من جهة من جهات العلم الثلاث ، وهى العقل والسمع والبصر ، كما قال فى موضع آخر : ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)** ﴾ [البقرة] ، وقال تعالى : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)** ﴾ [الحج] وقال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦)** ﴾ [الاحقاف] فقد وصف أهل الشقاء كما ترى بعدم العلم ، وشبههم بالأنعام تارة ، وتارة بالحمار الذى يحمل الأسفار ، وتارة جعلهم أضل من الأنعام ، وتارة جعلهم شر الدواب عنده ، وتارة جعلهم أمواتا غير أحياء ، وتارة أخبر أنهم فى ظلمات الجهل والضلال ، وتارة أخبر أن على قلوبهم أكنة وفى آذانهم وقرا وعلى أبصارهم غشاوة ، وهذا كله يدل على قبح الجهل ، وذم أهله وبغضه لهم ، كما أنه يحب أهل العلم ويمدحهم ويثنى عليهم ، كما تقدم ، والله المستعان .

الوجه الحادى والأربعون : ما فى الصحيحين من حديث معاوية ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » (١) وهذا يدل على أن من لم يفقهه فى دينه لم يرد به خيرا ، كما أن من أراد به خيرا فقهه فى دينه ، ومن فقهه فى دينه فقد أراد به خيرا إذا أريد بالفقه العلم المستلزم للعمل ، وأما أن أريد به مجرد العلم فلا يدل على أن من فقه فى الدين فقد أريد به خيرا ، فإن الفقه حينئذ يكون شرطا لإرادة الخير ، وعلى الأول يكون موجبا ، والله أعلم .

الوجه الثانى والأربعون : ما فى الصحيحين أيضا من حديث أبى موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله

---

(١) البخارى (٧١) فى العلم ، باب : من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، ومسلم (١٠٣٧ / ٩٨) فى الزكاة ، باب : النهى عن المسألة .

به فعلم وعلم ،ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ،ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » (١) شبه ﷺ العلم والهدى الذى جاء به بالغيث ؛ لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة والمنافع والأغذية والأدوية،وسائر مصالح العباد ،فإنها بالعلم والمطر ،وشبه القلوب بالأراضى التى يقع عليها المطر؛ لأنها المحل الذى يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع،كما أن القلوب تعى العلم فيثمر فيها ويزكو وتظهر بركته وثمرته ،ثم قسم الناس إلى ثلاثة أقسام ، بحسب قبولهم واستعدادهم لحفظه وفهم معانيه،واستنباط أحكامه واستخراج حكمه وفوائده.

أحدها : أهل الحفظ والفهم الذين حفظوه وعقلوه وفهموا معانيه ،واستنبطوا وجوه الأحكام والحكم والفوائد منه ، فهؤلاء بمنزلة الأرض التى قبلت الماء ،وهذا بمنزلة الحفظ فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وهذا هو الفهم فيه والمعرفة والاستنباط فإنه بمنزلة إنبات الكلأ والعشب بالماء ، فهذا مثل الحفاظ الفقهاء أهل الرواية والدراية .

القسم الثانى : أهل الحفظ الذين رزقوا حفظه ونقله وضبطه ، ولم يرزقوا تفقها فى معانيه ، ولا استنباطا ولا استخراجا لوجوه الحكم والفوائد منه ، فهم بمنزلة من يقرأ القرآن ويحفظه ويراعى حروفه وإعرابه ، ولم يرزق فيه فهما خاصا عن الله ، كما قال على بن أبى طالب رضي الله عنه :« إلا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه ».

والناس متفاوتون فى الفهم عن الله ورسوله أعظم تفاوت، فرب شخص يفهم من النص حكما أو حكمين،ويفهم منه الآخر مائة أو مائتين ،فهؤلاء بمنزلة الأرض التى أمسكت الماء للناس فانتفعوا به، هذا يشرب منه وهذا يسقى وهذا يزرع ، فهؤلاء القسمان هم السعداء،والأولون أرفع درجة وأعلى قدرا : ﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴿٤﴾ ﴾ [الجمعة] .

القسم الثالث : الذين لا نصيب لهم منه لا حفظا ولا فهما ولا رواية ولا دراية ، بل هم بمنزلة الأرض، التى هى قيعان لا تنبت ولا تمسك الماء ،وهؤلاء هم الأشقياء ، والقسمان الأولان اشتركا فى العلم والتعليم كل بحسب ما قبله ووصل إليه ، فهذا يعلم ألفاظ القرآن ويحفظها ، وهذا يعلم معانيه وأحكامه وعلومه .

والقسم الثالث : لا علم ولا تعليم ، فهم الذين لم يرفعوا بهدى الله رأسا ولم يقبلوه ، وهؤلاء شر من الأنعام ،وهم وقود النار . فقد اشتمل هذا الحديث الشريف العظيم على التنبيه على شرف العلم والتعليم وعظم موقعه ،وشقاء من ليس من أهله ، وذكر أقسام بنى آدم بالنسبة فيه إلى شقيهم وسعيدهم ، وتقسم سعيدهم إلى سابق مقرب ، وصاحب يمين

(١) البخارى (٧٩) فى العلم ، باب : فضل من عَلِمَ و عَلَّم ، ومسلم (٢٢٨٢ / ١٥) فى الفضائل ، باب : بيان مثل ما بعث النبى ﷺ من الهدى والعلم .

مقتصد ، وفيه دلالة على أن حاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر ؛ بل أعظم ، وأنهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض التى فقدت الغيث .

قال الإمام أحمد : الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب ؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه فى اليوم مرة أو مرتين ، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس .

وقد قال تعالى : ﴿ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ** ﴾ [الرعد : ١٧] شبه ـ سبحانه ـ العلم الذى أنزله على رسوله بالماء الذى أنزله من السماء لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة ومصالح العباد فى معاشهم ومعادهم ، ثم شبه القلوب بالأودية ، فقلب كبير يسع علما كثيرا ، كواد عظيم يسع ماء كثيرا ، وقلب صغير إنما يسع علما قليلا كواد صغير إنما يسع ماء قليلا ، فقال: ﴿**فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا**﴾هذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته ، فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة فيطفوا على وجه القلب ، كما يستخرج السيل من الوادى زبدا يعلو فوق الماء ، وأخبر ـ سبحانه ـ أنه راب يطفو ويعلو على الماء لا يستقر فى أرض الوادى ، كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب وطفت فلا تستقر فيه ؛ بل تجفى وترمى ، فيستقر فى القلب ما ينفع صاحبه والناس من الهدى ودين الحق ، كما يستقر فى الوادى الماء الصافى ويذهب الزبد جفاء ، وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون .

ثم ضرب ـ سبحانه ـ لذلك مثلا آخر ، فقال : ﴿ **وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ** ﴾ يعنى : أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه ، وهو الزبد الذى تلقيه النار وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها ، فإنه يقذف ويلقى به ويستقر الجوهر الخالص وحده ،وضرب ـ سبحانه ـ مثلا بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة ، ومثلا بالنار لما فيها من الإضاءة والإشراق والإحراق ، فآيات القرآن تحيى القلوب كما تحيا الأرض بالماء ، وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها كما تحرق النار ما يلقى فيها ، وتميز جيدها من زبدها كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه . فهذا بعض ما فى هذا المثل العظيم من العبر والعلم . قال الله تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣)** ﴾ [العنكبوت] .

الوجه الثالث والأربعون : ما فى الصحيحين أيضا من حديث سهل بن سعد ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال لعلى ﷺ :« لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم »(١) ،وهذا يدل على فضل العلم والتعليم وشرف منزلة أهله ،بحيث إذا اهتدى

---

(١) البخارى (٢٩٤٢) فى الجهاد ، باب : دعاء النبى ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة ، ومسلم (٦ ٢٤٠٦ / ٣٤) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل على بن أبى طالب ﷺ .

رجل واحد بالعالم كان ذلك خيرا له من حمر النعم ، وهى خيارها وأشرفها عند أهلها ، فما الظن بمن يهتدى به كل يوم طوائف من الناس .

الوجه الرابع والأربعون : ما روى مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » (١) . أخبر ﷺ : أن المتسبب إلى الهدى بدعوته له مثل أجر من اهتدى به ، والمتسبب إلى الضلالة بدعوته عليه مثل إثم من ضل به ؛ لأن هذا بذل قدرته فى هداية الناس ، وهذا بذل قدرته فى ضلالتهم ، فنزل كل واحد منهما بمنزلة الفاعل التام ، وهذه قاعدة الشريعة ، كما هو مذكور فى غير هذا الموضع ، قال تعالى : ﴿ **لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ** ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ** ﴾ [العنكبوت : ١٣] ، وهذا يدل على أن من دعا الأمة إلى غير سنة رسول الله ﷺ فهو عدوه حقا ؛ لأنه قطع وصول أجر من اهتدى بسنته إليه ، وهذا من أعظم معاداته نعوذ بالله من الخذلان .

الوجه الخامس والأربعون : ما خرجا فى الصحيحين من حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ،ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها» (٢) . فأخبر ﷺ: أنه لا ينبغى لأحد أن يحسد أحدا يعنى حسد غبطة ، ويتمنى مثل حاله من غير أن يتمنى زوال نعمة الله عنه إلا فى واحدة من هاتين الخصلتين ،وهى الإحسان إلى الناس بعلمه أو بماله ، وما عدا هذين فلا ينبغى غبطته ولا تمنى مثل حاله لقلة منفعة الناس به .

الوجه السادس والأربعون : قال الترمذى: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا سلمة ابن رجاء ،حدثنا الوليد بن حميد ،حدثنا القاسم عن أبى أمامة الباهلى قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عالم والآخر عابد فقال رسول الله ﷺ:« فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم» ثم قال رسول الله ﷺ:«إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض،حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى البحر،ليصلون على معلمى الناس الخير» .قال الترمذى :هذا حديث حسن غريب ،سمعت أبا عمار الحسين ابن حريث

---

(١) مسلم (٢٦٧٤ / ١٦) فى العلم ، باب : من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة .

(٢) البخارى (٧٣١٦) فى الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب : ما جاء فى اجتهاد القضاء بما أنزل الله تعالى ، ومسلم (٨١٦ / ٢٦٨) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : من يقوم بالقرآن ويعلم ، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها .

الخزاعى قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول : عالم عامل معلم يدعى كبيرا فى ملكوت السموات [١] . وهذا مروى عن الصحابة قال ابن عباس : علماء هذه الأمة رجلان ، فرجل أعطاه الله علما فبذله للناس ولم يأخذ عليه صفدا ، ولم يشتر به ثمنا ، أولئك يصلى عليهم طير السماء ، وحيتان البحر ، ودواب الأرض ، والكرام الكاتبون ، ورجل آتاه الله علما فضن به عن عباده ، وأخذ به صفدا ، أو اشترى به ثمنا ، فذلك يأتى يوم القيامة يلجم بلجام من نار ، ذكره ابن عبد البر مرفوعا وفى رفعه نظر [٢] . وقوله : « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض يصلون على معلم الناس الخير » ؛ لما كان تعليمه للناس الخير سببا لنجاتهم وسعادتهم وزكاة نفوسهم ، جازاه الله من جنس عمله ، بأن جعل عليه من صلاته وصلاة ملائكته وأهل الأرض ما يكون سببا لنجاته وسعادته وفلاحه. وأيضا فإن معلم الناس الخير لما كان مظهرا لدين الرب وأحكامه ، ومعرفا لهم بأسمائه وصفاته جعل الله من صلاته وصلاة أهل سمواته وأرضه عليه ما يكون تنويها به وتشريفا له وإظهارا للثناء عليه بين أهل السماء والأرض .

الوجه السابع والعشرين: ما رواه أبو داود والترمذى من حديث أبى الدرداء ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« من سلك طريقا يبتغى فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة،وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم،وإن العالم ليستغفر له من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ،إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » [٣]. وقد رواه الوليد بن مسلم عن خالد بن يزيد عن عثمان بن أيمن عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:« من غدا لعلم يتعلمه فتح الله له به طريقا إلى الجنة،وفرشت له الملائكة أكنافها ،وصلت عليه ملائكة السماء وحيتان البحر . وللعالم من الفضل على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، والعلماء ورثة الأنبياء. إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ،إنما ورثوا العلم ، فمن أخذ بالعلم أخذ بحظ وافر ،وموت العالم مصيبة لا تجبر ،وثلمة لا تسد ونجم طمس ،وموت قبيلة أيسر من موت عالم» [٤] . وهذا حديث حسن ،والطريق التى يسلكها إلى الجنة جزاء

---

(١) الترمذى (٢٦٨٥) فى العلم ، باب: ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ،وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (١٥٩٦) .

(٢) ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (١ / ٣٨) .

(٣) أبو داود (٣٦٤١) فى العلم ، باب : الحث على طلب العلم ، والترمذى (٢٦٨٢) فى العلم ، باب : ما جاء فى عالم المدينة ، وقال : « ليس هو عندى بمتصل » .

(٤) أبو داود (٣٦٤٢) فى العلم ، باب : الحث على طلب العلم ، والحديث بسنده ولفظه رواه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (١ / ٣٧) .

على سلوكه فى الدنيا طريق العلم الموصلة إلى رضا ربه ، ووضع الملائكة أجنحتها له تواضعا له وتوقيرا وإكراما ؛ لما يحمله من ميراث النبوة ويطلبه ، وهو يدل على المحبة والتعظيم ، فمن محبة الملائكة له وتعظيمه تضع أجنحتها له ؛ لأنه طالب لما به حياة العالم ونجاته ففيه شبة من الملائكة، وبينه وبينهم تناسب ، فإن الملائكة أنصح خلق الله وأنفعهم لبنى آدم ،وعلى أيديهم حصل لهم كل سعادة وعلم وهدى ،ومن نفعهم لبنى آدم ونصحهم أنهم يستغفرون لمسيئهم ، ويثنون على مؤمنيهم،ويعينونهم على أعدائهم من الشياطين ، ويحرصون على مصالح العبد أضعاف حرصه على مصلحة نفسه؛ بل يريدون له من خير الدنيا والآخرة ما لا يريده العبد ولا يخطر بباله ،كما قال بعض التابعين : وجدنا الملائكة أنصح خلق الله لعباده ، ووجدنا الشياطين أغش الخلق للعباد ، وقال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)** ﴾ [غافر] فأى نصح للعباد مثل هذا إلا نصح الأنبياء ، فإذا طلب العبد العلم فقد سعى فى أعظم ما ينصح به عباد الله،فلذلك تحبه الملائكة وتعظمه حتى تضع أجنحتها له رضا ومحبة وتعظيما . وقال أبو حاتم الرازى: سمعت ابن أبى أويس يقول : سمعت مالك بن أنس يقول :معنى قول رسول الله ﷺ : « تضع أجنحتها » يعنى : تبسطها بالدعاء لطالب العلم بدلا من الأيدى .

وقال أحمد بن مروان المالكى فى (كتاب المجالسة) له : حدثنا زكريا بن عبد الرحمن البصرى ، قال :سمعت أحمد بن شعيب يقول : كنا عند بعض المحدثين بالبصرة فحدثنا بحديث النبى ﷺ : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم » ، وفى المجلس معنا رجل من المعتزلة ، فجعل يستهزئ بالحديث ، فقال : والله لأطرقن غدا نعلى بمسامير فأطأ بها أجنحة الملائكة ، ففعل ومشى فى النعلين ، فجفت رجلاه جميعا ، ووقعت فيهما الأكلة .

وقال الطبرانى : سمعت أبا يحيى زكريا بن يحيى الساجى قال : كنا نمشى فى بعض أزقة البصرة إلى باب بعض المحدثين ، فأسرعنا المشى ، وكان معنا رجل ماجن منهم فى دينه ، فقال : ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ ، فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط .

وفى السنن والمسانيد من حديث صفوان بن عسال قال : قلت : يا رسول الله ، إنى جئت أطلب العلم قال : « مرحبا بطالب العلم ، إن طالب العلم لتحف به الملائكة وتظله

بأجنحتها ، فيركب بعضهم بعضا حتى تبلغ السماء الدنيا من حبهم لما يطلب » . وذكر حديث المسح على الخفين [١] . قال أبو عبد الله الحاكم : إسناده صحيح [٢] . وقال ابن عبد البر هو حديث صحيح حسن ثابت محفوظ مرفوع [٣] ، ومثله لا يقال بالرأى ، ففى هذا الحديث : حف الملائكة له بأجنحتها إلى السماء ، وفى الأول : وضعها أجنحتها له ، فالوضع تواضع وتوقير وتبجيل ، والحف بالأجنحة حفظ وحماية وصيانة ، فتضمن الحديثان تعظيم الملائكة له وحبها إياه ، وحياطته وحفظه ، فلو لم يكن لطالب العلم إلا هذا الحظ الجزيل لكفى به شرفا وفضلا . وقوله ﷺ : « إن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء » [٤] ، فإنه لما كان العالم سببا فى حصول العلم ، الذى به نجاة النفوس من أنواع المهلكات ، وكان سعيه مقصورا على هذا ، وكانت نجاة العباد على يديه جوزى من جنس عمله ، وجعل من فى السموات والأرض ساعيا فى نجاته من أسباب الهلكات باستغفارهم له ، وإذا كانت الملائكة تستغفر للمؤمنين ، فكيف لا تستغفر لخاصتهم وخلاصتهم . وقد قيل : إن من فى السموات ومن فى الأرض المستغفرين للعالم عام فى الحيوانات ناطقها وبهيمها وطيرها وغيره ،ويؤكد هذا قوله :« حتى الحيتان فى الماء وحتى النملة فى جحرها » [٥] .

فقيل : سبب هذا الاستغفار : أن العالم يعلم الخلق مراعاة هذه الحيوانات ، ويعرفهم ما يحل منها وما يحرم ، ويعرفهم كيفية تناولها واستخدامها وركوبها والانتفاع بها ، وكيفية ذبحها على أحسن الوجوه ، وأرفقها بالحيوان ، والعالم أشفق الناس على الحيوان ، وأقومهم ببيان ما خلق له ، وبالجملة فالرحمة والإحسان التى خلق بهما ولهما الحيوان وكتب لهما حظهما منه إنما يعرف بالعلم ، فالعالم معرف لذلك ، فاستحق أن تستغفر له البهائم ، والله أعلم .

وقوله : « وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب » تشبيه مطابق لحال القمر والكواكب ، فإن القمر يضىء الآفاق ويمتد نوره فى أقطار العالم ، وهذه حال العالم ، وأما الكوكب فنوره لا يجاوز نفسه أو ما قرب منه ، وهذه حال العابد الذى يضىء

---

(١) أحمد (٤ / ٢٣٩) ، والترمذى (٣٥٣٦) فى الدعوات ، باب : فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده ، وقال : « حسن صحيح »،والنسائى (١٥٨) فى الطهارة ، باب:الوضوء من الغائط والبول .

(٢) الحاكم فى المستدرك (١ / ١٠٠) .

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١ / ٣٢ ، ٣٣) .

(٤ ، ٥) سبق تخريجهما ص (١٦٣) .

نور عبادته عليه دون غيره ، وإن جاوز نور عبادته غيره فإنما يجاوزه غير بعيد ، كما يجاوز ضوء الكوكب له مجاوزة يسيرة ، ومن هذا الأثر المروى :« إذا كان يوم القيامة يقول الله للعابد : ادخل الجنة ، فإنما كانت منفعتك لنفسك ،ويقال للعالم :اشفع تشفع ، فإنما كانت منفعتك للناس » (١) .

وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ﷺ :« إذا كان يوم القيامة يؤتى بالعابد والفقيه ، فيقال : للعابد : ادخل الجنة ، ويقال : للفقيه اشفع تشفع » وفى التشبيه المذكور لطيفة أخرى وهو : أن الجهل كالليل فى ظلمته وحندسه ، والعلماء والعباد بمنزلة القمر والكواكب الطالعة فى تلك الظلمة ، وفضل نور العالم فيها على نور العابد كفضل نور القمر على الكواكب . وأيضا فالدين قوامه وزينته وإضاءته بعلمائه وعباده ، فإذا ذهب علماؤه وعباده ذهب الدين ، كما أن السماء إضاءتها وزينتها بقمرها وكواكبها ، فإذا خسف قمرها وانتثرت كواكبها أتاها ما توعد ، وفضل علماء الدين على العباد كفضل ما بين القمر والكواكب .

فإن قيل : كيف وقع تشبيه العالم بالقمر دون الشمس وهى أعظم نورا ؟

قيل : فيه فائدتان :

إحداهما : أن نور القمر لما كان مستفادا من غيره كان تشبيه العالم الذى نوره مستفاد من شمس الرسالة بالقمر أولى من تشبيهه بالشمس .

الثانية : أن الشمس لا يختلف حالها فى نورها ، ولا يلحقها محاق ولا تفاوت فى الإضاءة ، وأما القمر فإنه يقل نوره ويكثر ويمتلئ وينقص ، كما أن العلماء فى العلم على مراتبهم من كثرته وقلته ، فيفضل كل منهم فى علمه بحسب كثرته وقلته وظهوره وخفائه ، كما يكون القمر كذلك ، فعالم كالبدر ليلة تمه ، وآخر دونه بليلة وثانية وثالثة وما بعدها إلى آخر مراتبه ، وهم درجات عند الله .

فإن قيل : تشبيه العلماء بالنجوم أمر معلوم ، كقوله ﷺ : « أصحابى كالنجوم » (٢) ؛ ولهذا هى فى تعبير الرؤيا عبارة عن العلماء ، فكيف وقع تشبيههم هنا بالقمر ؟

قيل : أما تشبيه العلماء بالنجوم ،فإن النجوم يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وكذلك العلماء ، والنجوم زينة للسماء،فكذلك العلماء زينة للأرض ، وهى رجوم للشياطين

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١ / ٢٢) عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ .

(٢) ضعيف . وقال بعض العلماء:موضوع ، انظر : تخريجه مفصلا فى : التلخيص الكبير للحافظ ابن حجر (٤ / ٣٥٠) رقم (٢٥٩٤) ، والسلسلة الضعيفة للألبانى رقم(٥٨)

حائلة بينهم وبين استراق السمع ؛ لئلا يلبسوا بما يسترقونه من الوحى الوارد إلى الرسل من الله على أيدى ملائكته ، وكذلك العلماء رجوم لشياطين الإنس والجن الذى يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، فالعلماء رجوم لهذا الصنف من الشياطين ، ولولاهم لطمست معالم الدين بتلبيس المضلين .

ولكن الله ـ سبحانه ـ أقامهم حراسا حفظة لدينه ،ورجوما لأعدائه وأعداء رسله ، فهذا وجه تشبيههم بالنجوم ، وأما تشبيههم بالقمر ، فذلك كان فى مقام تفضيلهم على أهل العبادة المجردة ، وموازنة ما بينهما من الفضل ،والمعنى أنهم يفضلون العباد الذين ليسوا بعلماء ، كما يفضل القمر سائر الكواكب ، فكل من التشبيهين لائق بموضعه والحمد لله . وقوله : «إن العلماء ورثة الأنبياء » (١) هذا من أعظم المناقب لأهل العلم ، فإن الأنبياء خير خلق الله ، فورثتهم خير الخلق بعدهم .

ولما كان كل موروث ينتقل ميراثه إلى ورثته إذ هم الذين يقومون مقامه من بعده ، ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم فى تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء كانوا أحق الناس بميراثهم ، وفى هذا تنبيه على أنهم أقرب الناس إليهم ، فإن الميراث إنما يكون لأقرب الناس إلى الموروث ، وهذا كما أنه ثابت فى ميراث الدينار والدرهم ، فكذلك هو فى ميراث النبوة ، والله يختص برحمته من يشاء ، وفيه أيضا إرشاد وأمر للأمة بطاعتهم واحترامهم وتعزيزهم وتوقيرهم وإجلالهم ، فإنهم ورثة من هذه بعض حقوقهم على الأمة وخلفاؤهم فيهم . وفيه تنبيه على أن محبتهم من الدين وبغضهم مناف للدين كما هو ثابت لموروثهم، وكذلك معاداتهم ومحاربتهم معاداة ومحاربة لله كما هو فى موروثهم . قال على ـ كرم الله وجه ورضى عنه : محبة العلماء دين يدان به .

وقال ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل : « من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة » (٢) وورثة الأنبياء سادات أولياء لله عز وجل ، وفيه تنبيه للعلماء على سلوك هدى الأنبياء وطريقتهم فى التبليغ من الصبر والاحتمال ، ومقابلة إساءة الناس إليهم بالإحسان ، والرفق بهم واستجلابهم إلى الله بأحسن الطرق ، وبذل ما يمكن من النصيحة لهم ، فإن بذلك يحصل لهم نصيبهم من هذا الميراث العظيم قدره ، الجليل خطره .

وفيه أيضا تنبيه لأهل العلم على تربية الأمة ، كما يربى الوالد ولده فيربونهم بالتدريج

---

(١) سبق تخريجه ص (١٦٢) .

(٢) الحاكم فى المستدرك (٤ / ٣٢٨) فى الرقاق ، خصائص أولياء الله وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

والترقى من صغار العلم إلى كباره ، وتحميلهم منه ما يطيقون كما يفعل الأب بولده الطفل فى إيصال الغذاء إليه ، فإن أرواح البشر بالنسبة إلى الأنبياء والرسل كالأطفال بالنسبة إلى آبائهم ؛ بل دون هذه النسبة بكثير ؛ ولهذا كل روح لم تربها الرسل لم تفلح ولم تصلح لصالحة كما قيل :

ومن لا يربيه الرسول ويسقه لبانا له قد در من ثدى قدسه

فذاك لقيط مالــه نسبة الولا ولا يتعدى طـور أبناء جنسه

وقوله : « إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم » (١) هذا من كمال الأنبياء ، وعظم نصحهم للأمم ، وتمام نعمة الله عليهم ، وعلى أممهم أن أزاح جميع العلل ، وحسم جميع المواد التى توهم بعض النفوس أن الأنبياء من جنس الملوك الذين يريدون الدنيا وملكها ، فحماهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ من ذلك أتم الحماية .

ثم لما كان الغالب على الناس أن أحدهم يريد الدنيا لولده من بعده ، ويسعى ويتعب ، ويحرم نفسه لولده سد هذه الذريعة عن أنبيائه ورسله ، وقطع هذا الوهم الذى عساه أن يخالط كثيرا من النفوس التى تقول ، فلعله إن لم يطلب الدنيا لنفسه فهو يحصلها لولده ، فقال ﷺ : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة » (٢) فلم تورث الأنبياء دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم . وأما قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ [النمل : ١٦] فهو ميراث العلم والنبوة لا غير . وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين غيرهم ؛ وهذا لأن داود عليه السلام كان له أولاد كثيرة سوى سليمان ، فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصا به .

وأيضا ، فإن كلام الله يصان عن الأخبار بمثل هذا ، فإنه بمنزلة أن يقال : مات فلان وورثه ابنه . ومن المعلوم أن كل أحد يرثه ابنه ، وليس فى الأخبار بمثل هذا فائدة .

وأيضا ، فإن ما قبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ [النمل] وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه الله به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب ، وهو العلم والنبوة : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾ [النمل] ، وكــذلك قـول زكريا عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ

(١) سبق تخريجه ص (١٦٣) .

(٢) البخارى (٦٧٢٦ ، ٦٧٢٧) فى الفرائض ، باب : قول النبى ﷺ : « لا نورث ما تركنا صدقة » .

﴿ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم]، فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله ، وإلا فلا يظن بنبى كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوه ماله ، فيسأل الله العظيم ولدا يمنعهم ميراثه ، ويكون أحق به منهم ، وقد نزه الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله ، فبعدا لمن حرف كتاب الله ، ورد على رسوله كلامه ونسب الأنبياء إلى ماهم برآء منزهون عنه ، والحمد لله على توفيقه وهدايته .

ويذكر عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه مر بالسوق ، فوجدهم فى تجاراتهم وبيوعاتهم ، فقال : أنتم ههنا فيما أنتم فيه ، وميراث رسول الله ﷺ يقسم فى مسجده ، فقاموا سراعا إلى المسجد ، فلم يجدوا فيه إلا القرآن والذكر ومجالس العلم ، فقالوا : أين ما قلت يا أبا هريرة . فقال : هذا ميراث محمد ﷺ يقسم بين ورثته وليس بمواريثكم ودنياكم ، أو كما قال .

وقوله : « فمن أخذه أخذ بحظ وافر » [1] أعظم الحظوظ وأجداها ما نفع العبد ودام نفعه له ، وليس هذا إلا حظه من العلم والدين ، فهو الحظ الدائم النافع الذى إذا انقطعت الحظوظ لأربابها فهو موصول له أبد الآبدين ؛ وذلك لأنه موصول بالحى الذى لا يموت ، فلذلك لا ينقطع ولا يفوت ، وسائر الحظوظ تعدم وتتلاشى بتلاشى متعلقاتها ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان] ، فإن الغاية لما كانت منقطعة زائلة تبعتها أعمالهم ، فانقطعت عنهم أحوج ما يكون العامل إلى عمله ، وهذه هى المصيبة التى لا تجبر عياذا بالله واستعانة به وافتقارا وتوكلا عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقوله : « موت العالم مصيبة لا تجبر ، وثلمة لا تسد ، ونجم طمس ، وموت قبيلة أيسر من موت عالم » [2] لما كان صلاح الوجود بالعلماء ، ولولاهم كان الناس كالبهائم بل أسوأ حالا ، كان موت العالم مصيبة لا يجبرها إلا خلف غيره له .

وأيضا ، فإن العلماء هم الذين يسوسون العباد والبلاد والممالك ، فموتهم فساد لنظام العالم ؛ ولهذا لا يزال الله يغرس فى هذا الدين منهم خالفا عن سالف ، يحفظ بهم دينه وكتابه وعباده ، وتأمل إذا كان فى الوجود رجل قد فاق العالم فى الغنى والكرم وحاجتهم إلى ما عنده شديدة ، وهو محسن إليهم بكل ممكن ، ثم مات وانقطعت عنهم تلك المادة ، فموت العالم أعظم مصيبة من موت مثل هذا بكثير ، ومثل هذا يموت بموته أمم وخلائق ،

---

(١) سبق تخريجه ص (١٦٣) .

(٢) سبق تخريجه ص (١٦٣) .

كما قيل :

تعلم ما الرزية فقد مـــــال ولا شاة تموت ولا بعير

ولكن الرزية فقـد حـــــــر يموت بموته بشر كثيـر

وقال آخر

فما كان قيس هلكه هلك واحـد ولكنه بنيان قـوم تهدمـا

الوجه الثامن والأربعون : ما روى الترمذى من حديث الوليد بن مسلم : حدثنا روح ابن جناح عن مجاهد ، عن ابن عباس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد » . قال الترمذى : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الوليد بن مسلم (١) . قلت : قد رواه أبو جعفر محمد بن الحسن بن على اليقطينى : حدثنا عمر بن سعيد بن سنان ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا روح بن جناح عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال الخطيب : والأول هو المحفوظ عن روح عن مجاهد ، عن ابن عباس ، وما أرى الوهم وقع فى هذا الحديث إلا من أبى جعفر ؛ لأن عمر بن سنان عنده عن هشام بن عمار ، عن الوليد ، عن روح عن الزهرى ، عن سعيد حديث : « فى السماء بيت يقال له البيت المعمور حيال الكعبة»(٢) وحديث ابن عباس كانا فى كتاب ابن سنان عن هشام ، يتلو أحدهما الآخر ، فكتب أبو جعفر إسناد حديث أبى هريرة ﷺ ثم عارضه لسهو أو زاغ نظره ، فنزل إلى متن حديث ابن عباس ، فركب متن هذا على إسناد هذا ، وكل واحد منهما ثقة مأمون برىء من تعمد الغلط .

وقد رواه أبو أحمد بن عدى عن محمد بن سعيد بن مهران : حدثنا شيبان أبو الربيع السمان ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل شىء دعامة ، ودعامة الإسلام الفقه فى الدين،والفقيه أشد على الشيطان من ألف عابد » (٣)ولهذا الحديث علة،وهو أنه روى من كلام أبى هريرة،وهو أشبه،رواه همام بن يحيى: حدثنا يزيد بن عياض،حدثنا صفوان بن سليم عن سليمان،عن يسار، عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:«ماعبد الله بشىء أفضل من فقه فى الدين». قال: وقال أبو هريرة لأن أفقه ساعة أحب إلى من أن أحيى ليلة أصليها حتى أصبح،والفقيه أشد على

(١) الترمذى (٢٦٨١) فى العلم ، باب : ما جاء فى عالم المدينة وقال الألبانى : « موضوع » .

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١ / ٢٦) .

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١ / ٢٠٦) ، والكامل فى ضعفاء الرجال لابن عدى (١ / ٣٧٨) .

الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء دعامة، ودعامة الدين الفقه[١].

وقد روى بإسناد فيه من لا يحتج به من حديث عاصم بن أبى النجود ، عن زر بن حبيش ، عن عمر بن الخطاب يرفعه : « إن الفقيه أشد على الشيطان من ألف ورع وألف مجتهد وألف متعبد » . وقال المزنى : روى عن ابن عباس أنه قال : إن الشياطين قالوا لإبليس : يا سيدنا ، مالنا نراك تفرح بموت العالم مالا تفرح بموت العابد ، والعالم لا نصيب منه والعابد نصيب منه ؟ قال : انطلقوا ، فانطلقوا إلى عابد فأتوه فى عبادته فقالوا: إنا نريد أن نسألك ، فانصرف ، فقال إبليس : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى جوف بيضة ؟ فقال : لا أدرى ، فقال : أترونه كفر فى ساعة ، ثم جاؤوا إلى عالم فى حلقته يضحك أصحابه ويحدثهم ، فقالوا : إنا نريد أن نسألك فقال : سل ، فقال : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى جوف بيضة ؟ قال : نعم : قالوا : كيف ؟ قال : يقول : كن فيكون ، فقال : أترون ذلك لا يعدو نفسه ، وهذا يفسد على عالما كثيرا .

وقد رويت هذه الحكاية على وجه آخر : وإنهم سألوا العابد فقالوا : هل يقدر ربك أن يخلق مثل نفسه ؟ فقال : لا أدرى ، فقال : أترونه لم تنفعه عبادته مع جهله ، وسألوا عن ذلك ؟ فقال : هذه المسألة محال ؛ لأنه لو كان مثله لم يكن مخلوقا ، فكونه مخلوقا وهو مثل نفسه مستحيل ؛ فإذا كان مخلوقا لم يكن مثله ؛ بل كان عبدا من عبيده وخلقا من خلقه ، فقال : أترون هذا يهدم فى ساعة ما أبنيه فى سنين ، أو كما قال .

وروى عن عبد الله بن عمرو : فضل العالم على العابد سبعين درجة بين كل درجتين حضر راجعها فى اللسان الفرس [٢]سبعين عاما ، وذلك أن الشيطان يضع البدعة فيبصرها العالم وينهى عنها، والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها . وهذا معناه صحيح ؛ فإن العالم يفسد على الشيطان ما يسعى فيه ، ويهدم ما يبنيه ، فكل ما أراد إحياء بدعة وإماتة سنة حال العالم بينه وبين ذلك ، فلا شيء أشد عليه من بقاء العالم بين ظهرانى الأمة، ولا شيء أحب إليه من زواله من بين أظهرهم ؛ ليتمكن من إفساد الدين وإغواء الأمة . وأما العابد فغايته أن يجاهد ليسلم منه فى خاصة نفسه ، وهيهات له ذلك[٣].

الوجه التاسع والأربعون : ما روى الترمذى من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ، وعالم ومتعلم » . قال الترمذى : هذا حديث حسن [٤] . ولما كانت الدنيا حقيرة عند الله لا

(١) الدارقطنى (٣ / ٧٩) (٢٩٤) فى البيوع ، والهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١٢٦) فى العلم ، باب : فى فضل العلم ، وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه يزيد بن عياض وهو كذاب » .

(٢) حضر الفرس : ارتفاع الفرس فى عدوه . اللسان (حضر) .

(٣) وفى هذا الوجه وغيره أبلغ رد على من يصرفون أوقاتهم وأعمارهم من دعوة الناس ـ وهذا أمر محمود ولكنهم لا يتسلحون بالعالم ويصل الأمر بهم إلى تهوين شأن العلم ، وهم ـ من حيث لا يشعرون ـ يهدمون ولا يبنون .

(٤) الترمذى (٢٣٢٢) فى الزهد ، باب : ما جاء فى هوان الدنيا على الله عز وجل .

تساوى لديه جناح بعوضة ، كانت وما فيها فى غاية البعد منه ، وهذا هو حقيقة اللعنة ، وهو ـ سبحانه ـ إنما خلقها مزرعة للآخرة ومعبرا إليها يتزود منها عباده إليه ، فلم يكن يقرب منها إلا ما كان متضمنا لإقامة ذكره ، ومفضيا إلى محابه ، وهو العلم الذى به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويثنى عليه ويمجد ؛ ولهذا خلقها وخلق أهلها ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)** ﴾ [الذاريات].

وقال : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)** ﴾ [الطلاق] ، فتضمنت هاتان الآيتان أنه ـ سبحانه ـ إنما خلق السموات والأرض وما بينهما ، ليعرف بأسمائه وصفاته وليعبد ، فهذا المطلوب ، وما كان طريقا إليه من العلم والتعلم فهو المستثنى من اللعنة ، واللعنة واقعة على ما عداه ، إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه ، وهذا هو متعلق العقاب فى الآخرة ، فإنه كما كان متعلق اللعنة التى تتضمن الذم والبغض فهو متعلق العقاب ، والله ـ سبحانه ـ إنما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته ولوازم ذلك وما أفضى إليه ، وما عداه فهو مبغوض له مذموم عنده .

الوجه الخمسون : ما رواه الترمذى من حديث أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب (١) ، رواه بعضهم فلم يرفعه ، وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله ؛ لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد ، فقوام الدين بالعلم والجهاد ، ولهذا كان الجهاد نوعين : جهاد باليد والسنان ، وهذا المشارك فيه كثير ، والثانى : الجهاد بالحجة والبيان ، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل وهو جهاد الأئمة ، وهو أفضل الجهادين ؛ لعظم منفعته ، وشدة مؤنته ، وكثرة أعدائه .

قال تعالى فى سورة الفرقان ـ وهى مكية : ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)** ﴾، فهذا جهاد لهم بالقرآن ، وهو أكبر الجهادين وهو جهاد المنافقين أيضا ، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين ؛ بل كانوا معهم فى الظاهر . وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم ومع هذا ، فقد قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [التحريم : ٩] ، ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن .

والمقصود : أن سبيل الله هى الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به إلى الله ؛ ولهذا قال معاذ رضي الله عنه : عليكم بطلب العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، ومدارسته عبادة ، ومذاكرته

---

(١) الترمذى (٢٦٤٧) فى العلم ، باب : فضل طلب العلم ، وضعفه الألبانى .

تسبيح ، والبحث عنه جهاد . ولهذا قرن ـ سبحانه ـ بين الكتاب المنزل والحديد الناصر ، كما قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** (٢٥) ﴾ [الحديد] فذكر الكتاب والحديد ، إذ بهما قوام الدين ، كما قيل :

فما هو إلا الوحى أوحد مرهف تميل ظباه أخدعا كل مايـــل

فهذا شفاء الداء من كل عاقـل وهذا دواء الداء من كل جاهـل

ولما كان كل من الجهاد بالسيف والحجة يسمى سبيل الله ، فسر الصحابة قوله : ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء : ٥٩] بالأمراء والعلماء ، فإنهم المجاهدون فى سبيل الله ، هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم ، فطلب العلم وتعليمه من أعظم سبيل الله عز وجل .

قال كعب الأحبار : طالب العلم كالغادى الرايح فى سبيل الله عز وجل . وجاء عن بعض الصحابة ﷺ : إذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال مات وهو شهيد . وقال سفيان بن عيينة : من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل . وقال أبو الدرداء : من رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص فى عقله ورأيه .

الوجه الحادى والخمسون : ما رواه الترمذى : حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا أبو أسامة عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة » ، قال الترمذى : هذا حديث حسن (١) . قال بعضهم : ولم يقل فى هذا الحديث : صحيح ؛ لأنه يقال : دلس الأعمش فى هذا الحديث ؛ لأنه رواه بعضهم فقال : حدثت عن أبى صالح ، والحديث رواه مسلم فى صحيحه من أوجه عن الأعمش عن أبى صالح (٢) . قال الحاكم فى المستدرك : هو صحيح على شرط البخارى ومسلم (٣) ، رواه عن الأعمش جماعة منهم زايدة وأبو معاوية وابن نمير ، وقد تقدم حديث أبى الدرداء فى ذلك (٤) ، والحديث محفوظ وله أصل ، وقد تظاهر الشرع والقدر على أن الجزاء من جنس العمل ، فكما سلك طريقا يطلب فيه حياة قلبه ونجاته من الهلاك سلك الله به طريقا يحصل له ذلك .

---

(١) الترمذى (٢٦٤٦) فى العلم ، باب : فضل طلب العلم .

(٢) مسلم (٢٦٩٩ / ٣٨) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر .

(٣) الحاكم فى المستدرك (١ / ٨٩) فى العلم ، من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة .

(٤) سبق تخريجه ص (١٦٣) .

وقد روى من حديث عائشة ، رواه ابن عدى من حديث محمد بن عبد الملك الأنصارى عن الزهرى ، عن عروة عنها مرفوعا ولفظه : « أوحى الله إلى : أنه من سلك مسلكا يطلب العلم سهلت له طريقا إلى الجنة » (١) .

الوجه الثانى والخمسون : أن النبى ﷺ دعا لمن سمع كلامه ووعاه وبلغه بالنضرة ، وهى البهجة ونضارة الوجه وتحسينه ، ففى الترمذى وغيره من حديث ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : « نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها وحفظها وبلغها ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم ؛ إخلاص العمل لله ، ومناصحة أئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم » (٢) . وروى هذا الأصل عن النبى ﷺ ابن مسعود ، ومعاذ بن جبل (٣) ، وأبو الدرداء (٤) ، وجبير بن معطعم (٥) ، وأنس بن مالك (٦) ، وزيد بن ثابت (٧) ، والنعمان بن بشير (٨) ، قال الترمذى : حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح ، وحديث زيد بن ثابت حديث حسن . وأخرج الحاكم فى صحيحه حديث جبير بن مطعم ، والنعمان بن بشير وقال فى حديث جبير : على شرط البخارى ومسلم ، و ولو لم يكن فى فضل العلم إلا هذا وحده لكفى به شرفا ، فإن النبى ﷺ دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه وبلغه ، وهذه هى مراتب العلم :

أولها وثانيها : سماعه وعقله ، فإذا سمعه وعاه بقلبه أى عقله ، واستقر فى قلبه كما

---

(١) ذكره ابن عدى فى الكامل فى ضعفاء الرجال (٦ / ١٦٠) .

(٢) الترمذى (٢٦٥٧) فى العلم ، باب : ما جاء فى الحث على تبليغ السماع ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٢٣٢) فى المقدمة ، باب من بلغ علما .

(٣) انظر : الهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١٤٣) فى العلم ، باب فى سماع الحديث وتبليغه ، وقال : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، إلا أنه قال فى الأوسط : رب حامل كلمه بدل فقه ، وفيه عمرو بن واقد رمى بالكذب وهو منكر الحديث » .

(٤) مجمع الزوائد للهيثمى (١ / ١٤٢) فى العلم ، باب : فى سماع الحديث وتبليغه ، وقال : « رواه الطبرانى فى الكبير ومداره على عبد الرحمن بن زبيد وهو منكر الحديث قاله البخارى » .

(٥) ابن ماجه (٢٣١) فى المقدمة ، باب : من بلغ علما ، والحاكم فى المستدرك (١ / ٨٧) فى العلم ، باب : نضر الله عبدا سمع مقالتى فوعاها .

(٦) ابن ماجه (٢٣٦) فى المقدمة ، باب : من بلغ علما .

(٧) الترمذى (٢٦٥٦) فى العلم ، باب : ما جاء فى الحث على تبليغ السماع ، وقال : « حسن » ، وابن ماجه (٢٣٠) فى المقدمة ، باب : من بلغ علما .

(٨) الحاكم فى المستدرك (١ / ٨٨) فى العلم ، باب : فرب حامل فقه لا فقه له ، وقال : « حديث النعمان بن بشير من شرط الصحيح » ، وقال الذهبى : « على شرط مسلم » ، والهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١٤٣) فى العلم ، باب : فى سماع الحديث وتبليغه ، وقال : « رواه الطبرانى فى الكبير ، وفيه عيسى الخياط وهو متروك الحديث » .

يستقر الشيء الذى يوعى فى وعائه ، ولا يخرج منه ، وكذلك عقله هو بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتى لا تشرد وتذهب ؛ ولهذا كان الوعى والعقل قدرا زائدا على مجرد إدراك العلوم .

المرتبة الثالثة : تعامده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب .

المرتبة الرابعة : تبليغه وبثه فى الأمة ؛ ليحصل به ثمرته ومقصوده وهو بثه فى الأمة ، فهو بمنزلة الكنز المدفون فى الأرض الذى لا ينفق منه وهو معرض لذهابه ، فإن العلم ما لم ينفق منه ويعلم فإنه يوشك أن يذهب ، فإذا أنفق منه نما وزكا على الانفاق ، فمن قام بهذه المراتب الأربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن ، فإن النضرة هى البهجة والحسن الذى يكساه الوجه من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتذاذه به ، فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارة على الوجه ؛ ولهذا يجمع له ـ سبحانه ـ بين البهجة والسرور والنضرة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا** (١١) ﴾ [الإنسان] ، فالنضرة فى وجوههم ، والسرور فى قلوبهم ، فالنعيم وطيب القلب يظهر نضارة فى الوجه ، كما قال تعالى : ﴿ **تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ** (٢٤) ﴾ [المطففين] .

والمقصود : أن هذه النضرة فى وجه من سمع سنة رسول الله ﷺ ووعاها وحفظها وبلغها ، فهى أثر تلك الحلاوة والبهجة والسرور الذى فى قلبه وباطنه .

وقوله ﷺ : « رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » تنبيه على فائدة التبليغ ، وإن المبلغ قد يكون أفهم من المبلغ ، فيحصل له فى تلك المقالة ما لم يحصل للمبلغ ، أو يكون المعنى أن المبلغ قد يكون أفقه من المبلغ ، فإذا سمع تلك المقالة حملها على أحسن وجوهها، واستنبط فقهها وعلم المراد منها .

وقوله ﷺ : « ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم » إلى آخره أى : لا يحمل الغل ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة ، فإنها تنفى الغل والغش ، وهو فساد القلب وسخايمه ، فالمخلص لله إخلاصه يمنع غل قلبه ويخرجه ويزيله جملة ؛ لأنه قد انصرفت دواعى قلبه وإرادته إلى مرضاة ربه ، فلم يبق فيه موضع للغل والغش ، كما قال تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** (٢٤) ﴾ [يوسف] فلما أخلص لربه صرف عنه دواعى السوء والفحشاء ، فانصرف عنه السوء والفحشاء ؛ ولهذا لما علم إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص استثناهم من شرطه التى اشترطها للغواية والإهلاك فقال : ﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** (٨٢) **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** (٨٣) ﴾ [ص] ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ**

﴿ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) ﴾ [الحجر] فالإخلاص هو سبيل الخلاص ، والإسلام هو مركب السلامة ، والإيمان خاتم الأمان .

وقوله : « ومناصحة أئمة المسلمين » (١) هذا أيضا مناف للغل والغش ، فإن النصيحة لا تجامع الغل ؛ إذ هى ضده ، فمن نصح الأئمة والأمة فقد برئ من الغل .

وقوله : « ولزوم جماعتهم » هذا أيضا مما يطهر القلب من الغل والغش ، فإن صاحبه للزومه جماعة المسلمين يحب لهم ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لها ، ويسوؤه ما يسوؤهم ، ويسره ما يسرهم ، وهذا بخلاف من انحاز عنهم ، واشتغل بالطعن عليهم والعيب والذم لهم ، كفعل الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم ، فإن قلوبهم ممتلئة غلا وغشا ؛ ولهذا تجد الرافضة أبعد الناس من الإخلاص ، وأغشهم للأئمة والأمة ، وأشدهم بعدا عن جماعة المسلمين ، فهؤلاء أشد الناس غلا وغشا بشهادة الرسول والأمة عليهم وشهادتهم على أنفسهم بذلك ، فإنهم لا يكونون قط إلا أعوانا وظهرا على أهل الإسلام ، فأى عدو قام للمسلمين كانوا أعوان ذلك العدو وبطانته ،وهذا أمر قد شاهدته الأمة منهم ، ومن لم يشاهد فقد سمع منه ما يصم الآذان ويشجى القلوب .

وقوله : « فإن دعوتهم تحيط من ورائهم » هذا من أحسن الكلام وأوجزه وأفخمه معنى ، شبه دعوة المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم المانع من دخول عدوهم عليهم ، فتلك الدعوة ـ التى هى دعوة الإسلام ، وهم داخلونها ـ لما كانت سورا وسياجا عليهم ، أخبر أن من لزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التى هى دعوة الإسلام ، كما أحاطت بهم ، فالدعوة تجمع شمل الأمة ، وتلم شعثها وتحيط بها ، فمن دخل فى جماعتها أحاطت به وشملته .

الوجه الثالث والخمسون : أن النبى ﷺ أمر بتبليغ العلم عنه ، ففى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » (١) . وقال : « ليبلغ الشاهد منكم الغائب » . روى ذلك أبو بكرة (٢) ، ووابصة بن معبد (٣) ، وعمار

---

(١) البخارى (٣٤٦١) فى الأنبياء ، باب : ما ذكر عن بنى إسرائيل ، ولم يعزه صاحب التحفة من هذا الطريق لمسلم (٦ / ٣٩٩) .

(٢) البخارى (٦٧) فى العلم باب : قول النبى ﷺ : « رب مبلغ أوعى من سامع » ، ومسلم (١٦٧٩ / ١٩) فى القسامة ، باب : تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال .

(٣) أبو يعلى (١٥٨٩ ، ١٥٩٠) قال الهيثمى فى المجمع (٣ / ٢٧٣) فى الحج ، باب : الخطب فى الحج : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورواه أبو يعلى ورجاله ثقات » ، وفى مجمع الزوائد أيضا (١ / ١٤٤) فى العلم ، باب: =

ابن ياسر [١] ، وعبد الله بن عمر [٢] ، وعبد الله بن عباس [٣] ، وأسماء بنت يزيد بن السكن [٤] ، وحجير [٥] ، وأبو قريع [٦] ، وسرى بنت نبهان [٧] ، ومعاوية بن حيدة القشيرى [٨] ، وعم أبى حرة [٩] وغيرهم . فأمر ﷺ بالتبليغ عنه ؛ لما فى ذلك من حصول الهدى بالتبليغ ، وله ﷺ أجر من بلغ عنه وأجر من قبل ذلك البلاغ ، وكلما كثر التبليغ عنه تضاعف له الثواب ، فله من الأجر بعدد كل مبلغ وكل مهتد بذلك البلاغ سوى ماله من أجر عمله المختص به،فكل من هدى واهتدى بتبليغه فله أجره ؛ لأنه هو الداعى إليه ، ولو لم يكن فى تبليغ العلم عنه إلا حصول ما يحبه ﷺ لكفى به فضلا .

وعلامة المحب الصادق أن يسعى فى حصول محبوب محبوبه ، ويبذل جهده وطاقته فيها ، ومعلوم أنه لا شئ أحب إلى رسول الله ﷺ من إيصاله الهدى إلى جميع الأمة ، فالمبلغ عنه ساع فى حصول محابه ، فهو أقرب الناس منه وأحبهم إليه ، وهو نائبه وخليفته فى أمته ، وكفى بهذا فضلا وشرفا للعلم وأهله .

الوجه الرابع والخمسون : أن النبى ﷺ قدم بالفضائل العلمية فى أعلا الولايات الدينية وأشرفها ، وقدم بالعلم بالأفضل على غيره . فروى مسلم فى صحيحه من حديث أبى مسعود البدرى عن النبى ﷺ : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم إسلاما أو سنا » وذكر الحديث [١٠] ،

= فى سماع الحديث وتبليغه وقال : « رواه البزار ورجاله موثقون » .

(١) أبو يعلى (١٦٢٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٣ / ٢٧٢) فى الحج ، باب : الخطب فى الحج : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، وفيه من لم أعرفه » .

(٢) ابن ماجه (٢٣٥) فى المقدمة ، باب : من بلغ علما ، وصححه الألبانى .

(٣) الطبرانى فى الكبير (١١ / ١٧٢) (١١٣٩٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٣ / ٢٧٤) فى الحج ، باب : الخطب فى الحج : « رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات » .

(٤) أحمد ٦ / ٤٥٦ .

(٥) الطبرانى فى الكبير (٤ / ٣٤ ، ٣٥) (٣٥٧٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٣ / ٢٧٣) فى الحج ، باب : الخطب فى الحج : « رواه الطبرانى فى الكبير من رواية مخشى بن حجير ، ولم أجد من ترجمه » .

(٦) ذكره ابن حجر فى الإصابة (٤ / ١٦٠) وعزاه لابن منده .

(٧) الطبرانى فى الكبير (٢٤ / ٣٠٧ ، ٣٠٨) (٧٧٧) ، والأوسط (٢٤٣٠) ، وقال فى مجمع الزوائد (٣ / ٢٧٦) فى الحج ، باب : الخطب فى الحج : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، ورجاله ثقات » .

(٨) ابن ماجه (٢٣٤) فى المقدمة ، باب من بلغ علما ، وأحمد ٥ / ٥ ، وصححه الألبانى .

(٩) أحمد (٥ / ٧٢ ، ٧٣) ، وأبو يعلى (١٥٦٩ ، ١٥٧٠) ، والبزار (٢٥٢٤) ، والطبرانى فى الكبير (٤ / ٥٣) (٣٦٠٩) ، وقال الهيثمى(٣ / ٢٦٨) فى الحج ، باب : الخطب فى الحج : « أبو حرة الرقاشى وثقه أبو داود ، وضعفه ابن معين ، وفيه على بن زيد وفيه كلام » .

(١٠) مسلم (٦٧٣ / ٢٩٠) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : من أحق بالإمامة .

فقدم فى الإمامة تفضيله العلم على تقدم الإسلام والهجرة ، ولما كان العلم بالقرآن أفضل من العلم بالسنة لشرف معلومه على معلوم السنة قدم العلم به ثم قدم العلم بالسنة على تقدم الهجرة ، وفيه من زيادة العمل ما هو متميز به ، لكن إنما راعى التقديم بالعلم ثم بالعمل ، وراعى التقديم بالعلم بالأفضل على غيره ، وهذا يدل على شرف العلم وفضله ، وأن أهله هم أهل التقدم إلى المراتب الدينية .

الوجه الخامس والخمسون : ما ثبت فى صحيح البخارى من حديث عثمان بن عفان ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (١) وتعلم القرآن وتعليمه يتناول تعلم حروفه وتعليمها وتعلم معانيه وتعليمها ، وهو أشرف قسمى علمه وتعليمه ، فإن المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة إليه، فتعلم المعنى وتعليمه تعلم الغاية وتعليمها ، وتعلم اللفظ المجرد وتعليمه تعلم الوسائل وتعليمها ، وبينهما كما بين الغايات والوسائل .

الوجه السادس والخمسون : ما رواه الترمذى وغيره فى نسخة عمرو بن الحارث ، عن دراج ، عن أبى الهيثم عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : « لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة » قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب (٢) ، وهذه نسخة معروفة رواها الناس وساق أحمد فى المسند أكثرها أو كثيرا منها ، ولهذا الحديث شواهد ، فجعل النبى ﷺ النهمة فى العلم وعدم الشبع منه من لوازم الإيمان وأوصاف المؤمنين ، وأخبر أن هذا لا يزال دأب المؤمن حتى دخوله الجنة ؛ ولهذا كان أئمة الإسلام إذا قيل لأحدهم : إلى متى تطلب العلم ؟ فيقول : إلى الممات . قال نعيم بن حماد : سمعت عبد الله بن المبارك ﷺ يقول ـ وقد عابه قوم فى كثرة طلبه للحديث فقالوا له . إلى متى تسمع : قال : إلى الممات . وقال الحسين بن منصور الجصاص : قلت : لأحمد بن حنبل ﷺ : إلى متى يكتب الرجل الحديث ؟ قال : إلى الموت . وقال عبد الله بن محمد البغوى : سمعت أحمد بن حنبل ﷺ يقول : إنما أطلب العلم إلى أن أدخل القبر . وقال محمد بن إسماعيل الصائغ : كنت أصوغ مع أبى ببغداد ، فمر بنا أحمد بن حنبل وهو يعدو ونعلاه فى يديه ، فأخذ أبى بمجامع ثوبه فقال : يا أبا عبد الله ، ألا تستحى ! إلى متى تعدو مع هؤلاء ؟ قال : إلى الموت . وقال عبد الله بن بشر الطالقانى : أرجو أن يأتينى أمر ربى والمحبرة بين يدى ، ولم يفارقنى العلم والمحبرة . وقال حميد بن محمد بن يزيد البصرى :

---

(١) البخارى (٥٠٢٧) فى فضائل القرآن ، باب : خيركم من تعلم القرآن وعلمه .

(٢) الترمذى (٢٦٨٦) فى العلم ، باب : ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ، وضعفه الألبانى .

جاء ابن بسطام الحافظ يسألنى عن الحديث فقلت له : ما أشد حرصك على الحديث ؟ فقال : أو ما أحب أن أكون فى قطار آل رسول الله ﷺ . وقيل لبعض العلماء : متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟قال : ما حسنت به الحياة ، وسئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة أيحسن أن يطلب العلم ؟ قال : إن كان يحسن به أن يعيش .

الوجه السابع والخمسون : ما رواه الترمذى أيضا من حديث إبراهيم بن الفضل ، عن المقبرى ، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها » . قال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه ، وإبراهيم بن الفضل المدينى المخزومى يضعف فى الحديث من قبل حفظه (١) . وهذا أيضا شاهد لما تقدم وله شواهد ، والحكمة هى العلم فإذا فقده المؤمن فهو بمنزلة من فقد ضالة نفيسة من نفائسه ، فإذا وجدها قر قلبه وفرحت نفسه بوجدانها ، كذلك المؤمن إذا وجد ضالة قلبه وروحه ، التى هو دائما فى طلبها ونشدانها والتفتيش عليها ، وهذا من أحسن الأمثلة ، فإن قلب المؤمن يطلب العلم حيث وجده ، أعظم من طلب صاحب الضالة لها .

الوجه الثامن والخمسون : قال الترمذى : حدثنا أبو كريب ، حدثنا خلف بن أيوب ، عن عوف ، عن ابن سيرين ، عن أبى هريرة رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ : « خصلتان لا يجتمعان فى منافق ؛ حسن سمت ، وفقه فى الدين » . قال الترمذى : هذا حديث غريب ، ولا يعرف هذا الحديث من حديث عوف إلا من حديث هذا الشيخ خلف بن أيوب العامرى ، ولم أر أحدا يروى عنه غير أبى كريب محمد بن العلاء ، ولا أدرى كيف هو (٢) . وهذه شهادة بأن من اجتمع فيه حسن السمت والفقه فى الدين ، فهو مؤمن ، وأحرى بهذا الحديث أن يكون حقا ، وإن كان إسناده فيه جهالة ، فإن حسن السمت والفقه فى الدين من أخص علامات الإيمان ، ولن يجمعهما الله فى منافق ، فإن النفاق ينافيهما وينافيانه .

الوجه التاسع والخمسون : قال الترمذى : حدثنا مسلم بن حاتم الأنصارى ، حدثنا أبو حاتم البصرى ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى ، عن أبيه ، عن على بن زيد ، عن سعيد بن المسيب قال : قال أنس بن مالك رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « يا بنى إن قدرت، أن تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل ، ثم قال : يا بنى ، وذلك من سنتى ، ومن أحيا سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى كان معى فى الجنة » ، وفى الحديث قصة طويلة. قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، ومحمد بن عبد الله

---

(١) الترمذى (٢٦٨٧) فى العلم ، باب : ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ، وقال الألبانى : « ضعيف جدا » .
(٢) الترمذى (٢٦٨٤) فى العلم ، باب : ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ، وصححه الألبانى .

الأنصارى صدوق ، وأبوه ثقة ، وعلى بن زيد صدوق إلا أنه ربما يرفع الشيء الذى يوقفه غيره ، سمعت محمد بن بشارة يقول : قال أبو الوليد : قال شعبة : حدثنا على بن زيد وكان رفاعا . قال الترمذى : ولا يعرف لسعيد بن المسيب عن أنس رواية إلا هذا الحديث بطوله ، وقد روى عباد المنقرى هذا الحديث ، عن على بن زيد عن أنس ولم يذكر فيه عن سعيد بن المسيب . وذاكرت به محمد بن إسماعيل فلم يعرفه ، ولم يعرف لسعيد بن المسيب عن أنس هذا الحديث ولا غيره . ومات أنس سنة ثلاث وتسعين وسعيد بن المسيب سنة خمس وتسعين بعده بسنتين (١) .

قلت : ولهذا الحديث شواهد ؛ منها : ما رواه الدارمى عبد الله : حدثنا محمد بن عيينة ، عن مروان بن معاوية الفزارى ، عن كثير بن عبد الله ، عن أبيه ، عن جده : أن النبى ﷺ قال لبلال بن الحارث : « اعلم » قال : ما أعلم يارسول الله ؟ قال : « اعلم يا بلال » قال : ما أعلم يا رسول الله ؟ قال : « أنه من أحيا سنة من سنتى قد أميتت بعدى كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئا » رواه الترمذى عنه ، وقال : حديث حسن . قال : ومحمد بن عيينة مصيصى شامى ، وكثير بن عبد الله هو ابن عمرو بن عوف المزنى (٢) . وفى حديثه ثلاثة أقوال لأهل الحديث : منهم من يصححه ، ومنهم من يحسنه ، وهما للترمذى ، ومنهم من يضعفه ولا يراه حجة كالإمام أحمد وغيره ، ولكن هذا الأصل ثابت من وجوه كحديث : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه » (٣) وهو صحيح من وجوه ، وحديث : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » وهو حديث حسن رواه الترمذى وغيره(٤) ، فهذا الأصل محفوظ عن النبى ﷺ ، فالحديث الضعيف فيه بمنزلة الشواهد والمتابعات فلا يضر ذكره .

الوجه الستون : أن النبى ﷺ : أوصى بطلبة العلم خيرا ، وما ذاك إلا لفضل مطلوبهم وشرفه . قال الترمذى : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا أبو داود الحفرى ، عن

---

(١) الترمذى (٢٦٧٨) فى العلم ، باب : ما جاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع ، وضعفه الألبانى .

(٢) الترمذى (٢٦٧٧) فى العلم ، باب : ما جاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع ، وابن ماجه (٢٠٩) فى المقدمة ، باب : من أحيا سنة قد أميتت ، وضعفه الألبانى .

(٣) مسلم (٢٦٧٤ / ١٦) فى العلم ، باب : من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة ، وأبو داود (٤٦٠٩) فى السنة ، باب : لزوم السنة .

(٤) مسلم (١٨٩٣ / ١٣٣) فى الإمارة ، باب : فضل إعانة الغازى فى سبيل الله بمركوب وغيره ، وخلافته فى أهله بخير ، والترمذى (٢٦٧١) فى العلم ، باب : ما جاء الدال على الخير كفاعله .

سفيان ، عن أبى هارون قال : كنا نأتى أبا سعيد فيقول : مرحبا بوصية رسول الله ﷺ إن النبى ﷺ قال : « إن الناس لكم تبع ، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين ، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا »(١) . حدثنا قتيبة ، حدثنا روح بن قيس ، عن أبى هارون العبدى ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى ﷺ قال : « يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلمون ، فإذا جاؤوكم فاستوصوا بهم خيرا » . فكان أبو سعيد إذا رآنا قال : مرحبا بوصية رسول الله ﷺ . قال الترمذى : هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث هارون العبدى عن أبى سعيد . قال أبو بكر العطار : قال على بن المدينى ، قال يحيى بن سعيد : كان شعبة يضعف أبا هارون العبدى . قال يحيى : وما زال ابن عوف يروى عن أبى هارون حتى مات ، وأبو هارون اسمه عمارة بن جوين (٢) .

الوجه الحادى والستون : ما رواه الترمذى من حديث أبى داود ، عن عبد الله بن سنجبرة ، عن سخبرة ، عن النبى ﷺ قال : « من طلب العلم كان كفارة لما مضى » (٣) هذا الأصل لم أجد فيه إلا هذا الحديث ، وليس بشىء ، فإن أبا داود هو نفيع الأعمى غير ثقة ، ولكن قد تقدم أن العالم يستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض ، وقد رويت آثار عديدة عن جماعة من الصحابة فى هذا المعنى (٤) . منها : مارواه الثورى ، عن عبد الكريم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : أن ملكا موكلا بطالب العلم حتى يرده من حيث أبداه مغفورا له . ومنها : مارواه قطر بن خليفة ، عن أبى الطفيل عن على : ما انتعل عبد قط ، ولا تخفف ، ولا لبس ثوبا ليغدو فى طلب العلم ، إلا غفرت ذنوبه حيث يخطو عند باب بيته ، وقد رواه ابن عدى مرفوعا (٥) . وقال : ليس يرويه عن قطر غير إسماعيل بن يحيى التميمى .

قلت : وقد رواه إسماعيل بن يحيى هذا ، عن الثورى ، حدثنا محمد بن أيوب الجوزجانى ، عن مجالد ، عن الشعبى ، عن الأسود ، عن عائشة مرفوعا : « من انتعل ليتعلم خيرا ، غفر له قبل أن يخطو » ، وقد رواه عبد الرحمن بن محمد المحاربى عن قطر ، عن أبى الطفيل ، عن على (٦) . وهذه الأسانيد وإن لم تكن بمفردها حجة فطلب العلم من

(١ ، ٢) الترمذى (٢٦٥٠ ، ٢٦٥١) فى العلم ، باب : ما جاء فى الاستيصاء بمن يطلب العلم ، وضعفه الألبانى .

(٣) الترمذى (٢٦٤٨) فى العلم ، باب : فضل طلب العلم ، وقال : « هذا حديث ضعيف الإسناد » وقال الألبانى: « موضوع » .

(٤) تقدمت الأحاديث والآثار ص (١٦٣) .

(٥) الكامل فى ضعفاء الرجال لابن عدى (١ / ٣٠٧) .

(٦) الطبرانى فى الأوسط (٥٧٢٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ١٣٧ ، ١٣٨) فى العلم ، باب : فيمن يخرج فى طلب العلم والخير :« فيه إسماعيل بن يحيى التيمى وهو كذاب » .

أفضل الحسنات ، والحسنات يذهبن السيئات ، فجدير أن يكون طلب العلم ابتغاء وجه الله يكفر مامضى من السيئات ، فقد دلت النصوص أن إتباع السيئة الحسنة تمحوها فكيف بما هو من أفضل الحسنات وأجل الطاعات؟ فالعمدة على ذلك لا على حديث أبى داود ، والله أعلم . وقد روى عن عمر بن الخطاب ﷺ : أن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة ، فإذا سمع العلم خاف ورجع وتاب ، فانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب ، فلا تفارقوا مجالس العلماء .

الوجه الثانى والستون : ما رواه ابن ماجه فى سننه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال خرج رسول الله ﷺ ، فإذا فى المسجد مجلسان ؛ مجلس يتفقهون ، ومجلس يدعون الله تعالى ويسألونه فقال : « كلا المجلسين إلى خير ؛ أما هؤلاء فيدعون الله ، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل ، هؤلاء أفضل ، بالتعليم أرسلت » (١) ثم قعد معهم .

الوجه الثالث والستون : أن الله تبارك وتعالى يباهى ملائكته بالقوم الذين يتذاكرون العلم ويذكرون الله ، ويحمدونه على مامن عليهم به منه . قال الترمذى : حدثنا محمد ابن بشار ، حدثنا مرحوم بن عبد العزيز العطار ، حدثنا أبو نعامة ، عن أبى عثمان ، عن أبى سعيد قال : خرج معاوية إلى المسجد فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا جلسنا نذكر الله عز وجل قال : الله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : الله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلتى من رسول الله ﷺ أقل حديثا عنه منى أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه قال : « ما يجلسكم ؟ » قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده لما هدانا للإسلام ، ومن علينا بك . قال : « الله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ » قالوا : الله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : « أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، أنه أتانى جبريل فأخبرنى أن الله تعالى يباهى بكم الملائكة » . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وأبو نعامة السعدى اسمه عمرو بن عيسى ، وأبو عثمان النهدى اسمه عبد الرحمن بن مل (٢) . فهؤلاء كانوا قد جلسوا يحمدون الله بذكر أوصافه وآلائه ، ويثنون عليه بذلك ، ويذكرون حسن الإسلام ، ويعترفون لله بالفضل

---

(١) ابن ماجه (٢٢٩) فى المقدمة ، باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم ، وفى الزوائد : « إسناده ضعيف ، داود ، وبكر ، وعبد الرحمن كلهم ضعفاء » ، وضعفه الألبانى .

(٢) الترمذى (٣٣٧٩) فى الدعوات ، باب : ما جاء فى القوم يجلسون فيذكرون الله عز وجل مالهم من الفضل ، والحديث رواه مسلم (٢٧٠١ / ٤٠) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر .

العظيم ، إذ هداهم له ومن عليهم برسوله ، وهذا أشرف علم على الإطلاق ، ولا يعنى به إلا الراسخون فى العلم ، فإنه يتضمن معرفة الله وصفاته وأفعاله ودينه ورسوله ، ومحبة ذلك وتعظيمه والفرح به ، وأحرى بأصحاب هذا العلم أن يباهى الله بهم الملائكة ، وقد بشر النبى ﷺ الرجل الذى كان يحب سورة الإخلاص ، وقال : أحبها لأنها صفة الرحمن عز وجل فقال : « حبك إياها أدخلك الجنة » ، وفى لفظ آخر : « أخبروه أن الله يحبه»(١)، فدل على أن من أحب صفات الله أحبه الله وأدخله الجنة .

والجهمية أشد الناس نفرة وتنفيرا عن صفاته ونعوت كماله ، يعاقبون ويذمون من يذكرها ويقرؤها ويجمعها ويعتنى بها ؛ ولهذا لهم المقت والذم عند الأمة ، وعلى لسان كل عالم من علماء الإسلام ، والله تعالى أشد بغضا ومقتا لهم ؛ جزاء وفاقا .

الوجه الرابع والستون : أن أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوة ، فالله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، وكيف لا يكون أفضل الخلق عند الله من جعلهم وسائط بينه وبين عباده فى تبليغ رسالاته ، وتعريف أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ومراضيه ومساخطه وثوابه وعقابه ، وخصهم بوحيه ، واختصهم بتفضيله ، وارتضاهم لرسالته إلى عباده ، وجعلهم أزكى العالمين نفوسا ، وأشرفهم أخلاقا ، وأكملهم علوما وأعمالا ، وأحسنهم خلقة ، وأعظمهم محبة وقبولا فى قلوب الناس ، وبرأهم من كل وصم وعيب ، وكل خلق دنىء ، وجعل أشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم ونيابتهم فى أممهم ، فإنهم يخلفونهم على منهاجهم ، وطريقهم من نصيحتهم للأمة ، وإرشادهم الضال ، وتعليمهم الجاهل ، ونصرهم المظلوم ، وأخذهم على يد الظالم ، وأمرهم بالمعروف وفعله ،ونهيهم عن المنكر وتركه ، والدعوة إلى الله بالحكمة للمستجيبين ، والموعظة الحسنة للمعرضين الغافلين ، والجدال بالتى هى أحسن للمعاندين المعارضين . فهذه حال أتباع المرسلين وورثة النبيين ، قال تعالى : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

وسواء كان المعنى : أنا ومن اتبعنى على بصيرة وأنا أدعو إلى الله ، أو المعنى : أدعو إلى الله على بصيرة ، والقولان متلازمان ، فإنه لا يكون من أتباعه حقا إلا من دعا إلى الله على بصيرة ، كما كان متبوعه يفعل ﷺ ، فهؤلاء خلفاء الرسل حقا وورثتهم دون الناس ، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علما وعملا ، وهداية وإرشادا وصبرا وجهادا ، وهؤلاء هم الصديقون ، وهم أفضل أتباع الأنبياء ورأسهم ، وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه .

---

(١) البخارى (٧٧٤) فى الأذان ، باب : الجمع بين السورتين فى الركعة ، وأحمد (٣ / ١٥٠) .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [النساء] فذكر مراتب السعداء ، وهى أربعة ، وبدأ بأعلاهم مرتبة ، ثم الذين يلونهم إلى آخر المراتب ، وهؤلاء الأربعة هم : أهل الجنة الذين هم أهلها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه .

الوجه الخامس والستون : أن الإنسان إنما يميز على غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان ، وإلا فغيره من الدواب والسباع أكثر أكلا منه ، وأقوى بطشا ، وأكثر جماعا وأولادا ، وأطول أعمارا ، وإنما ميز على الدواب والحيوانات بعلمه ، وبيانه ، فإذا عدم العلم بقى معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب ، وهى الحيوانية المحضة ، فلا يبقى فيه فضل عليهم ؛ بل قد يبقى شرا منهم ، كما قال تعالى فى هذا الصنف من الناس : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الانفال] فهؤلاء هم الجهال ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الانفال : ٢٣] أى ليس عندهم محل قابل للخير (ولو) كان محلهم قابلا للخير (لأسمعهم) أى : لأفهمهم والسمع ههنا سمع فهم ، وإلا فسمع الصوت حاصل لهم وبه قامت حجة الله عليهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأنفال] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة] وسواء كان المعنى : ومثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتا مجردة ، أو كان المعنى : ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذى ينعق بها ، فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء ، فالقولان متلازمان ؛ بل هما واحد ، وإن كان التقدير الثانى أقرب إلى اللفظ ، وأبلغ فى المعنى ، فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام ، فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التى يميز بها صاحبها عن سائر الحيوان .

والسمع يراد به : إدراك الصوت ، ويراد به فهم المعنى ، ويراد به القبول والإجابة ، والثلاثة فى القرآن .

فمن الأول : قوله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [المجادلة] وهذا أصرح ما يكون فى إثبات صفة السمع ، وذكر الماضى والمضارع واسم الفاعل سمع ويسمع ، وهو سميع وله السمع كما قالت عائشة رضي الله عنها : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى

رسول الله ﷺ ، وأنا فى جانب البيت ، وإنه ليخفى على بعض كلامها ؛ فأنزل الله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ .

والثانى : سمع الفهم كقوله : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ أى لأفهمهم ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنفال] لما فى قلوبهم من الكبر ، والإعراض عن قبول الحق ، ففيهم آفتان ؛ إحداهما : أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم ؛ ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم ، وهذا غاية النقص والعيب .

والثالث : سمع القبول والإجابة كقوله تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٤٧] أى : قابلون مستجيبون ، ومنه قوله : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ [المائدة : ٤٢] أى : قابلون له مستجيبون لأهله ، ومنه قول المصلى : سمع الله لمن حمده . أى أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه ، وقول النبى ﷺ : « إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا : ربنا ولك الحمد ، يسمع الله لكم » (١) أى : يجيبكم ، والمقصود : أن الإنسان إذا لم يكن له علم بما يصلحه فى معاشه ومعاده كان الحيوان البهيم خيرا منه ؛ لسلامته فى المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل .

الوجه السادس والستون : أن العلم حاكم على ما سواه ولا يحكم عليه شىء ، فكل شىء اختلف فى وجوده وعدمه ، وصحته وفساده ، ومنفعته ومضرته، ورجحانه ، ونقصانه ، وكماله ونقصه ، ومدحه وذمه ، ومرتبته فى الخير وجودته ، ورداءته وقربه وبعده ، وإفضائه إلى مطلوب كذا ، وعدم إفضائه وحصول المقصود به ، وعدم حصوله إلى سائر جهات المعلومات ، فإن العلم حاكم على ذلك كله ، فإذا حكم العلم انقطع النزاع ووجب الإتباع ، وهو الحاكم على الممالك والسياسات والأموال والأقلام فملك لا يتأيد بعلم لا يقوم ، وسيف بلا علم مخراق لاعب ، وقلم بلا علم حركة عابث ، والعلم مسلط حاكم على ذلك كله ، ولا يحكم شىء من ذلك على العلم .

وقد اختلف فى تفضيل مداد العلماء على دم الشهداء وعكسه ، وذكر لكل قول وجوه من التراجيح والأدلة ، ونفس هذا النزاع دليل على تفضيل العلم ومرتبته ، فإن الحاكم فى هذه المسألة هو العلم ، فبه وإليه وعنده يقع التحاكم والتخاصم ، والمفضل منهما من حكم له بالفضل .

فإن قيل : فكيف يقبل حكمه لنفسه ؟

---

(١) البخارى (٧٩٥) فى الأذان ، باب : ما يقول الإمام ومن خلفه إذا رفع رأسه من الركوع ، ومسلم (٣٩٢ / ٢٨) فى الصلاة باب : إثبات التكبير فى كل خفض ورفع فى الصلاة إلا رفعه من الركوع فيقول فيه : سمع الله لمن حمده .

قيل : وهذا أيضا دليل على تفضيله وعلو مرتبته وشرفه ، فإن الحاكم إنما لم يسغ أن يحكم لنفسه لأجل مظنة التهمة ، والعلم لا تلحقه تهمة فى حكمه لنفسه ، فإنه إذا حكم حكم بما تشهد العقول والنظر بصحته وتتلقاه بالقبول ويستحيل حكمه لتهمة ، فإنه إذا حكم بها انعزل عن مرتبته ، وانحط عن درجته ، فهو الشاهد المزكى العدل ، والحاكم الذى لا يجور ولا يعزل .

فإن قيل : فماذا حكمه فى هذه المسألة التى ذكرتموها ؟

قيل : هذه المسألة كثر فيها الجدال واتسع المجال ، وأدلى كل منهما بحجته ، واستعلى بمرتبته ، والذى يفصل النزاع ويعيد المسألة إلى مواقع الإجماع الكلام فى أنواع مراتب الكمال ، وذكر الأفضل منهما والنظر فى أى هذين الأمرين أولى به وأقرب إليه ، فهذه الأصول الثلاثة تبين الصواب ، ويقع بها فصل الخطاب . فأما مراتب الكمال فأرفع : النبوة ، والصديقية ، والشهادة ، والولاية . وقد ذكرها الله ـ سبحانه ـ فى قوله : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)** ﴾ [النساء] ، وذكر تعالى هؤلاء الأربع فى سورة الحديد ، فذكر تعالى الإيمان به وبرسوله ، ثم ندب المؤمنين إلى أن تخشع قلوبهم لكتابه ووحيه ، ثم ذكر مراتب الخلائق شقيهم وسعيدهم ، فقال : ﴿ **إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩)** ﴾ ، وذكر المنافقين قبل ذلك ، فاستوعبت هذه الآية أقسام العباد شقيهم وسعيدهم .

والمقصود : أنه ذكر فيها المراتب الأربعة : الرسالة ، والصديقية ، والشهادة ، والولاية ، فأعلا هذه المراتب النبوة والرسالة ، ويليها الصديقية فالصديقون هم أئمة أتباع الرسل ، ودرجتهم أعلا الدرجات بعد النبوة ، فإن جرى قلم العالم بالصديقية وسال مداده بها كان أفضل من دم الشهيد الذى لم يلحقه فى رتبة الصديقية ، وإن سال دم الشهيد بالصديقية وقطر عليها كان أفضل من مداد العالم الذى قصر عنها فأفضلهما صديقهما ، فإن فى الصديقية استويا فى المرتبة ،والله أعلم. والصديقية: هى كمال الإيمان بما جاء به الرسول علما وتصديقا وقياما به، فهى راجعة إلى نفس العلم،فكل من كان أعلم بما جاء به الرسول وأكمل تصديقا له كان أتم صديقية ، فالصديقية : شجرة أصولها العلم ، وفروعها التصديق ، وثمرتها العمل . فهذه كلمات جامعة فى مسألة العالم والشهيد وأيهما أفضل .

الوجه السابع والستون : أن النصوص النبوية قد تواترت بأن أفضل الأعمال إيمان بالله ، فهو رأس الأمر ، والأعمال بعده على مراتبها ومنازلها ، والإيمان له ركنان : أحدهما : معرفة ما جاء به الرسول والعلم به . والثانى : تصديقه بالقول والعمل ، والتصديق بدون العلم والمعرفة محال ، فإنه فرع العلم بالشىء المصدق به ؛ فإذا العلم من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ، ولا تقوم شجرة الإيمان إلا على ساق العلم والمعرفة ؛ فالعلم إذا أجل المطالب وأسنى المواهب .

الوجه الثامن والستون : أن صفات الكمال كلها ترجع إلى العلم والقدرة والإرادة ، والإرادة فرع العلم ، فإنها تستلزم الشعور بالمراد ، فهى مفتقرة إلى العلم فى ذاتها وحقيقتها ، والقدرة لا تؤثر إلا بواسطة الإرادة ، والعلم لا يفتقر فى تعلقه بالمعلوم إلى واحدة منهما ، وأما القدرة والإرادة فكل منها يفتقر فى تعلقه بالمراد والمقدور إلى العلم ، وذلك يدل على فضيلته وشرف منزلته .

الوجه التاسع والستون : أن العلم أعم الصفات تعلقا بمتعلقه وأوسعها ، فإنه يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل والجائز والموجود والمعدوم ، فذات الرب ـ سبحانه ـ وصفاته وأسماؤه معلومة له ويعلم العباد من ذلك ما علمهم العليم الخبير ، وأما القدرة والإرادة فكل منهما خاص التعلق ، أما القدرة فإنما تتعلق بالممكن خاصة لا بالمستحيل ولا بالواجب ، فهى أخص من العلم من هذا الوجه وأعم من الإرادة ، فإن الإرادة لا تتعلق إلا ببعض الممكنات ، وهو ما أريد وجوده ، فالعلم أوسع وأعم وأشمل فى ذاته ومتعلقه .

الوجه السبعون : أن الله ـ سبحانه ـ أخبر عن أهل العلم بأنه جعلهم أئمة يهدون بأمره ويأتم بهم من بعدهم ، فقال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** (٢٤) ﴾ [السجدة] ، وقال فى موضع آخر : ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** (٧٤) ﴾ [الفرقان] أى أئمة يقتدى بنا من بعدنا . فأخبر ـ سبحانه ـ أن بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين ، وهى أرفع مراتب الصديقين ، واليقين : هو كمال العلم وغايته ، فبتكميل مرتبة العلم تحصل إمامة الدين ، وهى ولاية آلتها العلم يختص الله بها من يشاء من عباده .

الوجه الحادى والسبعون : أن حاجة العباد إلى العلم ضرورية فوق حاجة الجسم إلى الغذاء ؛ لأن الجسم يحتاج إلى الغذاء فى اليوم مرة أو مرتين ، وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس ؛ لأن كل نفس من أنفاسه فهو محتاج فيه إلى أن يكون مصاحبا لإيمان أو حكمة ، فإن فارقه الإيمان أو حكمة فى نفس من أنفاسه ، فقد عطب وقرب هلاكه ، وليس إلى حصول ذلك سبيل إلا بالعلم ، فالحاجة إليه فوق الحاجة إلى الطعام والشراب ؛ وقد ذكر الإمام أحمد هذا المعنى بعينه فقال : الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب

لأن الطعام والشراب يحتاج إليه فى اليوم مرة أو مرتين ، والعلم يحتاج إليه كل وقت .

الوجه الثانى والسبعون : أن صاحب العلم أقل تعبا وعملا وأكثر أجرا ، واعتبر هذا بالشاهد ، فإن الصناع والأجراء يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم ، والأستاذ المعلم يجلس يأمرهم وينهاهم ، ويريهم كيفية العمل ، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه .

وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المعنى حيث قال : « أفضل الأعمال إيمان بالله ، ثم الجهاد »(١) ، فالجهاد فيه بذل النفس ، وغاية المشقة والإيمان علم القلب وعمله وتصديقه ، وهو أفضل الأعمال ، مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة ؛ وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها ، وفاضلها من مفضولها ، وراجحها من مرجوحها ، فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال ، والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة فى كثرة المشقة ، فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانيه مفضولا ، ورب عمل فاضل والمفضول أكثر مشقة منه ، واعتبر هذا بحال الصديق فإنه أفضل الأمة . ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملا وحجا وصوما وصلاة وقراءة منه . قال أبو بكر بن عياش : ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ، ولكن بشىء وقر فى قلبه ، وهذا موضوع المثل المشهور .

من لى بمثل سيرك المدلل تمشى رويدا وتجى فى الأول

الوجه الثالث والسبعون : أن العلم إمام العمل وقائد له ، والعمل تابع له ومؤتم به ، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتديا به فهو غير نافع لصاحبه ؛ بل مضرة عليه ، كما قال بعض السلف : من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، والأعمال إنما تتفاوت فى القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له ، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول ، والمخالف له هو المردود ، فالعلم هو الميزان وهو المحك .

قال تعالى : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** (٢) ﴾ [الملك] قال الفضيل بن عياض : هو أخلص العمل وأصوبه . قالوا : يا أبا على ، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا ، فالخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة . وقد قال تعالى : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** (١١٠) ﴾ [الكهف] فهذا هو العمل المقبول الذى لا يقبل الله من الأعمال سواه ، وهو أن يكون موافقا لسنة رسول الله ﷺ مرادا به وجه الله ، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم ، فإنه إن لم يعلم ما جاء

(١) البخارى (١٥١٩) فى الحج ، باب : فضل الحج المبرور .

به الرسول لم يمكنه قصده ، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده ، فلولا العلم لما كان عمله مقبولا ، فالعلم هو الدليل على الإخلاص وهو الدليل على المتابعة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة] وأحسن ما قيل فى تفسير الآية : إنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه فى ذلك العمل ، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره ، وهذا إنما يحصل بالعلم ، وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله ، والله أعلم .

الوجه الرابع والسبعون : أن العامل بلا علم كالسائر بلا دليل ، ومعلوم أن عطب مثل هذا أقرب من سلامته وإن قدر سلامته اتفاقا نادرا فهو غير محمود ؛ بل مذموم عند العقلاء ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : من فارق الدليل ضل السبيل ، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول . قال الحسن : العامل على غير علم كالسالك على غير طريق ، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح ، فاطلبوا العلم طلبا لا تضروا بالعبادة ، واطلبوا العبادة طلبا لا تضروا بالعلم ، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ ، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا ، والفرق بين هذا وبين ما قبله أن العلم مرتبته فى الوجه الأول مرتبة المطاع المتبوع المقتدى به ، المتبع حكمه ، المطاع أمره ، ومرتبته فى هذا الوجه مرتبة الدليل المرشد إلى المطلوب الموصل إلى الغاية .

الوجه الخامس والسبعون : أن النبى ﷺ ثبت فى الصحيحين عنه أنه كان يقول : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » (١) . وفى بعض السنن : أنه كان يكبر تكبيرة الإحرام فى صلاة الليل ثم يدعو بهذا الدعاء (٢) . والهداية : هى العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره ، فالمهتدى : هو العامل بالحق المريد له ، وهى أعظم نعمة لله على العبد ؛ ولهذا أمرنا ـ سبحانه ـ أن نسأله هداية الصراط المستقيم كل يوم وليلة فى صلواتنا الخمس ، فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذى يرضى الله فى كل حركة ظاهرة وباطنة ؛ فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق ، فيجعل إرادته فى قلبه ، ثم إلى من يقدر على فعله ، ومعلوم أن ما يجهله العبد أضعاف أضعاف ما يعلمه ، وإن كل ما يعلم أنه حق لا

---

(١) مسلم (٧٧٠ / ٢٠٠) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ، ولم يعزه صاحب التحفة (١٢ / ٣٧٠) من هذا الطريق للبخارى .

(٢) أبو داود (٧٦٧) فى الصلاة ، باب : ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ، والترمذى (٣٤٢٠) فى الدعوات ، باب: ما جاء فى الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل ، وقال : « حسن غريب » ، وصححه الألبانى .

تطاوعه نفسه على إرادته ، ولو أراده لعجز عن كثير منه ، فهو مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضى والحال والمستقبل ، أما الماضى فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه ، وهل وقع على السداد فيشكر الله عليه ويستديمه ؟ أم خرج فيه عن الحق فيتوب إلى الله تعالى منه ويستغفره ، ويعزم على ألا يعود ؟

وأما الهداية فى الحال فهى مطلوبة منه ، فإنه ابن وقته فيحتاج أن يعلم حكم ما هو متلبس به من الأفعال ، هل هو صواب أم خطأ ؟ وأما المستقبل فحاجته فى الهداية أظهر ليكون سيره على الطريق .

وإذا كان هذا شأن الهداية علم أن العبد أشد شىء اضطرارا إليها ، وأن ما يورده بعض الناس من السؤال الفاسد ، وهى أنا إذا كنا مهتدين فأى حاجة بنا أن نسأل الله أن يهدينا ، وهل هذا إلا تحصيل الحاصل أفسد سؤال وأبعده عن الصواب ؟ وهو دليل على أن صاحبه لم يحصل معنى الهداية ، ولا أحاط علما بحقيقتها ومسماها ؛ فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه : بأن المعنى : ثبتنا على الهداية وأدمها لنا ، ومن أحاط علما بحقيقة الهداية وحاجة العبد إليها علم أن الذى لم يحصل له منها أضعاف ما حصل له ، وأنه كل وقت محتاج إلى هداية متجددة ، لا سيما والله تعالى خالق أفعال القلوب والجوارح ، فهو كل وقت محتاج أن يخلق الله له هداية خاصة ، ثم إن لم يصرف عنه الموانع والصوارف التى تمنع موجب الهداية وتصرفها ، لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها له ، فإن الحكم لا يكفى فيه وجوه مقتضية ؛ بل لابد مع ذلك من عدم مانعه ومنافيه .

ومعلوم أن وساوس العبد وخواطره وشهوات الغى فى قلبه ، كل منها مانع وصول أثر الهداية إليه ، فإن لم يصرفها الله عنه لم يهتد هدى تاما ، فحاجاته إلى هداية الله له مقرونه بأنفاسه ، وهى أعظم حاجة للعبد .

وذكر النبى ﷺ فى الدعاء العظيم القدر من أوصاف الله وربوبيته ما يناسب المطلوب ، فإن فطر السموات والأرض توسل إلى الله بهذا الوصف فى الهداية للفطرة التى ابتدأ الخلق عليها ، فذكر كونه فاطر السموات والأرض ، والمطلوب تعليم الحق والتوفيق له ، فذكر علمه ـ سبحانه ـ بالغيب والشهادة ، وأن من هو بكل شىء عليم جدير أن يطلب منه عبده أن يعلمه ويرشده ويهديه ، وهو بمنزلة التوسل إلى الغنى بغناه ، وسعة كرمه أن يعطى عبده شيئا من ماله ، والتوسل إلى الغفور بسعة مغفرته أن يغفر لعبده ، وبعفوه أن يعفو عنه ، وبرحمته أن يرحمه ، ونظائر ذلك ، وذكر ربوبيته تعالى لجبريل وميكائيل وإسرافيل ؛ وهذا ـ والله أعلم ـ لأن المطلوب هدى يحيا به القلب ، وهؤلاء الثلاثة الأملاك قد جعل الله تعالى على أيديهم أسباب حياة العباد .

أما جبريل فهو صاحب الوحى الذى يوحيه الله إلى الأنبياء ، وهو سبب حياة الدنيا والآخرة .

وأما ميكائيل فهو موكل بالقطر الذى به سبب حياة كل شىء .

وأما إسرافيل فهو الذى ينفخ فى الصور فيحيى الله الموتى بنفخته ؛ فإذا هم قيام لرب العالمين .

والهداية لها أربع مراتب وهى مذكورة فى القرآن :

المرتبة الأولى : الهداية العامة ، وهى هداية كل مخلوق من الحيوان والآدمى لمصالحه التى بها قام أمره ، قال الله تعالى : ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣)** ﴾ [الاعلى] ، فذكر أمورا أربعة : الخلق ، والتسوية ، والتقدير ، والهداية . فسوى خلقه وأتقنه وأحكمه ، ثم قدر له أسباب مصالحه فى معاشه وتقلباته وتصرفاته ، وهداه إليها ، والهداية تعليم ، فذكر أنه الذى خلق وعلم كما ذكر نظير ذلك فى أول سورة أنزلها على رسوله وقد تقدم ذلك ، وقال تعالى حكاية عن عدوه فرعون أنه قال لموسى : ﴿ **فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)** ﴾ [طه] وهذه المرتبة أسبق مراتب الهداية وأعمها .

المرتبة الثانية : هداية البيان والدلالة التى أقام بها حجته على عباده ، وهذه لا تستلزم الاهتداء التام ، قال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى** ﴾ [فصلت : ١٧] يعنى : بينا لهم ودللناهم وعرفناهم ، فآثروا الضلالة والعمى ، وقال تعالى : ﴿ **وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)** ﴾ [العنكبوت] وهذه المرتبة أخص من الأولى ، وأعم من الثانية ، وهى هدى التوفيق والإلهام ، قال الله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥)** ﴾ [يونس] فعم بالدعوة خلقه ، وخص بالهداية من شاء منهم ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [القصص : ٥٦] مع قوله : ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)** ﴾ [الشورى] ، فأثبت هداية الدعوة والبيان ونفى هداية التوفيق والإلهام ، وقال النبى ﷺ فى تشهد الحاجة : « من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له »(١) ، وقال تعالى : ﴿ **إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ** ﴾ [النحل : ٣٧] أى : من يضله الله لا يهتدى أبدا ، وهذه الهداية الثالثة هى الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء . وأما الثانية : فشرط لا موجب ، فلا يستحيل تخلف الهدى عنها

(١) مسلم (٨٦٨ / ٤٦) فى الجمعة ، باب : تخفيف الصلاة والخطبة .

بخلاف الثالثة ، فإن تخلف الهدى عنها مستحيل .

المرتبة الرابعة : الهداية فى الآخرة إلى طريق الجنة والنار ، قال تعالى : ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) من دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)** ﴾ [الصافات] ، وأما قول أهل الجنة : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة ، وأن يكونوا أرادوا الهداية فى الدنيا التى أوصلتهم إلى دار النعيم ، ولـو قيل : إن كلا الأمرين مراد لهم وإنهم حمدوا الله على هدايته لهم فى الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ ، وقد ضرب الله تعالى لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلا مطابقا لحاله ، فقال تعالى : ﴿ **قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١)** ﴾ [الانعام] .

الوجه السادس والسبعون : أن فضيلة الشىء وشرفه يظهر تارة من عموم منفعته ، وتارة من شدة الحاجة إليه وعدم الاستغناء عنه ، وتارة من ظهور النقص والشر بفقده ، وتارة من حصول اللذة والسرور والبهجة بوجوده ؛ لكونه محبوبا ملائما ، فإدراكه يعقب غاية اللذة ، وتارة من كمال الثمرة المترتبة عليه وشرف علته الغائية وإفضاله إلى أجل المطالب ، وهذه الوجوه ونحوها تنشأ وتظهر من متعلقه ، فإذا كان فى نفسه كمالا وشرفا بقطع النظر عن متعلقاته جمع جهات الشرف والفضل فى نفسه ومتعلقاته ، ومعلوم أن هذه الجهات بأسرها حاصلة للعلم،فإنه أعم شىء نفعا وأكثره وأدومه، والحاجة إليه فوق الحاجة إلى الغذاء،بل فوق الحاجة إلى التنفس ؛ إذ غاية ما يتصور من فقدهما فقد حياة الجسم .

وأما فقد العلم ففيه فقد حياة القلب والروح ، فلا غنى للعبد عنه طرفة عين ؛ ولهذا إذا فقد من الشخص كان شرا من الحمير ، بل كان شرا من الدواب عند الله ، ولا شىء أنقص منه حينئذ ، وأما حصول اللذة والبهجة بوجوده ؛ فلأنه كمال فى نفسه وهو ملائم غاية الملاءمة للنفوس ، فإن الجهل مرض ونقص ، وهو فى غاية الإيذاء والإيلام للنفس ، ومن لم يشعر بهذه الملاءمة والمنافرة فهو لفقد حسه ونفسه .

وما لجرح ميت إيلام

فحصوله للنفس إدراك منها لغاية محبوبها واتصال به ، وذلك غاية لذتها وفرحتها ، وهذا بحسب المعلوم فى نفسه ومحبة النفس له ولذتها بقربه ، والعلوم والمعلومات متفاوتة فى ذلك أعظم التفاوت وأبينه ، فليس علم النفوس بفاطرها وباريها ومبدعها ومحبته

والتقرب إليه كعلمها بالطبيعة وأحوالها وعوارضها وصحتها وفسادها وحركاتها .

وهذا يتبين بالوجه السابع والسبعين وهو : أن شرف العلم تابع لشرف معلومه ؛ لوثوق النفس بأدلة وجوده وبراهينه ولشدة الحاجة إلى معرفته ، وعظم النفع بها ، ولا ريب أن أجل معلوم وأعظمه وأكبره فهو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين ، وقيوم السموات والأرضين ، الملك الحق المبين ، الموصوف بالكمال كله ، المنزه عن كل عيب ونقص ، وعن كل تمثيل وتشبيه فى كماله ، ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأفضلها ، ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات ، وكما أن العلم به أجل العلوم وأشرفها ، فهو أصلها كلها كما أن كل موجود فهو مستند فى وجوده إلى الملك الحق المبين ، ومفتقر إليه فى تحقق ذاته وأينيته ، وكل علم فهو تابع للعلم به مفتقر فى تحقق ذاته إليه ، فالعلم به أصل كل علم كما أنه ـ سبحانه ـ رب كل شىء ومليكه وموجده .

ولا ريب أن كمال العلم بالسبب التام ، وكونه سببا يستلزم العلم بمسببه ، كما أن العلم بالعلة التامة ومعرفة كونها علة يستلزم العلم بمعلوله ، وكل موجود سوى الله فهو مستند فى وجوده إليه استناد المصنوع إلى صانعه ، والمفعول إلى فاعله ، فالعلم بذاته ـ سبحانه ـ وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بما سواه ، فهو فى ذاته رب كل شىء ومليكه ، والعلم به أصل كل علم ومنشؤه ، فمن عرف الله عرف ما سواه ، ومن جهل ربه فهو لما سواه أجهل ، قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ [الحشر : ١٩] ، فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفا عظيما ، وهو أن من نسى ربه أنساه ذاته ونفسه ، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه ، بل نسى ما به صلاحه وفلاحه فى معاشه ومعاده ، فصار معطلا مهملا بمنزلة الأنعام السائبة ، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه ؛ لبقائها هداها الذى أعطاها إياه خالقها ، وأما هذا فخرج عن فطرته التى خلق عليها فنسى ربه فأنساه نفسه وصفاته ، وما تكمل به وتزكو به وتسعد به فى معاشها ومعادها ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف] فغفل عن ذكر ربه فانفرط عليه أمره وقلبه ، فلا التفات له إلى مصالحه وكماله وما تزكو به نفسه وقلبه ، بل هو مشتت القلب مضيعه مفرط الأمر حيران لا يهتدى سبيلا .

والمقصود : أن العلم بالله أصل كل علم ، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ، ومصالح دنياه وآخرته ، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به

وتفلح به ، فالعلم به سعادة العبد ، والجهل به أصل شقاوته ، يزيده إيضاحا :

الوجه الثامن والسبعون : أنه لا شيء أطيب للعبد ولا ألذ ولا أهنأ ولا أنعم لقلبه وعيشه من محبة فاطره وباريه ، ودوام ذكره والسعى فى مرضاته ، وهذا هو الكمال الذى لا كمال للعبد بدونه ، وله خلق الخلق ، ولأجله نزل الوحى وأرسلت الرسل ، وقامت السموات والأرض ، ووجدت الجنة والنار ، ولأجله شرعت الشرائع ووضع البيت الحرام ، ووجب حجه على الناس إقامة لذكره الذى هو من توابع محبته ، والرضا به وعنه ، ولأجل هذا أمر بالجهاد وضرب أعناق من أباه ، وآثر غيره عليه ، وجعل له فى الآخرة دار الهوان ، خالدا مخلدا ، وعلى هذا الأمر العظيم أسست الملة ونصبت القبلة ، وهو قطب رحى الخلق والأمر الذى مدارهما عليه ، ولا سبيل إلى الدخول إلى ذلك إلا من باب العلم ، فإن محبة الشيء فرع عن الشعور به ، وأعرف الخلق بالله أشدهم حبا له ، فكل من عرف الله أحبه ومن عرف الدنيا وأهلها زهد فيهم ، فالعلم يفتح هذا الباب العظيم الذى هو سر الخلق والأمر ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الوجه التاسع والسبعون : أن اللذة بالمحبوب تضعف وتقوى بحسب قوة الحب وضعفه ، فكلما كان الحب أقوى كانت اللذة أعظم ، ولهذا تعظم لذة الظمآن بشرب الماء البارد بحسب شدة طلبه للماء ، وكذلك الجائع ، وكذلك من أحب شيئا كانت لذته على قدر حبه إياه ، والحب تابع للعلم بالمحبوب ومعرفة جماله الظاهر والباطن ، فلذة النظر إلى الله بعد لقائه بحسب قوة حبه وإرادته ، وذلك بحسب العلم به وبصفات كماله ؛ فإذا العلم هو أقرب الطرق إلى أعظم اللذات ، وسيأتى تقرير هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الوجه الثمانون : أن كل ما سوى الله يفتقر إلى العلم لا قوام له بدونه ، فإن الوجود وجودان : وجود الخلق ووجود الأمر ، والخلق والأمر مصدرهما علم الرب وحكمته ، فكل ما ضمه الوجود من خلقه ، وأمره صادر عن علمه وحكمته ، فما قامت السموات والأرض وما بينهما إلا بالعلم ، ولا بعثت الرسل وأنزلت الكتب إلا بالعلم ، ولا عبد الله وحده وحمد وأثنى عليه ومجد إلا بالعلم ، ولا عرف الحلال من الحرام إلا بالعلم ، ولا عرف فضل الإسلام على غيره إلا بالعلم .

واختلف هنا فى مسألة ، وهى أن العلم صفة فعلية أو انفعالية ، فقالت طائفة : هو صفة فعلية ؛ لأنه شرط أو جزء وسبب فى وجود المفعول ، فإن الفعل الاختيارى يستدعى حياة الفاعل وعلمه وقدرته وإرادته ، ولا يتصور وجوده بدون هذه الصفات . وقالت طائفة : هو انفعالى فإنه تابع للمعلوم متعلق به على ما هو عليه ، فإن العالم يدرك المعلوم

على ما هو به ، فإدراكه تابع له ، فكيف يكون متقدما عليه ؟

والصواب : أن العلم قسمان : علم فعلى : وهو علم الفاعل المختار بما يريد أن يفعله، فإنه موقوف على إرادته الموقوفة على تصوره المراد وعلمه به ، فهذا علم قبل الفعل متقدم عليه مؤثر فيه ، وعلم انفعالى : وهو العلم التابع للمعلوم الذى لا تأثير له فيه ، كعلمنا بوجود الأنبياء والأمم والملوك وسائر الموجودات ، فإن العلم لا يؤثر فى المعلوم ولا هو شرط فيه ، فكل من الطائفتين نظرت جزئيا وحكمت كليا ، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس ، وكلا القسمين من العلم صفة كمال ، وعدمه من أعظم النقص ، يوضحه :

الوجه الحادى والثمانون : أن فضيلة الشىء تعرف بضده ، فالضد يظهر حسنه الضد ، وبضدها تتبين الأشياء ، ولا ريب أن الجهل أصل كل فساد ، وكل ضرر يلحق العبد فى دنياه وأخراه فهو نتيجة الجهل ، وإلا فمع العلم التام بأن هذا الطعام مثلا مسموم من أكله قطع أمعاءه فى وقت معين لا يقدم على أكله وإن قدر أنه قدم عليه لغلبة جوع أو استعجال وفاة ، فهو لعلمه بموافقة أكله لمقصوده الذى هو أحب إليه من العذاب بالجوع أو بغيره .

وهنا اختلف فى مسألة عظيمة ، وهى : أن العلم هل يستلزم الاهتداء ، ولا يتخلف عنه الهدى إلا لعدم العلم أو نقصه ، وإلا فمع المعرفة الجازمة لا يتصور الضلال ، وأنه لا يستلزم الهدى ، فقد يكون الرجل عالما . وهو ضال على عمد ؟ هذا مما اختلف فيه المتكلمون وأرباب السلوك وغيرهم . فقالت فرقة : من عرف الحق معرفة لا يشك فيها استحال ألا يهتدى ، وحيث ضل فلنقصان علمه ، واحتجوا من النصوص بقوله تعالى : ﴿ **لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ** ﴾ [النساء : ١٦٢] ، فشهد تعالى لكل راسخ فى العلم بالإيمان ، وبقوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وبقوله تعالى : ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** ﴾ [سبا : ٦] ، وبقوله تعالى : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ** ﴾ [آل عمران : ١٨] ، وبقوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ** ﴾ [الرعد : ١٩] ، قسم الناس قسمين : أحدهما : العلماء بأن ما أنزل إليه من ربه هو الحق . والثانى : العمى ، فدل على أنه لا واسطة بينهما . وبقوله تعالى فى وصف الكفار : ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١)** ﴾ [البقرة] ، وبقوله : ﴿ **وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٩٣)** ﴾ [التوبة] ، وبقوله تعالى : ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ** ﴾ [البقرة : ٧] . وهذه مدارك العلم الثلاث قد فسدت عليهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ**

﴿ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾ [الجاثية] ، وقوله : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ قال سعيد بن جبير : على علمه تعالى فيه . قال الزجاج : أى على ما سبق فى علمه تعالى أنه ضال قبل أن يخلقه ، ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ ﴾ أى : طبع عليه فلم يسمع الهدى ، ﴿ وَقَلْبِهِ ﴾ فلم يعقل الهدى ، ﴿ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ فلا يبصر أسباب الهدى ، وهذا فى القرآن كثير مما يبين فيه منافاة الضلال للعلم . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [محمد : ١٦] فلو كانوا علموا ما قال الرسول لم يسألوا أهل العلم ماذا قال، ولما كان مطبوعا على قلوبهم ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ [الأنعام : ٣٩]

وقال تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) ﴾ [الإسراء] ، فهذه شهادة من الله تعالى لأولى العلم بالإيمان به وبكلامه ، وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [العنكبوت] أخبر تعالى أنه لا يعقل أمثاله إلا العالمون ، والكفار لا يدخلون فى مسمى العالمين فهم لا يعقلونها ، وقال تعالى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ﴾ [الروم : ٢٩] . وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ [البقرة : ١١٨] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] ، ولو كان الضلال يجامع العلم لكان الذين لا يعلمون أحسن حالا من الذين يعلمون ، والنص بخلافه ، والقرآن مملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار ، فتارة يصفهم بأنهم لا يعلمون ، وتارة بأنهم لا يعقلون ، وتارة بأنهم لا يشعرون ، وتارة بأنهم لا يفقهون ، وتارة بأنهم لا يسمعون . والمراد بالسمع المنفى سمع الفهم ، وهو سمع القلب لا إدراك الصوت ، وتارة بأنهم لا يبصرون، فدل ذلك كله على أن الكفر مستلزم للجهل مناف للعلم لا يجامعه ؛ ولهذا يصف ـ سبحانه ـ الكفار بأنهم جاهلون ، كقوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾ [القصص] ، وقوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾ [الأعراف]

وقال النبى ﷺ لما بلغ قومه من أذاه ذلك المبلغ : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا

يعلمون » [١] . وفى الصحيحين عنه : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » [٢] ، فدل على أن الفقه مستلزم لإرادة الله الخير فى العبد ، ولا يقال : الحديث دل على أن من أراد الله به خيرا فقهه فى الدين ، ولا يدل على أن كل من فقهه فى الدين فقد أراد به خيرا وبينهما فرق ، ودليلكم إنما يتم بالتقدير الثانى ، والحديث لا يقتضيه ؛ لأنا نقول : النبى ﷺ جعل الفقه فى الدين دليلا وعلامة على إرادة الله بصاحبه خيرا ، والدليل يستلزم المدلول ولا يتخلف عنه ، فإن المدلول لازمه ووجود الملزوم بدون لازمه محال .

وفى الترمذى وغيره عنه ﷺ : « خصلتان لا يجتمعان فى منافق : حسن سمت وفقه فى الدين » [٣] ، فجعل الفقه فى الدين منافيا للنفاق ، بل لم يكن السلف يطلقون اسم الفقه إلا على العلم الذى يصحبه العمل ، كما سئل سعد بن إبراهيم عن أفقه أهل المدينة ؟ قال : أتقاهم ، وسأل فرقد السنجى الحسن البصرى عن شىء ؟ فأجابه فقال : إن الفقهاء يخالفونك . فقال الحسن : ثكلتك أمك فريقد ، وهل رأيت بعينيك فقيها ! إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا ، الراغب فى الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الذى لا يهمز من فوقه ، ولا يسخر بمن دونه ، ولا يبتغى على علم علمه الله تعالى أجرا .

وقال بعض السلف : إن الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم مكر الله ،ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه .

وقال ابن مسعود ﷺ : كفى بخشية الله علما ، وبالاغترار بالله جهلا . قالوا : فهذا القرآن والسنة وإطلاق السلف من الصحابة والتابعين يدل على أن العلم والمعرفة مستلزم للهداية ، وأن عدم الهداية دليل على الجهل وعدم العلم . قالوا : ويدل عليه أن الإنسان مادام عقله معه لا يؤثر هلاك نفسه على نجاتها ، وعذابها العظيم الدائم على نعيمها المقيم والحس شاهد بذلك ؛ ولهذا وصف الله ـ سبحانه ـ أهل معصيته بالجهل فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾** ﴾ [النساء] .

قال سفيان الثورى : كل من عمل ذنبا من خلق الله فهو جاهل كان جاهلا أو عالما ؛ إن كان عالما فمن أجهل منه ، وإن كان لا يعلم فمثل ذلك . وقوله : ﴿ **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن**

---

(١) البخارى (٦٩٢٩) فى استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ، باب : (٥) ، ومسلم (١٧٩٢ / ١٠٥) فى الجهاد والسير ، باب : غزوة أحد .

(٢) البخارى (٧١) فى العلم ، باب : من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، ومسلم (١٠٣٧ / ٩٨) فى الزكاة ، باب : النهى عن المسألة .

(٣) سبق تخريجه ص (١٧٨) .

﴿ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء] ، قال : قبل الموت ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ذنب المؤمن جهل منه .

قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل شيء عصى الله فيه فهو جهالة . وقال السدى : كل من عصى الله فهو جاهل .

قالوا : ويدل على صحة هذا أن مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد ، فإنه لو رأى صبيا يتطلع عليه من كوة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة ، فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله إليه ورؤيته له وعقابه على الذنب وتحريمه له وسوء عاقبته ، فلابد من غفلة القلب على هذا العلم وغيبته عنه ، فحينئذ يكون وقوعه فى المعصية صادرا عن جهل وغفلة ونسيان مضاد للعلم ، والذنب محفوف بجهلين ؛ جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه ، وجهل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه ، وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة ، فما عصى الله إلا بالجهل وما أطيع إلا بالعلم ، فهذا بعض ما احتجت به هذه الطائفة .

وقالت الطائفة الأخرى : العلم لا يستلزم الهداية ، وكثيرا ما يكون الضلال عن عمد وعلم لا يشك صاحبه فيه ، بل يؤثر الضلال والكفر وهو عالم بقبحه ومفسدته .

قالوا : وهذا شيخ الضلال وداعى الكفر وإمام الفجرة إبليس عدو الله ، قد علم أمر الله له بالسجود لآدم ولم يشك فيه ، فخالفه وعاند الأمر ، وباء بلعنة الله وعذابه الدائم ، مع علمه بذلك ومعرفته به ، وأقسم له بعزته أنه يغوى خلقه أجمعين إلا عباده منهم المخلصين ، فكان غير شاك فى الله ، وفى وحدانيته ، وفى البعث الآخر ، وفى الجنة والنار ، ومع ذلك اختار الخلود فى النار ، واحتمال لعنة الله وغضبه ، وطرده من سمائه وجنته عن علم بذلك ومعرفة لم يحصل لكثير من الناس ؛ ولهذا ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [ص] وهذا اعتراف منه بالبعث وقرار به ، وقد علم قسم ربه ليملأن جهنم منه ومن أتباعه ، فكان كفره كفر عناد محض لا كفر جهل .

وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ١٧] يعنى بينا لهم وعرفناهم فعرفوا الحق وتيقنوه ، وآثروا العمى عليه ، فكان كفر هؤلاء عن جهل . وقال تعالى حاكيا عن موسى أنه قال لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الإسراء] ، أى : هالكا ، على قراءة من فتح التاء ، وهى قراءة الجمهور ، وضمها الكسائى وحده ، وقراءة الجمهور أحسن وأوضح وأفخم معنى ، وبها تقوم الدلالة ، ويتم الإلزام بتحقق كفر فرعون وعناده ، ويشهد لها قوله تعالى إخبارا عنه وعن قومه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾ [النمل] فأخبر ـ سبحانه ـ أن تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين ، وهو أقوى العلم ظلما منهم وعلوا لا جهلا .

وقال تعالى لرسوله : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام] يعنى : أنهم قد عرفوا صدقك ، وأنك غير كاذب فيما تقول ، ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة ، قاله ابن عباس ﷺ والمفسرون . قال قتادة : يعلمون أنك رسول ولكن يجحدون ، قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) ﴾ [آل عمران] يعنى : تكفرون بالقرآن وبمن جاء به وأنتم تشهدون بصحته وبأنه الحق ، فكفركم كفر عناد ، وجحود عن علم وشهود لا عن جهل وخفاء .

وقال تعالى عن السحرة من اليهود : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ [البقرة : ١٠٢] أى : علموا من أخذ السحر وقبله لا نصيب له فى الآخرة ، ومع هذا العلم والمعرفة فهم يشترونه ويقبلونه ويتعلمونه .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٦] ذكر هذه المعرفة عن أهل الكتاب فى القبلة كما فى سورة البقرة ، وفى التوحيد كقوله فى الأنعام : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ﴾ [الأنعام] وفى الكتاب أنه منزل من عند الله : كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام : ١١٥]

وقال تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) ﴾ [آل عمران] ، قال ابن عباس ﷺ : هم قريظة والنضير ، ومن دان بدينهم كفروا بالنبى ﷺ بعد أن كانوا قبل مبعثه مؤمنين به ، وشهدوا له بالنبوة ، وإنما كفروا بغيا وحسدا . قال الزجاج : أعلم الله عز وجل أنه لا جهة لهدايتهم ؛ لأنهم قد استحقوا أن يضلوا بكفرهم ؛ لأنهم كفروا بعد البينات ، ومعنى ﴿ كَيْفَ يَهْدِي ﴾ أى : أنه لا يهديهم ؛ لأن القوم عرفوا الحق وشهدوا به وتيقنوه وكفروا عمدا ، فمن أين تأتيهم الهداية ؟ فإن الذى ترتجى هدايته من كان ضالا ولا يدرى أنه ضال ؛ بل يظن أنه على هدى ، فإذا عرف الهدى اهتدى ، وأما من عرف الحق وتيقنه وشهد به

قلبه ثم اختار الكفر والضلال عليه ، فكيف يهدى الله مثل هذا .

وقال تعالى عن اليهود : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [البقرة] . قال ابن عباس ﷺ : لم يكن كفرهم شكا ولا اشتباها ، ولكن بغيا منهم حيث صارت النبوة فى ولد إسماعيل . ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) ﴾ [البقرة] ، فلما شبههم فى فعلهم هذا بمن لا يعلم ، دل على أنهم نبذوه عن علم كفعل من لا يعلم ، تقول : إذا خاطبت من عصاك عمدا : كأنك لم تعلم ما فعلت ، أو كأنك لم تعلم بنهى إياك ؟ ومنه على أحد القولين قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) ﴾ [النحل] . قال السدى : يعنى محمدا ﷺ ، واختاره الزجاج ، فقال : يعرفون أن أمر محمد ﷺ حق ، ثم ينكرون ذلك ، وأول الآية يشهد لهذا القول .

وقال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ [الاعراف] . قالوا : فهل بعد هذه الآية بيان ، فإن هذا آتاه الله آياته فانسلخ منها وآثر الضلال والغى ، وقصته معروفة حتى قيل : إنه كان أوتى الاسم الأعظم ، ومع هذا فلم ينفعه علمه وكان من الغاوين ، فلو استلزم العلم والمعرفة الهداية لاستلزمه فى حق هذا .

وقال تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) ﴾ [العنكبوت] وهذا يدل على أن قولهم : ﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) ﴾ [هود] إما بهت منهم وجحود ، وإما نفى لآيات الاقتراح والعنت، ولا يجب الإتيان بها ، وقد وصف ـ سبحانه ـ ثمود بأنها كفرت عن علم وبصيرة بالحق ، ولهذا قال : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء : ٥٩] أى بينة مضيئة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء : ١٢] أى مضيئة ، وحقيقة اللفظ أنها تجعل من رآها مبصرا ، فهى توجب له البصر فتبصره أى: تجعله ذا بصر فهى موضحة مبينة . يقال : بصر به إذا رآه كقوله تعالى : ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ [القصص: ١١] ، وقوله : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ [طه : ٩٦].

وأما أبصره فله معنيان : أحدهما : جعله باصرا بالشىء أى : ذا بصر به كآية النهار وآية ثمود . والثانى : بمعنى رآه كقولك : أبصرت زيدا ، وفى حديث أبى شريح العدوى : أحدثك

قولا قال به رسول الله ﷺ يوم الفتح فسمعته أذناى ، ووعاه قلبى وأبصرته عيناى حين تكلم به (١) . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) ﴾ [الصافات] قيل : المعنى : أبصرهم وما يقضى عليهم من الأسر والقتل والعذاب فى الآخرة فسوف يبصرونك ، وما يقضى لك من النصر والتأييد وحسن العاقبة ، والمراد : تقريب المبصر من المخاطب ، حتى كأنه نصب عينيه ورأى ناظريه .

والمقصود : أن الآية أوجبت لهم البصيرة فآثروا الضلال والكفر عن علم ويقين ؛ ولهذا ـ والله أعلم ـ ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم فى سورة ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ ؛ لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية ، وإلى الفاجرة الضالة الغاوية ، وذكر فيها الأصلين : القدر والشرع ، فقال : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾ [الشمس] ، فهذا قدره وقضاؤه ، ثم قال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾ [الشمس] ، فهذا أمره ودينه ، وثمود هداهم فاستحبوا العمى على الهدى ؛ فذكر قصتهم ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوى ، والتدسية على التزكية ، والله أعلم بما أراد .

قالوا : ويكفى فى هذا إخباره تعالى عن الكفار أنهم يقولون بعدما عاينوا العذاب ، ووردوا القيامة ورأوا ما أخبرت به الرسل : ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) ﴾ [الانعام] فأى علم أبين من علم من ورد القيامة ، ورأى ما فيها وذاق عذاب الآخرة ، ثم لو رد إلى الدنيا لاختار الضلال على الهدى ، ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾ [الانعام] فهل بعد نزول الملائكة عيانا ، وتكليم الموتى لهم ، وشهادتهم للرسول بالصدق ، وحشر كل شىء فى الدنيا عليهم من بيان وإيضاح للحق وهدى ؟ ومع هذا فلا يؤمنون ، ولا ينقادون للحق ، ولا يصدقون الرسول ومن نظر فى سيرة رسول الله ﷺ مع قومه ومع اليهود علم أنهم كانوا جازمين بصدقه ﷺ ، لا يشكون أنه صادق فى قوله أنه رسول الله ، ولكن اختاروا الضلال والكفر على الإيمان .

قال المسور بن مخرمة رضي الله عنه لأبى جهل وكان خاله : أى خال ، هل كنتم تتهمون محمدا بالكذب قبل أن يقول مقالته التى قالها ؟ قال أبو جهل ـ لعنه الله تعالى : يا ابن أخى ، والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يدعى الأمين ، وما جربنا عليه كذبا قط ، فلما

(١) البخارى (١٠٤) فى العلم ، باب : ليبلغ العلم الشاهد الغائب .

وخطه الشيب لم يكن ليكذب على الله . قال : يا خال ، فلم لا تتبعونه ؟ قال : يا بن أخى ، تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف ، فأطعموا وأطعمنا ، وسقوا وسقينا ، وأجاروا وأجرنا ، فلما تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى ، فمتى ندرك هذه ؟ وهذا أمية بن أبى الصلت ، كان ينتظره يوما بيوم ، وعلمه عنده قبل مبعثه ، وقصته مع أبى سفيان لما سافرا معا معروفة ، وإخباره برسول الله ﷺ ، ثم لما تيقنه وعرف صدقه قال : لا أومن بنبى من غير ثقيف أبدا ، وهذا هرقل تيقن أنه رسول الله ﷺ ، ولم يشك فيه ، وآثر الضلال والكفر استبقاء لملكه .

ولما سأله اليهود عن التسع آيات البينات فأخبرهم بها قبلوا يده ، وقالوا : نشهد أنك نبى ، قال :« فما يمنعكم أن تتبعونى ؟ » قالوا : إن داود عليه السلام دعا ألا يزال فى ذريته نبى ، وإنا نخشى إن اتبعناك أن تقتلنا يهود ، فهؤلاء قد تحققوا نبوته ، وشهدوا له بها ، ومع هذا فآثروا الكفر والضلال ، ولم يصيروا مسلمين بهذه الشهادة ، فقيل : لا يصير الكافر مسلما بمجرد شهادة أن محمدا رسول الله ﷺ حتى يشهد لله بالوحدانية ، وقيل : يصير بذلك مسلما ، وقيل : إن كان كفره بتكذيب الرسول كاليهود صار مسلما بذلك ، وإن كان كفره بالشرك مع ذلك لم يصر مسلما إلا بالشهادة بالتوحيد كالنصارى والمشركين ، وهذه الأقوال الثلاثة فى مذهب الإمام أحمد وغيره .

وعلى هذا ، فإنما لم يحكم لهؤلاء اليهود الذين شهدوا له بالرسالة بحكم الإسلام ؛ لأن مجرد الإقرار والإخبار بصحة رسالته لا يوجب الإسلام إلا أن يلتزم طاعته ومتابعته ، وإلا فلو قال : أنا أعلم أنه نبى ولكن لا أتبعه ولا أدين بدينه ، كان من أكفر الكفار ، كحال هؤلاء المذكورين وغيرهم ، وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة السنة : أن الإيمان لا يكفى فيه قول اللسان بمجرده ، ولا معرفة القلب مع ذلك ؛ بل لابد فيه من عمل القلب ، وهو حبه لله ورسوله ، وانقياده لدينه ، والتزامه طاعته ومتابعة رسوله ، وهذا خلاف من زعم أن الإيمان هو مجرد معرفة القلب وإقراره ، وفيما تقدم كفاية فى إبطال هذه المقالة ، ومن قال : إن الإيمان هو مجرد اعتقاد صدق الرسول فيما جاء به ، وإن لم يلتزم متابعته وعاداه وأبغضه وقاتله لزمه أن يكون هؤلاء كلهم مؤمنين ، وهذا إلزام لا محيد عنه ؛ ولهذا اضطرب هؤلاء فى الجواب عن ذلك لما ورد عليهم ، وأجابوا بما يستحى العاقل من قوله ، كقول بعضهم : إن إبليس كان مستهزئا ، ولم يكن يقر بوجود الله ، ولا بأن الله ربه وخالقه ، ولم يكن يعرف ذلك ، وكذلك فرعون وقومه لم يكونوا يعرفون صحة نبوة موسى ولا يعتقدون وجود الصانع ، وهذه فضائح نعوذ بالله من الوقوع

فى أمثالها ، ونصرة المقالات وتقليد أربابها تحمل على أكثر من هذا ، ونعوذ بالله من الخذلان .

قالوا : وقد بين القرآن أن الكفر أقسام :

أحدها : كفر صادر عن جهل وضلال وتقليد الأسلاف،وهو كفر أكثر الأتباع والعوام.

الثانى : كفر جحود وعناد وقصد مخالفة الحق ككفر من تقدم ذكره ، وغالب ما يقع هذا النوع فيمن له رياسة علمية فى قومه من الكفار ، أو رياسة سلطانية ، أو من له مأكل وأموال فى قومه ، فيخاف هذا على رياسته ، وهذا على ماله ومأكله ، فيؤثر الكفر على الإيمان عمدا .

الثالث : كفر إعراض محض لا ينظر فيما جاء به الرسول ولا يحبه ولا يبغضه ولا يواليه ولا يعاديه ؛ بل هو معرض عن متابعته ومعاداته ، وهذان القسمان أكثر المتكلمين ينكرونهما ولا يثبتون من الكفر إلا الأول ، ويجعلون الثانى والثالث كفرا ؛ لدلالته على الأول لا لأنه فى ذاته كفر فليس عندهم الكفر إلا مجرد الجهل .

ومن تأمل القرآن والسنة وسير الأنبياء فى أممهم ودعوتهم لهم وما جرى لهم معهم ، جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه ، وعلم أن عامة كفر الأمم عن تيقن وعلم ومعرفة بصدق أنبيائهم وصحة دعواهم وما جاؤوا به ، وهذا القرآن مملوء من الأخبار عن المشركين عباد الأصنام أنهم كانوا يقرون بالله ، وأنه هو وحده ربهم وخالقهم ، وأن الأرض وما فيها له وحده ، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، وأنه بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ، وأنه هو الذى سخر الشمس والقمر ، وأنزل المطر ، وأخرج النبات والقرآن ، مناد عليهم بذلك ، محتج بما أقروا به فى ذلك على صحة ما دعتهم إليه رسله . فكيف يقال : إن القوم لم يكونوا مقرين قط بأن لهم ربا وخالقا ؟ وهذا بهتان عظيم ، فالكفر أمر وراء مجرد الجهل ، بل الكفر الأغلظ هو ما أنكره هؤلاء وزعموا أنه ليس بكفر.

قالوا : والقلب عليه واجبان لا يصيره مؤمنا إلا بهما جميعا ؛ واجب المعرفة والعلم ، وواجب الحب والانقياد والاستسلام . فكما لا يكون مؤمنا إذا لم يأت بواجب العلم والاعتقاد ، لا يكون مؤمنا إذا لم يأت بواجب الحب والانقياد والاستسلام ؛ بل إذا ترك هذا الواجب مع علمه ومعرفته به كان أعظم كفرا ، وأبعد عن الإيمان من الكافر جهلا . فإن الجاهل إذا عُرِّفَ وعُلِّمَ فهو قريب إلى الانقياد والاتباع ، وأما المعاند فلا دواء فيه ، قال تعالى : ﴿ **كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ**

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) ﴾ [آل عمران] .

قالوا : فحب الله ورسوله ؛ بل كون الله ورسوله أحب إلى العبد من سواهما لا يكون العبد مسلما إلا به ، ولا ريب أن الحب أمر وراء العلم ، فما كل من عرف الرسول أحبه كما تقدم .

قالوا : وهذا الحاسد يحمله بغض المحسود على معاداته ، والسعى فى أذاه بكل ممكن، مع علمه بفضله وعلمه ، وأنه لا شىء فيه يوجب عداوته إلا محاسنه وفضائله ؛ ولهذا قيل : الحاسد عدو للنعم والمكارم ، فالحاسد لم يحمله على معاداة المحسود جهله بفضله وكماله ، وإنما حمله على ذلك إفساد قصده وإرادته ، كما هى حال الرسل وورثتهم مع الرؤساء الذين سلبهم الرسل ووارثوهم رئاستهم الباطلة ، فعادوهم وصدوا النفوس عن متابعتهم ، ظنا أن الرياسة تبقى لهم وينفردون بها ، وسنة الله فى هؤلاء أن يسلبهم رياسة الدنيا والآخرة ، ويصغرهم فى عيون الخلق مقابلة لهم بنقيض قصدهم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت] .

فهذا موارد احتجاج الفريقين ، وموقف أقدام الطائفتين ، فاجلس أيها المنصف منهما مجلس الحكومة ، وتوخ بعلمك وعدلك فصل هذه الخصومة ، فقد أدلى كل منهما بحجج لا تعارض ولا تمانع ، وجاء ببينات لا ترد ولا تدافع ، فهل عندك شىء غير هذا يحصل به فصل الخطاب ، وينكشف به لطالب الحق وجه الصواب ، فيرضى الطائفتين ويزول به الاختلاف من البين ، وإلا فخل المطى وحاديها وأعط النفوس باريها ؟

دع الهوى لأناس يعرفون به قد كابدوا الحب حتى لان أصعبه

ومن عرف قدره وعرف لذى الفضل فضله ، فقد قرع باب التوفيق ، والله الفتاح العليم ، فنقول وبالله التوفيق : كلا الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم ، ولا عدلت عن سنن الحق ، وإنما الاختلاف والتباين بينهما من عدم التوارد على محل واحد ، ومن إطلاق ألفاظ مجملة بتفصيل معانيها يزول الاختلاف ، ويظهر أن كل طائفة موافقة الأخرى على نفس قولها .

وبيان هذا : أن المقتضى قسمان : مقتض لا يتخلف عنه موجبه ومقتضاه ، لقصوره فى نفسه ، بل يستلزمه استلزام العلة التامة لمعلولها . ومقتض غير تام ، يتخلف عنه مقتضاه ؛ لقصوره فى نفسه عن التمام أو لفوات شرط اقتضائه ، أو قيام مانع منع تأثيره ، فإن أريد بكون العلم مقتضيا للاهتداء والاقتضاء التام الذى لا يتخلف عنه أثره بل يلزمه

الاهتداء بالفعل ، فالصواب قول الطائفة الثانية : وإنه لا يلزم من العلم حصول الاهتداء المطلوب وإن أريد بكونه موجبا أنه صالح للاهتداء مقتض له ، وقد يتخلف عنه مقتضاه لقصوره ، أو فوات شرط ، أو قيام مانع ، فالصواب قول الطائفة الأولى .

وتفصيل هذه الجملة : أن العلم بكون الشيء سببا لمصلحة العبد ولذاته وسروره قد يتخلف عنه عمله بمقتضاه لأسباب عديدة :

السبب الأول : ضعف معرفته بذلك .

السبب الثانى : عدم الأهلية ، وقد تكون معرفته به تامة لكن يكون مشروطا بزكاة المحل وقبوله للتزكية ، فإذا كان المحل غير زكى ولا قابل للتزكية كان كالأرض الصلدة التى لا يخالطها الماء ، فإنه يمتنع النبات منها لعدم أهليتها وقبولها ، فإذا كان القلب قاسيا حجريا لا يقبل تزكية ، ولا تؤثر فيه النصائح لم ينتفع بكل علم يعلمه ، كما لا تنبت الأرض الصلبة ولو أصابها كل مطر وبذر فيها كل بذر ، كما قال تعالى فى هذا الصنف من الناس : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ(٩٧)** ﴾ [يونس] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الانعام : ١١١] ، وقال تعالى : ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١)** ﴾ [يونس] وهذا فى القرآن كثير ، فإذا كان القلب قاسيا غليظا جافيا لا يعمل فيه العلم شيئا ، وكذلك إذا كان مريضا مهينا مائيا لا صلابة فيه ولا قوة ولا عزيمة لم يؤثر فيه العلم .

السبب الثالث : قيام مانع وهو إما حسد أو كبر ، وذلك مانع إبليس من الانقياد للأمر ، وهو داء الأولين والآخرين إلا من عصم الله ، وبه تخلف الإيمان عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ ، وعرفوا صحة نبوته ومن جرى مجراهم ، وهو الذى منع عبد الله بن أبى من الإيمان ، وبه تخلف الإيمان عن أبى جهل ، وسائر المشركين ، فإنهم لم يكونوا يرتابون فى صدقه ، وأن الحق معه ، لكن حملهم الكبر والحسد على الكفر، وبه تخلف الإيمان عن أمية ، وأضرابه ممن كان عنده علم بنبوة محمد ﷺ .

السبب الرابع : مانع الرياسة والملك ، وإن لم يقم بصاحبه حسد ولا تكبر عن الانقياد للحق لكن لا يمكنه أن يجتمع له الانقياد وملكه ورياسته فيضن بملكه ورياسته ، كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار ، الذين علموا نبوته وصدقه وأقروا بها باطنا ، وأحبوا الدخول فى دينه لكن خافوا على ملكهم ، وهذا داء أرباب الملك والولاية والرياسة ، وقل من نجا منه إلا من عصم الله ، وهو داء فرعون وقومه ؛ ولهذا قالوا : ﴿ **أَنُؤْمِنُ**

﴿ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) ﴾ [المؤمنون] أنفوا أن يؤمنوا ويتبعوا موسى وهارون وينقادوا لهما وبنو إسرائيل عبيد لهم ؛ ولهذا قيل : إن فرعون لما أراد متابعة موسى وتصديقه شاور هامان وزيره فقال : بينا أنت إله تعبد تصير عبدا تعبد غيرك ، فأبى العبودية واختار الرياسة والإلهية المحال .

السبب الخامس : مانع الشهوة والمال ، وهو الذى منع كثيرا من أهل الكتاب من الإيمان خوفا من بطلان مأكلهم وأموالهم التى تصير إليهم من قومهم ، وقد كانت كفار قريش يصدون الرجل عن الإيمان بحسب شهوته ، فيدخلون عليه منها ، فكانوا يقولون لمن يحب الزنا : إن محمدا يحرم الزنا ويحرم الخمر ، وبه صدوا الأعشى الشاعر عن الإسلام ، وقد فاوضت غير واحد من أهل الكتاب فى الإسلام وصحته ، فكان آخر ما كلمنى به أحدهم : أنا لا أترك الخمر وأشربها أمنا ، فإذا أسلمت حلتم بينى وبينها وجلدتمونى على شربها . وقال آخر منهم ، بعد أن عرف ما قلت له : لى أقارب أرباب أموال ، وإنى إن أسلمت لم يصل إلى منها شىء ، وأنا أؤمل أن أرثهم أو كما قال ، ولا ريب أن هذا القدر فى نفوس خلق كثير من الكفار ، فتتفق قوة داعى الشهوة والمال ، وضعف داعى الإيمان ، فيجيب داعى الشهوة والمال ، ويقول : لا أرغب بنفسى عن آبائى وسلفى .

السبب السادس : محبة الأهل والأقارب والعشيرة ، يرى أنه إذا اتبع الحق وخالفهم أبعدوه وطردوه عنهم ، وأخرجوه من بين أظهرهم ، وهذا سبب بقاء خلق كثير على الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائرهم .

السبب السابع : محبة الدار والوطن ، وإن لم يكن له بها عشيرة ولا أقارب ، لكن يرى أن فى متابعة الرسول خروجه عن داره ووطنه إلى دار الغربة والنوى فيضن بوطنه .

السبب الثامن : تخيل أن فى الإسلام ومتابعة الرسول إزراء وطعنا منه على آبائه وأجداده وذما لهم ، وهذا هو الذى منع أبا طالب وأمثاله عن الإسلام ، استعظموا آباءهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال ، وأن يختاروا خلاف ما اختار أولئك لأنفسهم ، ورأوا أنهم إن أسلموا سفهوا أحلام أولئك ، وضللوا عقولهم ورموهم بأقبح القبائح وهو الكفر والشرك ؛ ولهذا قال أعداء الله لأبى طالب عند الموت : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فكان آخر ما كلمهم به : هو على ملة عبد المطلب ، فلم يدعه أعداء الله إلا من هذا الباب ؛ لعلمهم بتعظيمه أباه عبد المطلب ، وأنه إنما حاز الفخر والشرف به ، فكيف يأتى أمرا يلزم منه غاية تنقيصه وذمه ؟ ولهذا قال : لولا أن تكون مسبة على بنى عبد المطلب لأقررت بها عينك ، أو كما قال . وهذا شعره يصرح فيه بأنه قد علم وتحقق

نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصدقه ، كقوله :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البريـــة دينا

لولا الملامة أو حـذار مسبة لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

وفى قصيدته اللامية :

فو الله لولا أن تكون مســـبة تجر على أشياخنا فى المحافـــل

لكنا اتبعناه على كل حـــاله مـن الدهر جدا غير قول التـهازل

لقد علموا أن ابننا لا مـكـذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطـــل

والمسبة التى زعم أنها تجر على أشياخه شهادته عليهم بالكفر والضلال ، وتسفيه الأحلام وتضليل العقول ، فهذا هو الذى منعه من الإسلام بعد تيقنه .

السبب التاسع : متابعة من يعاديه من الناس للرسول ، وسبقه إلى الدخول فى دينه وتخصصه وقربه منه ، وهذا القدر منع كثيرا من اتباع الهدى يكون للرجل عدو ، ويبغض مكانه ولا يحب أرضا يمشى عليها ، ويقصد مخالفته ومناقضته ، فيراه قد اتبع الحق ، فيحمله قصد مناقضته ومعاداته على معاداة الحق وأهله ، وإن كان لا عداوة بينه وبينهم ، وهذا كما جرى لليهود مع الأنصار ، فإنهم كانوا أعداءهم وكانوا يتواعدونهم بخروج النبى ﷺ ، وأنهم يتبعونه ويقاتلونهم معه ، فلما بدرهم إليه الأنصار ، وأسلموا ، حملهم معاداتهم على البقاء على كفرهم ويهوديتهم .

السبب العاشر : مانع الألف والعادة والمنشأ ، فإن العادة قد تقوى حتى تغلب حكم الطبيعة ؛ ولهذا قيل : هى طبيعة ثانية ، فيربى الرجل على المقالة ، وينشأ عليها صغيرا ، فيتربى قلبه ونفسه عليها كما يتربى لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد ولا يعقل نفسه إلا عليها ، ثم يأتيه العلم وهلة واحدة يريد إزالتها وإخراجها من قلبه ، وأن يسكن موضعها فيعسر عليه الانتقال ، ويصعب عليه الزوال ، وهذا السبب وإن كان أضعف الأسباب معنى ، فهو أغلبها على الأمم وأرباب المقالات والنحل ، ليس مع أكثرهم ، بل جميعهم إلا ما عسى أن يشذ الإعادة ومربى تربى عليه طفلا لا يعرف غيرها ولا يحسن به ، فدين العوايد هو الغالب على أكثر الناس ،فالانتقال عنه كالانتقال عن الطبيعة إلى طبيعة ثانية ، فصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورسله ، خصوصا على خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ ، كيف غيروا عوائد الأمم الباطلة ؟ ونقلوهم إلى الإيمان ، حتى استحدثوا به طبيعة ثانية خرجوا بها عن عادتهم ، وطبيعتهم الفاسدة . ولا يعلم مشقة هذا على النفوس إلا من زاول نقل رجل

واحد عن دينه ومقالته إلى الحق ، فجزى الله المرسلين أفضل ما جزى به أحدا من العالمين .

إذا عرف أن المقتضى نوعان ؛ فالهدى المقتضى وحده لا يوجب الاهتداء ، والهدى التام يوجب الاهتداء . فالأول : هدى البيان والدلالة والتعليم ، ولهذا يقال : هدى فما اهتدى . والثانى : هدى البيان والدلالة ، مع إعطاء التوفيق ، وخلق الأرادة ، فهذا الهدى الذى يستلزم الاهتداء . ولا يتخلف عنه موجبه ، فمتى وجد السبب وانتفت الموانع لزم وجود حكمه ، وههنا دقيقة بها ينفصل النزاع ، وهى أنه هل ينعطف من قيام المانع وعدم الشرط على المقتضى أمر يضعفه فى نفسه ، ويسلبه اقتضاءه وقوته أو الاقتضاء بحاله ، وإنما غلب المانع فكان التأثير له .

ومثال ذلك فى مسئلتنا : أنه بوجود هذه الموانع المذكورة أو بعضها ، هل يضعف العلم حتى لا يصير مؤثرا البتة ، أو العلم بحاله ؟ ولكن المانع بقوته غلب فكان الحكم له . هذا سر المسألة وفقهها ، فأما الأول فلا شك فيه ، ولكن الشأن فى القسم الثانى ، وهو بقاء العلم بحاله والتحقيق أن الموانع تحجبه وتعميه، وربما قلبت حقيقته من القلب ، والقرآن قد دل على هذا ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾** ﴾ [الصف] فعاقبهم ـ سبحانه ـ بإزاغة قلوبهم عن الحق لما زاغوا عنه ابتداء .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾** ﴾ [الانعام] ولهذا قيل : من عرض عليه حق فرده فلم يقبله عوقب بفساد قلبه وعقله ورأيه ، ومن هنا قيل : لا رأى لصاحب هوى ، فإن هواه يحمله على رد الحق فيفسد الله عليه رأيه وعقله .

قال تعالى : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ** ﴾ [النساء : ١٥٥] أخبر ـ سبحانه ـ أن كفرهم بالحق بعد أن علموه كان سببا لطبع الله على قلوبهم ﴿ **بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ** ﴾ [النساء : ١٥٥] ، حتى صارت غلفا ، والغلف جمع أغلف وهو القلب الذى قد غشيه غلاف كالسيف الذى فى غلافه ، وكل شئ فى غلافه فهو أغلف ، وجمعه غلف يقال : سيف أغلف ، وقوس غلفاء ، ورجل أغلف وأقلف ؛ إذا لم يختتن . والمعنى : قلوبنا عليها غشاوة وغطاء فلا تفقه ما تقول يا محمد ﷺ ، ولم تع شيئا . من قال : إن المعنى : أنها غلف للعلم والحكمة ، أى أوعية لها فلا يحتاج إلى قولك ، ولا تقبله استغناء بما عندهم لوجوه :

أحدها : أن غلف جمع أغلف كقلف وأقلف ، وحمر وأحمر ، وجرد وأجرد ،

وغلب وأغلب ونظائره ، والأغلف من القلوب : هو الداخل فى الغلاف ، هذا هو المعروف من اللغة .

الثانى : أنه ليس من الاستعمال السائغ المشهور أن يقال : قلب فلان غلاف لكذا ، وهذا لا يكاد يوجد فى شىء من نثر كلامهم ولا نظمه . ولا نظير له فى القرآن ، فيحمل عليه ولا هو من التشبيه البديع المستحسن فلا يجوز حمل الآية عليه .

الثالث : أن نظير قول هؤلاء قول الآخرين من الكفار : ﴿ **قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ** ﴾ [فصلت : ٥] ، والأكنة هنا : هى الغلف التى قلوب هؤلاء فيها ، والأكنة كالأوعية والأغطية التى تغطى المتاع ، ومنه الكنانة لغلاف السهام .

الرابع : أن سياق الآية لا يحسن مع المعنى الذى ذكروه ، ولا يحسن مقابلته بقوله : ﴿ **بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ** ﴾ ، وانما يحسن مع هذا المعنى أن يسلب عنهم العلم والحكمة التى ادعوها كما قيل لهم لما ادعوا ذلك : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** (٨٥) ﴾ [الإسراء] ، وأما هنا فلما أدعوا أن قلوبهم فى أغطية وأغشية لا تفقه قوله ، قوبلوا بأن عرفهم أن كفرهم ونقضهم ميثاقهم وقتلهم الأنبياء كان سببا لأن طبع على قلوبهم . ولا ريب أن القلب إذا طبع عليه أظلمت صورة العلم فيه وانطمست ، وربما ذهب أثرها حتى يصير السبب الذى يهتدى به المهتدون سببا لضلال هذا ، كما قال تعالى : ﴿ **يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)** ﴾ [البقرة] ، فأخبر تعالى أن القرآن سبب لضلال هذا الصنف من الناس ، وهو هداه الذى هدى به رسوله وعباده المؤمنين ؛ ولهذا أخبر ـ سبحانه ـ أنه إنما يهتدى به من اتبع رضوان الله .

قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)** ﴾ [التوبة] ، ولا شىء أعظم فسادا لمحل العلم من صيرورته بحيث يضل بما يهتدى به ، فنسبته إلى الهدى والعلم نسبة الفم الذى قد استحكمت فيه المرارة إلى الماء العذب ، كما قيل :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

وإذا فسد القلب فسد إدراكه ، وإذا فسد الفم فسد إدراكه ، وكذلك إذا فسدت العين . وأهل المعرفة من الصيارفة يقولون : إن من خاف فى نقده نسى النقد وسلبه ، فاشتبه عليه الخالص بالزغل . ومن كلام بعض السلف : يهتف العلم بالعمل ، فإن أجابه حل وإلا

ارتحل وقال بعض السلف : كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به ، فترك العمل بالعلم من أقوى الأسباب فى ذهابه ونسيانه . وأيضا ، فإن العلم يراد للعمل ، فإنه بمنزلة الدليل للسائر ، فإذا لم يسر خلف الدليل لم ينتفع بدلالته ، فنزل منزلة من لم يعلم شيئا ؛ لأن من علم ولم يعمل بمنزلة الجاهل الذى لا يعلم ، كما أن من ملك ذهبا وفضة وجاع وعرى ولم يشتر منها ما يأكل ويلبس ، فهو بمنزلة الفقير العادم ، كما قيل :

ومن ترك الإنفاق عند احتياجه مخافة فقر فالذى فعل الفقر

والعرب تسمى الفحش والبذاء جهلا ، إما لكونه ثمرة الجهل فيسمى باسم سببه وموجبه ، وإما لأن الجهل يقال فى جانب العلم والعمل ، قال الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومن هذا قول موسى لقومه وقد قالوا : ﴿ **أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** (٦٧) ﴾ [البقرة] فجعل الاستهزاء بالمؤمنين جهلا . ومنه قوله تعالى حكاية عن يوسف أنه قال : ﴿ **وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** (٣٣) ﴾ [يوسف] . ومن هذا قوله تعالى : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** (١٩٩) ﴾ [الاعراف] ليس المراد إعراضه عمن لا علم عنده فلا يعلمه ولا يرشده ، وإنما المراد إعراضه عن جهل من جهل عليه فلا يقابله ولا يعاتبه .

قال مقاتل وعروة والضحاك وغيرهم : صن نفسك عن مقابلتهم وعلى سفههم ، وهذا كثير فى كلامهم ، ومنه الحديث : « إذا كان صوم أحدكم فلا يصخب ولا يجهل»(١)، ومن هذا تسمية المعصية جهلا . قال قتادة : أجمع أصحاب محمد أن كل من عصى الله فهو جاهل ، وليس المراد أنه جاهل بالتحريم ؛ إذا لو كان جاهلا لم يكن عاصيا، فلا يترتب الحد فى الدنيا والعقوبة فى الآخرة على جاهل بالتحريم ؛ بل نفس الذنب يسمى جهلا ، وإن علم مرتكبه بتحريمه إما أنه لا يصدر إلا عن ضعف العلم ونقصانه ، وذلك جهل فسمى باسم سببه ، وإما تنزيلا لفاعله منزلة الجاهل به .

الثانى : أنهم لما ردوا الحق ورغبوا عنه عوقبوا بالطبع والرين وسلب العقل والفهم ، كما قال تعالى عن المنافقين : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** (٣) ﴾ [المنافقون]

الثالث : أن العلم الذى ينتفع به ويستلزم النجاة والفلاح لم يكن حاصلا لهم ، فسلب

---

(١) النسائى (٢٢١٦) فى الصيام ، باب : فى فضل الصيام ، وأحمد (٢ / ٢٧٣) ، وقال العلامة أحمد شاكر (٧٦٧٩) : « إسناده صحيح » .

عنهم حقيقته ، والشيء قد ينتفي لنفي ثمرته والمراد منه . قال تعالى في ساكن النار : ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ (٧٤) ﴾ [طه] نفى الحياة لانتفاء فائدتها والمراد منها ويقولون : لا مال إلا ما أنفق ولا علم إلا ما نفع ؛ ولهذا نفى عنه ـ سبحانه ـ عن الكفار الأسماع والأبصار والعقول لما لم ينتفعوا بها .

وقال تعالى : ﴿ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

ولما لم يحصل لهم الهدى المطلوب بهذه الحواس كانوا بمنزلة فاقديها ، قال تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾ [البقرة] فالقلب يوصف بالبصر والعمى والسمع والصم والنطق والبكم ، بل هذه له أصلا وللعين والأذن واللسان تبعا ، فإذا عدمها القلب فصاحبه أعمى مفتوح العين ، أصم ولا آفة بأذنه ، أبكم وإن كان فصيح اللسان ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج] فلا تنافي بين قيام الحجة بالعلم وبين سلبه ونفيه بالطبع والختم والقفل على قلوب من لا يعمل بموجب الحجة وينقاد لها .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) ﴾ [الإسراء] ، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه منعهم فقه كلامه ، وهو الإدراك الذى ينتفع به من فقهه ، ولم يكن ذلك مانعا لهم من الإدراك الذى تقوم به الحجة عليهم ، فإنهم لو لم يفهموه جملة ماولوا على أدبارهم نفورا عند ذكر توحيد الله ، فلما ولوا عند ذكر التوحيد دل على أنهم كانوا يفهمون الخطاب ، وأن الذى غشى قلوبهم كالذى غشى آذانهم ، ومعلوم أنهم لم يعدموا السمع جملة ويصيروا كالأصم ؛ ولذلك ينفى ـ سبحانه ـ عنهم السمع تارة ويثبته أخرى .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٣] ، ومعلوم أنهم قد سمعوا القرآن ، وأمر الرسول بإسماعهم إياه ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) ﴾ [الملك] ، فهذا السمع المنفى عنهم سمع الفهم والفقه ، والمعنى : ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم سمعا ينتفعون به ، وهو فقهه المعنى وعقله ، وإلا فقد سمعوه سمعا تقوم به عليهم الحجة ، لكن لما سمعوه مع شدة بغضه وكراهته

ونفرتهم عنه لم يفهموه ولم يعقلوه ، والرجل إذا اشتدت كراهته للكلام ونفرته عنه لم يفهم ما يراد به ، فينزل منزلة من لم يسمعه ، قال تعالى : ﴿ **مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ** ﴿٢٠﴾ ﴾ [هود] نفى عنهم استطاعة السمع مع صحة حواسهم وسلامتها ، وإنما لفرط بغضهم ونفرتهم عنه وعن كلامه صاروا بمنزلة من لا يستطيع أن يسمعه ولا يراه ، وهذا استعمال معروف للخاصة والعامة ، يقولون : لا أطيق أنظر إلى فلان ، ولا أستطيع أن أسمع كلامه من بغضه ونفرته عنه .

وبعض الجبرية يحتج بهذه الآية وشبهها على مذهبهم ولا دلالة فيها ؛ إذ ليس المراد سلبهم السمع والبصر الذى تقوم به الحجة قطعا ، وإنما المراد سلب السمع الذى يترتب عليه فائدته وثمرته والقدر حق ، ولكن الواجب تنزيل القرآن منازله ، ووضع الآيات مواضعها ، واتباع الحق حيث كان ، ومثل هذا إذا لم يحصل له فهم الخطاب لا يعذر بذلك ؛ لأن الآفة منه وهو بمنزلة من سد أذنيه عند الخطاب فلم يسمعه فلا يكون ذلك عذرا له ، ومن هذا : ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ** ﴾ [فصلت : ٥] يعنون أنهم فى ترك القبول منه ، ومحبة الإسماع لما جاء به ، وإيثار الإعراض عنه ، وشدة النفار عنه بمنزلة من لا يعقله ولا يسمعه ، ولا يبصر المخاطب لهم به ، فهذا هو الذى يقولون لا خلود فى النار : ﴿ **لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك : ١٠] ؛ ولهذا جعل ذلك مقدورا لهم وذنبا اكتسبوه ، فقال تعالى : ﴿ **فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴿١١﴾ ﴾ [الملك] .

والله تعالى ينفى تارة عن هؤلاء العقل والسمع والبصر، فإنها مدارك العلم وأسباب حصوله ، وتارة ينفى عنهم السمع والعقل ، وتارة ينفى عنهم السمع والبصر ، وتارة ينفى عنهم العقل والبصر ، وتارة ينفى عنهم وحده ، فنفى الثلاثة نفى لمدارك العلم بطريق المطابقة ، ونفى بعضها نفى له بالمطابقة والآخر باللزوم ، فإن القلب إذا فسد فسد السمع والبصر ، بل أصل فسادهما من فساده ، وإذا فسد السمع والبصر فسد القلب ، فإذا أعرض عن سمع الحق وأبغض قائله بحيث لا يحب رؤيته امتنع وصول الهدى إلى القلب ففسد ، وإذا فسد السمع والعقل تبعهما فساد البصر فكل مدرك من هذه يصح بصحة الآخر ويفسد بفساده ؛ فلهذا يجىء فى القرآن نفى ذلك صريحا ولزوما .

وبهذا التفصيل يعلم اتفاق الأدلة من الجانبين ، وفى استدلال الطائفة الثانية بقوله : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** ﴾ [البقرة : ١٤٦] ، ونظائرها نظر ، فإن الله تعالى حيث قال : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ** ﴾ لم يكونوا إلا ممدوحين مؤمنين ، وإذا أراد

ذمهم والإخبار عنهم بالعناد وإيثار الضلال ، أتى بلفظ الذين أتوا الكتاب مبنيا للمفعول .

فالأول : كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ الآيات [القصص : ٥٢ ـ ٥٤]، وكقوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) ﴾ [الأنعام] ، فهذا فى سياق مدحهم والاستشهاد بهم ، ليس فى سياق ذمهم والإخبار بعنادهم وجحودهم ، كما استشهدهم فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد] ، وفى قوله : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل] .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) ﴾ [البقرة] . واختلف فى الضمير فى ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ فقيل : هو ضمير الكتاب الذى أوتوه . قال ابن مسعود : يحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ويقرؤونه كما أنزل ، ولا يحرفونه عن مواضعه . قالوا : وأنزلت فى مؤمنى أهل الكتاب . وقيل : هذا وصف للمسلمين ، والضمير فى ﴿ يَتْلُونَهُ ﴾ للكتاب الذى هو القرآن . وهذا بعيد ، إذا عرف أن القرآن يأباه .

ولا يرد على ما ذكرنا قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ﴾ [البقرة] ، بل هذا حجة لنا أيضا لما ذكرنا فإنه أخبر فى الأول عن معرفتهم برسوله ﷺ ودينه وقبلته كما يعرفون أبناءهم ، استشهادا بهم على من كفر وثناء عليهم ؛ ولهذا ذكر المفسرون أنهم عبد الله بن سلام وأصحابه ، وخص فى آخر الآية بالذم طائفة منهم ، فدل على أن الأولين غير مذمومين ، وكونهم دخلوا فى جملة الأولين بلفظ المضمر لا يوجب أن يقال : آتيناهم الكتاب عند الإطلاق ، فإنهم دخلوا فى هذا اللفظ ضمنا وتبعا ، فلا يلزم تناوله لهم قصدا واختيارا .

وقال تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ﴾ [الأنعام : ١٩ ، ٢٠] ، قيل : الرسول وصدقه ، وقيل : المذكور هو التوحيد ، والقولان متلازمان . إذ ذلك فى معرض الاستشهاد والاحتجاج على المشركين لا فى معرض ذم الذين آتاهم الكتاب ، فإن السورة مكية ، والحجاج كان فيها مع أهل الشرك ، والسياق يدل على الاحتجاج لا ذم المذكورين من أهل الكتاب .

وأما الثانى : فكقوله : ﴿ **وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ** ﴾ [البقرة]، فهذا شهادته ـ سبحانه ـ للذين أوتوا الكتاب . والأول شهادته للذين آتاهم الكتاب بأنهم مؤمنون.

وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا** ﴾ [النساء : ٤٧] ، وقال تعالى : ﴿ **وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ** ﴾ [آل عمران : ٢٠] وهذا خطاب لمن لم يسلم منهم ، وإلا فلم يؤمر ﷺ أن يقول هذا لمن أسلم منهم وصدق به ؛ ولهذا لا يذكر ـ سبحانه الذين أتوا نصيبا من الكتاب إلا بالذم أيضا كقوله : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ** ﴾ الآية [النساء : ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤)** ﴾ [النساء] ، وقال : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣)** ﴾ [آل عمران] ، فالأقسام أربعة : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ** ﴾ وهذا لا يذكره ـ سبحانه ـ إلا فى معرض المدح . و ﴿ **الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ** ﴾ لا يكون قط إلا فى معرض الذم . و ﴿ **الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** ﴾ أعم منه ، فإنه قد يتناولهما ولكن لا يفرد به الممدوحون قط . و ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ** ﴾ يعم الجنس كله ويتناول الممدوح منه والمذموم ، كقوله : ﴿ **مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** ﴾ الآية [آل عمران] ، وقال فى الذم : ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ** ﴾ [البينة : ١] .

وهذا الفصل ينتفع به جدا فى أكبر مسائل أصول الإسلام وهى مسألة الإيمان ، واختلاف أهل القبلة فيه . وقد ذكرنا فيه نكتا حسانا يتضح بها الحق فى المسألة ، والله أعلم .

الوجه الثانى والثمانون : أن الله ـ سبحانه ـ فاوت بين النوع الإنسانى أعظم تفاوت يكون بين المخلوقين ، فلا يعرف اثنان من نوع واحد بينهما من التفاوت ما بين خير البشر وشرهم ، والله ـ سبحانه ـ خلق للملائكة عقولا بلا شهوات ، وخلق الحيوانات ذوات شهوات بلا عقول ، وخلق الإنسان مركبا من عقل وشهوة ، فمن غلب عقله شهوته كان خيرا من الملائكة ، ومن غلبت شهوته عقله كان شرا من الحيوانات . وفاوت ـ سبحانه ـ بينهم فى العلم ، فجعل عالمهم معلم الملائكة ، كما قال تعالى : ﴿ **يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ** ﴾

[البقرة : ٣٣] وتلك مرتبة لا مرتبة فوقها ، وجعل جاهلهم بحيث لا يرضى الشيطان به ولا يصلح له ، كما قال الشيطان لجاهلهم الذى أطاعه فى الكفر : ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ ﴾ [الحشر : ١٦] وقال لجهلتهم الذين عصوا رسول :ه ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ ﴾ [الانفال : ٤٨] ، فلله ما أشد هذا التفاوت بين شخصين ؛ أحدهما تسجد له الملائكة ويعلمها مما الله علمه ، والآخر لا يرضى الشيطان به وليا ، وهذا التفاوت العظيم إنما حصل بالعلم وثمرته ، ولو لم يكن فى العلم إلا القرب من رب العالمين والالتحاق بعالم الملائكة وصحبة الملأ الأعلى لكفى به فضلا وشرفا ، فكيف وعز والدنيا والآخرة منوط به ومشروط بحصوله .

الوجه الثالث والثمانون : أن أشرف مافى الإنسان محل العلم منه وهو قلبه وسمعه وبصره . ولما كان القلب هو محل العلم والسمع رسوله الذى يأتيه به ، والعين طليعته ، كان ملكا على سائر الأعضاء يأمرها فتأتمر لأمره ، ويصرفها فتنقاد له طائعة بما خص به من العلم دونها ، فلذلك كان ملكها والمطاع فيها . وهكذا العالم فى الناس ، كالقلب فى الأعضاء .

ولما كان صلاح الأعضاء بصلاح ملكها ومطاعها وفسادها بفساده ، كانت هذه حال الناس مع علمائهم وملوكهم ، كما قال بعض السلف : صنفان إذا صلحا صلح سائر الناس ، وإذا فسدا فسد سائر الناس : العلماء والأمراء . قال عبد الله بن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملو ك وأحبار سوء ورهبانها

ولما كان للسمع والبصر من الإدراك ما ليس لغيرهما من الأعضاء ، كانا فى أشرف جزء من الإنسان وهو وجهه ، وكانا من أفضل ما فى الإنسان من الأجزاء والأعضاء والمنافع .

الوجه الرابع والثمانون : أن الله ـ سبحانه ـ فى القرآن يعدد على عباده من نعمه عليهم أن أعطاهم آلات العلم ، فيذكر الفؤاد والسمع والأبصار ، ومرة يذكر اللسان الذى يترجم به عن القلب ، فقال تعالى فى سورة النعم ـ وهى سورة النحل التى ذكر فيها أصول النعم وفروعها ومتمماتها ومكملاتها ، فعدد نعمه فيها على عباده ، وتعرف بها إليهم واقتضاهم شكرها ، وأخبر أنه يتمها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها ، فأولها فى أصول النعم وآخرها فى مكملاتها ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل] فذكر ـ سبحانه ـ نعمته عليهم بأن أخرجهم لا علم لهم ، ثم أعطاهم الأسماع والأبصار والأفئدة التى نالوا بها من العلم ما نالوه ، وأنه فعل بهم ذلك ليشكروه .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا

﴿ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد] ، فذكر هنا العينين التى يبصر بهما فيعلم المشاهدات ، وذكر هداية النجدين وهما طريقا الخير والشر ، وفى ذلك حديث مرفوع ومرسل ، وهو قول أكثر المفسرين ، وتدل عليه الآية الأخرى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان] والهداية تكون بالقلب والسمع ، فقد دخل السمع فى ذلك لزوما ، وذكر اللسان والشفتين اللتين هما آلة التعليم ، فذكر آلات العلم والتعليم وجعلها من آياته الدالة عليه وعلى قدرته ووحدانيته ونعمه ، التى تعرف بها إلى عباده .

ولما كانت هذه الأعضاء الثلاثة التى هى أشرف الأعضاء وملوكها والمتصرفة فيها والحاكمة عليها ، خصها ـ سبحانه ـ وتعالى بالذكر فى السؤال عنها ، فقال : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء] ، فسعادة الإنسان بصحة هذه الأعضاء الثلاثة وشقاوته بفسادها . قال ابن عباس : يسأل الله العباد فيما استعملوا هذه الثلاثة السمع والبصر والفؤاد ، والله تعالى أعطى العبد السمع ليسمع به أوامر ربه ونواهيه وعهوده ، والقلب ليعقلها ويفقهها ، والبصر ليرى آياته فيستدل بها على وحدانيته وربوبيته، فالمقصود بإعطائه هذه الآلات العلم وثمرته ومقتضاه .

الوجه الخامس والثمانون : أن أنواع السعادة التى تؤثرها النفوس ثلاثة :

سعادة خارجية عن ذات الإنسان ، بل هى مستعارة له من غيره ، تزول باسترداد العارية ، وهى سعادة المال والحياة ، فبينا المرء بها سعيدا ملحوظا بالعناية مرموقا بالأبصار ، إذا أصبح فى اليوم الواحد أذل من وتد بقاع يشج رأسه بالفهرواجى ، فالسعادة والفرح بهذه كفرح الأقرع بجمة ابن عمه ، والجمال بها كجمال المرء بثيابه وبزينته ، فإذا جاوز بصرك كسوته ، فليس وراء عبادان قرية .

ويحكى عن بعض العلماء : أنه ركب مع تجار فى مركب ، فانكسرت بهم السفينة ، فأصبحوا بعد عز الغنى فى ذل الفقر ، ووصل العالم إلى البلد فأكرم ، وقصد بأنواع التحف والكرامات ، فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم قالوا له : هل لك إلى قومك كتاب أو حاجة ؟ فقال : نعم ، تقولون لهم : إذا اتخذتم مالا لا يغرق إذا انكسرت السفينة ، فاتخذوا العلم تجارة . واجتمع رجل ذو هيئة حسنة ولباس جميل ورواء برجل عالم ، فجس المخاضة فلم ير شيئا ، فقالوا : كيف رأيته ؟ فقال : رأيت دارا حسنة مزخرفة ، ولكن ليس بها ساكن .

السعادة الثانية : سعادة فى جسمه وبدنه ، كصحته واعتدال مزاجه ، وتناسب أعضائه ،

وحسن تركيبة ، وصفاء لونه ، وقوة أعضائه ، فهذه ألصق به من الأولى ، ولكن هى فى الحقيقة خارجة عن ذاته وحقيقته ، فإن الإنسان إنسان بروحه وقلبه لا بجسمه وبدنه ، كما قيل :

يا خادم الجسم كى يشقى بخدمته فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

فنسبة هذه إلى روحه وقلبه كنسبة ثيابه ولباسه إلى بدنه ، فإن البدن ـ أيضا ـ عارية للروح وآلة لها ، ومركب من مراكبها ، فسعادتها بصحته وجماله وحسنه سعادة خارجة عن ذاتها وحقيقتها .

السعادة الثالثة : هى السعادة الحقيقية ، وهى سعادة نفسانية روحية قلبية ، وهى سعادة العلم النافع ثمرته ، فإنها هى الباقية على تقلب الأحوال ، والمصاحبة للعبد فى جميع أسفاره ، وفى دوره الثلاثة ؛ أعنى دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار . وبها يترقى معارج الفضل ودرجات الكمال .

أما الأولى : فإنها تصحبه فى البقعة التى فيها ماله وجاهه .

والثانية : تعرضه للزوال والتبدل بنكس الخلق والرد إلى الضعف ، فلا سعادة فى الحقيقة إلا فى هذه الثالثة التى كلما طال الأمد ازدادت قوة وعلوا ، وإذا عدم المال والجاه فهى مال العبد وجاهه ، وتظهر قوتها وأثرها بعد مفارقة الروح البدن إذا انقطعت السعادتان الأوليتان ، وهذه السعادة لا يعرف قدرها ويبعث على طلبها إلا العلم بها ، فعادات السعادة كلها إلى العلم ومايقتضيه ، والله يوفق من يشاء ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع . وإنما رغب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها وعورة طريقها ومرارة مباديها وتعب تحصيلها ، وأنها لا تنال إلا على جد من التعب ، فإنها لا تحصل إلا بالجد المحض بخلاف الأوليين ، فإنهما حظ قد يحوزه غير طالبه ، وبخت قد يحوزه غير جالبه من ميراث، أو هبة أو غير ذلك . وأما سعادة العلم فلا يورثك إياها إلا بذل الوسع ، وصدق الطلب ، وصحة النية ، وقد أحسن القائل فى ذلك :

فقل لمرجى معالى الأمـــور بغير اجتهاد رجوت المحالا

وقال آخر :

لـولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقـدام قتال

ومن طمحت همته إلى الأمور العالية ، فواجب عليه أن يشد على محبة الطرق الدينية وهى السعادة ، وإن كانت فى ابتدائها لا تنفك عن ضرب من المشقة والكره والتأذى ، وأنها متى أكرهت النفس عليها ، وسيقت طائعة وكارهة إليها ، وصبرت على لأوائها وشدتها ،

أفضت منها إلى رياض مونقة ، ومقاعد صدق ، ومقام كريم ، تجد كل لذة دونها لعب الصبى بالعصفور بالنسبة إلى لذات الملوك ، فحينئذ حال صاحبها ، كما قيل :

وكنت أرى أن قد تناهى بى الهوى إلى غاية ما بعدها لى مذهب

فلما تلاقينا وعاينت حسنهـــــا تيقنت أنى إنما كنت ألعـــب

فالمكارم منوطة بالمكاره ، والسعادة لا يعبر إليها إلا على جسر المشقة ، فلا تقطع مسافتها إلا فى سفينة الجد والاجتهاد . قال مسلم فى صحيحه : قال يحيى بن أبى كثير : لا ينال العلم براحة الجسم . وقد قيل : من طلب الراحة ترك الراحة .

فياوصل الحبيب أما إليه بغير مشقة أبدا طريق

ولولا جهل الأكثرين بحلاوة هذه اللذة وعظم قدرها ، لتجالدوا عليها بالسيوف ، ولكن حفت بحجاب من المكاره ، وحجبوا عنها بحجاب من الجهل ؛ ليختص الله لها من يشاء من عباده ، والله ذو الفضل العظيم .

الوجه السادس والثمانون : أن الله تعالى خلق الموجودات ، وجعل لكل شىء منها كما لا يختص به هو غاية شرفه ، فإذا عدم كماله انتقل إلى الرتبة التى دونه واستعمل فيها ، فكان استعماله فيها كمال أمثاله ، فإذا عدم تلك أيضا نقل إلى ما دونها ولا تعطل . وهكذا أبدا ، حتى إذا عدم كل فضيلة صار كالشوك وكالحطب الذى لا يصلح إلا للوقود ، فالفرس إذا كانت فيه فروسيته التامة أعد لمراكب الملوك ، وأكرم إكرام مثله ، فإذا نزل عنها قليلا أعد لمن دون الملك ، فإن ازداد تقصيره فيها أعد لآحاد الإجناد ، فإن تقاصر عنها جملة استعمل استعمال الحمار ، وإما حول المدار ، وإما لنقل الزبل ونحوه ، فإن عدم ذلك استعمل استعمال الأغنام للذبح والإعدام . كما يقال فى المثل : إن فرسين التقيا ، أحدهما تحت ملك ، والآخر تحت الروايا ، فقال فرس الملك ، أما أنت صاحبى ، وكنت أنا وأنت فى مكان واحد ، فما الذى نزل بك إلى هذه المرتبة ؟ فقال : ما ذاك إلا أنك هملجت قليلا وتكسعت أنا .

وهكذا السيف إذا نبا عما هيئ له ولم يصلح له ، ضرب منه فاس أو منشار ونحوه .

وهكذا الدور العظام الحسان إذا خربت وتهدمت،اتخذت حظائر للغنم أو الإبل وغيرها .

وهكذا الآدمى إذا كان صالحا لاصطفاء الله له برسالته ونبوته اتخذه رسولا ونبيا ، كما قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [الانعام : ١٢٤] ، فإذا كان جوهره قاصرا عن هذه الدرجة صالحا لخلافة النبوة وميراثها ، رشحه لذلك وبلغه إياه ، فإذا كان قاصرا عن ذلك قابلا لدرجة الولاية رشح لها ، وإن كان ممن يصلح للعمل والعبادة دون المعرفة

والعلم ، جعل أهله حتى ينتهى إلى درجة عموم المؤمنين[١] ، فإن نقص عن هذه الدرجة ولم تكن نفسه قابلة لشيء من الخير أصلا ، استعمل حطبا ووقودا للنار .

وفى أثر إسرائيلى : إن موسى سأل ربه عن شأن من يعذبهم من خلقه . فقال : يا موسى ، ازرع زرعا ، فزرعه ، فأوحى إليه أن احصده ، ثم أوحى إليه أن انسفه وذره ، ففعل وخلص الحب وحده ، والعيدان والعصف وحده ، فأوحى إليه : إنى لأجعل فى النار من العباد من لا خير فيه بمنزلة العيدان والشوك التى لا يصلح إلا للنار .

وهكذا الإنسان يترقى فى درجات الكمال درجة بعد درجة حتى يبلغ نهاية ما يناله أمثاله منها ، فكم بين حاله فى أول كونه نطفة ، وبين حاله والرب يسلم عليه فى داره وينظر إلى وجهه بكرة وعشيا . والنبى ﷺ فى أول أمره لما جاءه الملك فقال له : اقرأ فقال : « ما أنا بقارئ » [٢] وفى آخره أمره بقول الله له : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** ﴾ [المائدة : ٣] ، وبقوله له خاصة : ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)** ﴾ [النساء] .

وحكى أن جماعة من النصارى تحدثوا فيما بينهم ، فقال قائل منهم : ما أقل عقول المسلمين ، يزعمون أن نبيهم كان راعى الغنم ، فكيف يصلح راعى الغنم للنبوة ؟ فقال له آخر من بينهم : أما هم فو الله أعقل منا ، فإن الله بحكمته يسترعى النبى الحيوان البهيم ، فإذا أحسن رعايته والقيام عليه نقله منه إلى رعاية الحيوان الناطق ، حكمة من الله وتدريجا لعبده ، ولكن نحن جئنا إلى مولود خرج من امرأة يأكل ويشرب ويبول ويبكى فقلنا : هذا إلهنا الذى خلق السموات والأرض ، فأمسك القوم عنه .

فكيف يحسن بذى همة قد أزاح الله عنه علله ، وعرفه السعادة والشقاوة ، أن يرضى بأن يكون حيوانا وقد أمكنه أن يصير إنسانا ، وبأن يكون إنسانا وقد أمكنه أن يكون ملكا ، وبأن يكون ملكا وقد أمكنه أن يكون ملكا فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فتقوم الملائكة فى خدمته ، وتدخل عليهم من كل باب ﴿ **سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)** ﴾ [الرعد] .

وهذا الكمال إنما ينال بالعلم ورعايته والقيام بموجبه ، فعاد الأمر إلى العلم وثمرته ، والله تعالى الموفق . وأعظم النقص وأشد الحسرة نقص القادر على التمام وحسرته على تفويته كما قال بعض السلف : إذا كثرت طرق الخير كان الخارج منها أشد حسرة ، وصدق

---

(١) هذا التقسيم جيد ، فالأول لقوله تعالى فى الآيه السابقة ، أما جعل الولاية درجة ، ثم العبادة والعمل دونها ، ففيه نظر لأن كل عامل عابد ولى من أولياء الله تعالى بشرط الإخلاص والتقوى ، وكذلك عموم المؤمنين لهم نصيب من الولاية كل بقدر وإخلاص وتقواه ، والله تعالى أعلم . وراجع ص (٢٦٣) .

(٢) البخارى (٣) فى بدء الوحى ، باب : (٣) .

القائل :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

فثبت أنه لا شىء أقبح بالإنسان من أن يكون غافلا عن الفضائل الدينية والعلوم النافعة والأعمال الصالحة ، فمن كان كذلك فهو من الهمج الرعاع الذين يكدرون الماء ويغلون ، إن عاش عاش غير حميد ، وإن مات مات غير فقيد ، فقدهم راحة للبلاد والعباد ، ولا تبكى عليهم السماء ، ولا تستوحش له الغبراء .

الوجه السابع والثمانون : أن القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه ، إذا استحكما فيه كان هلاكه وموته ، وهما مرض الشهوات ومرض الشبهات ، هذان أصل داء الخلق إلا من عافاه الله ، وقد ذكر الله تعالى هذين المرضين فى كتابه .

أما مرض الشبهات ـ وهو أصعبها وأقتلهما للقلب ، ففى قوله فى حق المنافقين : ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا** ﴾ [البقرة : ١٠] ، وقوله : ﴿ **وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا** ﴾ [المدثر : ٣١] ، وقال تعالى : ﴿ **لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الحج : ٥٣] ، فهذه ثلاثة مواضع المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة .

وأما مرض الشهوة ، ففى قوله : ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** ﴾ [الاحزاب : ٣٢] أى لا تلن فى الكلام فيطمع الذى فى قلبه فجور وزناء . قالوا : والمرأة ينبغى لها إذا خاطبت الأجانب أن تغلظ كلامها وتقويه ، ولا تلينه وتكسره ،فإن ذلك أبعد من الريبة والطمع فيها وللقلب أمراض أخر من الرياء ، والكبر ، والعجب ، والحسد ، والفخر ، والخيلاء ، وحب الرياسة ، والعلو فى الأرض . وهذا المرض مركب من مرض الشبهة والشهوة ، فإنه لابد فيه من تخيل فاسد وإرادة باطلة ؛ كالعجب ، والفخر ، والخيلاء ، والكبر المركب من تخيل عظمته وفضله ، وإرادة تعظم الخلق له ومحمدتهم ، فلا يخرج مرضه عن شهوة أو شبهة أو مركب منهما .

وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل ودواؤها العلم ، كما قال النبى ﷺ فى حديث صاحب الشجة الذى أفتوه بالغسل فمات : « قتلوه قتلهم الله ، ألا سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العى السؤال » [(١)] . فجعل العى ـ وهو عى القلب عن العلم ، واللسان عن النطق ـ

---

(١) أبو داود (٣٣٧) فى الطهارة ، باب : فى المجروح يتيمم ، وابن ماجه (٥٧٢) فى الطهارة وسننها ، باب : فى المجروح تصيبه الجنابة فيخاف على نفسه إن اغتسل ، وفى الزوائد : « إسناده منقطع » ، وحسنه الألبانى ، وأحمد (١ / ٣٣٠) : وقال العلامة أحمد شاكر (٣٠٥٧) ؛ « إسناده صحيح » .

مرضا ، وشفاؤه سؤال العلماء . فأمراض القلوب أصعب من أمراض الأبدان ؛ لأن غاية مرض البدن أن يفضى بصاحبه إلى الموت . وأما مرض القلب فيفضى بصاحبه إلى الشقاء الأبدى ، ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم ؛ ولهذا سمى الله تعالى كتابه شفاء لأمراض الصدور ، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** (٥٧) ﴾ [يونس] ؛ ولهذا السبب نسبة العلماء إلى القلوب كنسبة الأطباء إلى الأبدان ، وما يقال للعلماء : أطباء القلوب ، فهو لقدر ما جامع بينهما ، وإلا فالأمر أعظم ، فإن كثيرا من الأمم يستغنون عن الأطباء ، ولا يوجد الأطباء إلا فى اليسير من البلاد وقد يعيش الرجل عمره أو برهة منه لا يحتاج إلى طبيب .

وأما العلماء بالله وأمره فهم حياة الموجود وروحه ، ولا يستغنى عنهم طرفة عين ، فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفس فى الهواء بل أعظم . وبالجملة ، فالعلم للقلب مثل الماء للسمك ، إذا فقده مات ، فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها،وكنسبة سمع الأذن،وكنسبة كلام اللسان إليه ، فإذا عدمه كان كالعين العمياء ، والأذن الصماء ، واللسان الأخرس ؛ ولهذا يصف ـ سبحانه ـ أهل الجهل بالعمى والصم والبكم ، وذلك صفة قلوبهم ، حيث فقدت العلم النافع فبقيت على عماها وصممها وبكمها ، قال تعالى : ﴿ **وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا** (٧٢) ﴾ [الإسراء] والمراد عمى القلب فى الدنيا . وقال تعالى : ﴿ **وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ** ﴾ [الإسراء : ٩٧] لأنهم هكذا كانوا فى الدنيا ، والعبد يبعث على ما مات عليه .

واختلف فى هذا العمى فى الآخرة ، فقيل : هو عمى البصيرة ؛ بدليل إخباره تعالى عن رؤية الكفار مافى القيامة ، ورؤية الملائكة ، ورؤية النار . وقيل : هو عمى البصر ، ورجح هذا بأن الإطلاق ينصرف إليه ، وبقوله : ﴿ **قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا** (١٢٥) ﴾ [طه] وهذا عمى العين ، فإن الكافر لم يكن بصيرا بحجته . وأجاب هؤلاء عن رؤية الكفار فى القيامة : بأن الله يخرجهم من قبورهم إلى موقف القيامة بصراء ، ويحشرون من الموقف إلى النار عميا ، قاله الفراء وغيره .

الوجه الثامن والثمانون : أن الله ـ سبحانه ـ بحكمته سلط على العبد عدوا عالما بطرق هلاكه وأسباب الشر الذى يلقيه فيه ، متفننا فيها ، خبيرا بها حريصا عليها ، لا يفتر يقظة ولا مناما ، ولا بد له من واحدة من ست ينالها منه : أحدها ـ وهى غاية مراده منه : أن يحول بينه وبين العلم والإيمان فيلقيه فى الكفر ، فإذا ظفر بذلك فرغ منه واستراح ، فإن

فاتته هذه وهدى للإسلام حرص على تلو الكفر وهى البدعة ، وهى أحب إليه من المعصية، فإن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها ؛ لأن صاحبها يرى أنه على هدى . وفى بعض الآثار يقول إبليس : أهلكت بنى آدم بالذنوب ، وأهلكونى بالاستغفار وبلا إله إلا الله ، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء ؛ فهم يذنبون ولا يتوبون ؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . فإذا ظفر منه بهذه صيره من رعاته وأمرائه ، فإن أعجزته شغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليرتج عليه الذى بينهما وهى الخامسة ، فإن أعجزه ذلك صار إلى السادسة وهى : تسليط حزبه عليه ، يؤذونه ويشتمونه ويبهتونه ، ويرمونه بالعظائم ؛ ليحزنه ويشغل قلبه عن العلم والإرادة وسائر أعماله .

فكيف يمكن أن يحترز منه من لا علم له بهذه الأمور ، ولا بعدوه ، ولا بما يحصنه منه ، فإنه لا ينجو من عدوه إلا من عرفه وعرف طريقه التى يأتيه منها ، وجيشه الذى يستعين به عليه ، وعرف تداخله ومخارجه ، وكيفية محاربته ، وبأى شىء يحاربه ، وبماذا يداوى جراحته ، وبأى شىء يستمد القوة لقتاله ودفعه . وهذا كله لا يحصل إلا بالعلم ، فالجاهل فى غفلة وعمى عن هذا الأمر العظيم والخطب الجسيم ؛ ولهذا جاء ذكر العدو وشأنه وجنوده ومكايده فى القرآن كثيرا جدا ؛ لحاجة النفوس إلى معرفة عدوها ، وطرق محاربته ومجاهدته ، فلولا أن العلم يكشف عن هذا لما نجا من نجا منه ، فالعلم هو الذى تحصل به النجاة .

الوجه التاسع والثمانون : أن أعظم الأسباب التى يحرم بها العبد خير الدنيا والآخرة ، ولذة النعيم فى الدارين،ويدخل عليه عدو منها: هو الغفلة المضادة للعلم ، والكسل المضاد للإرادة والعزيمة،هذان أصل بلاء العبد وحرمانه منازل السعداء ، وهما من عدم العلم.

أما الغفلة : فمضادة للعلم منافية له ، وقد ذم ـ سبحانه ـ أهلها ، ونهى عن الكون منهم وعن طاعتهم والقبول منهم ، قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ** (٢٠٥) ﴾ [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا** ﴾ [الكهف : ٢٨] وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** (١٧٩) ﴾ [الأعراف]. وقال النبى ﷺ فى وصيته لنساء المؤمنين :« لا تغفلن فتنسين الرحمة » (١) . وسئل بعض العلماء عن عشق الصور ، فقال : قلوب غفلت عن ذكر الله ، فابتلاها الله بعبودية غيره فالقلب الغافل مأوى الشيطان ، فإنه وسواس خناس ، قد التقم قلب الغافل يقرأ عليه أنواع الوساوس

(١) الترمذى (٣٥٨٣) فى الدعوات ، باب : فى فضل التسبيح والتهليل والتقديس ، وقال : « غريب » ، وحسنه الألبانى ، وأحمد (٦ / ٣٧١) .

والخيالات الباطلة ، فإذا تذكر وذكر الله انجمع وانضم وخنس وتضاءل لذكر الله ،فهو دائما بين الوسوسة والخنس . وقال عروة بن رويم : إن المسيح ﷺ سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم فجلى له ، فإذا رأسه رأس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب ، فإذا ذكر العبد ربه خنس ، وإذا لم يذكر وضع رأسه على ثمرة قلبه ، فمناه وحدثه وقد روى فى هذا المعنى حديث مرفوع ، فهو دائما يترقب غفلة العبد ، فيبذر فى قلبه بذر الأمانى والشهوات والخيالات الباطلة ، فيثمر كل حنظل وكل شوك وكل بلاء ، ولا يزال يمده بسقيه حتى يغطى القلب ويعميه .

وأما الكسل : فيتولد عنه الإضاعة والتفريط والحرمان وأشد الندامة ، وهو مناف للإرادة والعزيمة التى هى ثمرة العلم، فإن من علم أن كماله ونعيمه فى شىء طلبه بجهده ، وعزم عليه بقلبه كله ، فإن كان أحد يسعى فى تكميل نفسه ولذته ، ولكن أكثرهم أخطأ الطريق ؛ لعدم علمه بما ينبغى أن يطلبه ، فالإرادة مسبوقة بالعلم والتصور ، فتخلفها فى الغالب إنما يكون لتخلف العلم والإدراك ، وإلا فمع العلم التام بأن سعادة العبد فى هذا المطلب ونجاته وفوزه كيف يلحقه كسل فى النهوض إليه ؛ ولهذا استعاذ النبى ﷺ من الكسل ، ففى الصحيح عنه أنه كان يقول :« اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، والعجز والكسل ، والجبن والبخل ،وضلع الدين وغلبة الرجال » (١) . فاستعاذ من ثمانية أشياء ، كل شيئين منها قرينان ،والفرق بينهما أن المكروه الوارد على القلب إما أن يكون على ما مضى أو لما يستقبل . فالأول هو الحزن والثانى الهم . وإن شئت قلت : الحزن على المكروه الذى فات ولا يتوقع دفعه ، والهم على المكروه المنتظر الذى يتوقع دفعه وتأمله .

والعجز والكسل قرينان ، فإن تخلف مصلحة العبد وكماله ولذته وسروره عنه إما أن يكون مصدره عدم القدرة فهو العجز ، أو يكون قادرا عليه لكن تخلف لعدم إرادته فهو الكسل ،وصاحبه يلام عليه مالا يلام على العجز ،وقد يكون العجز ثمرة الكسل فيلام عليه أيضا ، فكثيرا ما يكسل المرء عن الشىء الذى هو قادر عليه ، وتضعف عنه إرادته ، فيفضى به إلى العجز عنه ، وهذا هو العجز الذى يلوم الله عليه فى قول النبى ﷺ : « إن الله يلوم على العجز » (٢) وإلا فالعجز الذى لم تخلق له قدرة على دفعه ولا يدخل معجوزه تحت القدرة لا يلام عليه . قال بعض الحكماء فى وصيته : إياك والكسل والضجر ، فإن الكسل لا ينهض لمكرمة ، والضجر إذا نهض إليها لا يصبر عليها ، والضجر متولد عن

---

(١) البخارى (٦٣٦٣) فى الدعوات ، باب : التعوذ من غلبة الرجال .

(٢) أبو داود (٣٦٢٧) فى الأقضية ، باب : الرجل يحلف على حقه ، وضعفه الألبانى .

الكسل والعجز ، فلم يفرده فى الحديث بلفظ .

ثم ذكر الجبن والبخل ، فإن الإحسان المتوقع من العبد إما بماله وإما ببدنه ، فالبخيل مانع لنفع ماله ، والجبان مانع لنفع بدنه ، والمشهور عند الناس أن البخل مستلزم الجبن من غير عكس ؛ لأن من بخل بماله فهو بنفسه أبخل ، والشجاعة تستلزم الكرم من غير عكس لأن من جاد بنفسه فهو بماله أسمح وأجود وهذا الذى قالوه ليس بلازم أكثره ، فإن الشجاعة والكرم وأضدادها أخلاق وغرائز ، قد تجمع فى الرجل ، وقد يعطى بعضها دون بعض . وقد شاهد الناس من أهل الإقدام والشجاعة والبأس من هو أبخل الناس ، وهذا كثير ما يوجد فى أمة الترك ، يكون أشجع من ليث وأبخل من كلب ، فالرجل قد يسمح بنفسه ويضن بماله ؛ ولهذا يقاتل عليه حتى يقتل ، فيبدأ بنفسه دونه ، فمن الناس من يسمح بنفسه وماله ، ومنهم من يبخل بنفسه ، ومنهم من يسمح بماله ويبخل بنفسه ، وعكسه ، والأقسام الأربعة موجودة فى الناس .

ثم ذكر ضلع الدين وغلبة الرجال ، فإن القهر الذى ينال العبد نوعان : أحدهما : قهر بحق وهو ضلع الدين . والثانى : قهر بباطل وهو غلبة الرجال ، فصلوات الله وسلامه على من أوتى جوامع الكلم ، واقتبست كنوز العلم والحكمة من ألفاظه .

والمقصود أن الغفلة والكسل اللذين هما أصل الحرمان سببهما عدم العلم ، فعاد النقص كله إلى عدم العلم والعزيمة ، والكمال كله إلى العلم والعزيمة ، والناس فى هذا على أربعة أضرب :

الضرب الأول : من رزق علما وأعين على ذلك بقوة العزيمة على العمل ، وهذا الضرب خلاصة الخلق، وهم الموصوفون فى القرآن بقوله: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [العصر : ٣] ،وقوله : ﴿**أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ** (٤٥)﴾ [ص] ، وبقوله : ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام : ١٢٢] فبالحياة تنال العزيمة ، وبالنور ينال العلم ، وأئمة هذا الضرب هم أولو العزم من الرسل .

الضرب الثانى : من حرم هذا وهذا ، وهم الموصوفون بقوله : ﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ** (٢٢)﴾ [الأنفال] ، وبقوله : ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** (٤٤)﴾ [الفرقان] ، وبقوله : ﴿ **إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ** ﴾ [النمل : ٨٠] ، وقوله : ﴿ **وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ** (٢٢)﴾ [فاطر] وهذا الصنف شر البرية ، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار ، وعند أنفسهم أنهم يعلمون

ولكن ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، ويعلمون ولكن ما يضرهم ولا ينفعهم ،وينطقون ولكن عن الهوى ينطقون ويتكلمون ، ولكن بالجهل يتكلمون ويؤمنون ، ولكن بالجبت والطاغوت ، ويعبدون ولكن يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ،ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق ، ويتفكرون ويبيتون ولكن مالا يرضى من القول ، يبيتون ويدعون ولكن مع الله إلها آخر ، يدعون ويذكرون ولكن إذا ذكروا لايذكرون ، ويصلون ولكنهم من المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ، ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يبغون ، ويكتبون ولكن يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كسبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون ، ويقولون : إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . فهذا الضرب ناس بالصورة وشياطين بالحقيقة ، وجلهم إذا فكرت لها حمير أو كلاب أو ذئاب ، وصدق البحترى فى قوله :

لم يبق من جل هذا الناس باقية ينالها الوهم إلا هذه الصور

وقال الآخر :

لا تخدعنك اللحاء والصور تسعة أعشار من ترى بقر

فى شجر السدر منهم مثل لها رواء وما لها ثمـــر

وأحسن من هذا كله قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ** ﴾ [المنافقون : ٤] عالمهم كما قيل فيه :

زوامل للأسفار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأبـــاعر

لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا بأوساقه أوراح مافى الغرائر

وأحسن من هذا وأبلغ وأوجز وأفصح قوله تعالى : ﴿ **كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥** ﴾ [الجمعة] .

الضرب الثالث : من فتح له باب العلم وأغلق عنه باب العزم والعمل ، فهذا فى رتبة الجاهل أو شر منه . وفى الحديث المرفوع : « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » (١) . ثبته أبو نعيم وغيره ، فهذا جهله كان خيرا له وأخف لعذابه من علمه ، فما زاده العلم إلا وبالا وعذابا ، وهذا لا مطمع فى صلاحه ، فإن التائه عن الطريق يرجى

(١) انظر مجمع الزوائد للهيثمى (١ / ١٩٠) فى العلم ، باب : فيمن لم يتفع بعلمه ، وقال : « رواه الطبرانى فى الصغير ، وفيه عثمان البرى ، قال الفلاس : صدوق لكنه كثير الغلط ، صاحب بدعة ، « ضعفه أحمد والنسائى والدارقطنى » .

له العود إليها إذا أبصرها ، فإذا عرفها وحاد عنها عمدا فمتى ترجى هدايته ، قال تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) ﴾ [آل عمران] .

الضرب الرابع : من رزق حظا من العزيمة والإرادة ولكن قل نصيبه من العلم والمعرفة ، فهذا إذا وفق له الاقتداء بداع من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) ﴾ [النساء] رزقنا الله من فضله ، ولا أحرمنا بسوء أعمالنا ، إنه غفور رحيم .

الوجه التسعون : أن كل صفة مدح الله بها العبد فى القرآن فهى ثمرة العلم ونتيجته ، وكل ذم ذمه فهو ثمرة الجهل ونتيجته ، فمدحه بالإيمان وهو رأس العلم ولبه ، ومدحه بالعمل الصالح الذى هو ثمرة العلم النافع ،ومدحه بالشكر ، والصبر والمسارعة فى الخيرات ،والحب له ،والخوف منه ، والرجاء ،والإنابة ، والحلم ،والوقار ، واللب والعقل ، والعفة ، والكرم ، والإيثار على النفس ، والنصيحة لعباده ، والرحمة بهم ، والرأفة وخفض الجناح ، والعفو عن مسيئهم ، والصفح عن جانيهم ، وبذل الإحسان لكافتهم ، ودفع السيئة بالحسنة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والصبر فى مواطن الصبر ، والرضا بالقضاء ، واللين للأولياء ، والشدة على الأعداء ، والصدق فى الوعد ، والوفاء بالعهد ، والإعراض عن الجاهلين ، والقبول من الناصحين ، واليقين ،والتوكل ، والطمأنينة ، والسكينة ، والتواصل والتعاطف ، والعدل فى الأقوال والأفعال ، والأخلاق ، والقوة فى أمره ، والبصيرة فى دينه ، والقيام بأداء حقه واستخراجه من المانعين له ، والدعوة إليه وإلى مرضاته وجنته ، والتحذير عن سبيل أهل الضلال ، وتبيين طرق الغى وحال سالكيها ، والتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، والحض على طعام المسكين ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وبذل السلام لكافة المؤمنين ، إلى سائر الأخلاق المحمودة والأفعال المرضية التى أقسم الله ـ سبحانه ـ على عظمها ، فقال تعالى : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم] . قالت عائشة رضي الله عنها ـ وقد سئلت عن خلق رسول الله ﷺ ـ فقالت : كان خلقه القرآن (١) ، فاكتفى بذلك السائل وقال : فهمت أن أقوم ولا أسأل عن شىء بعدها ، فهذه الأخلاق ونحوها هى ثمرة شجرة العلم .

---

(١) مسلم (٧٤٦ / ١٣٩) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : جامع صلاة الليل ، ومن نام عنه أو مرض .

وأما شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر ، والفساد ، والشرك ، والظلم ، والبغى ، والعدوان ، والجزع ، والهلع ، والكنود ، والعجلة ، والطيش ، والحدة ، والفحش ، والبذاء ، والشح ، والبخل ؛ ولهذا قيل فى حد البخل : جهل مقرون بسوء الظن . ومن ثمرته : الغش للخلق ، والكبر عليهم ، والفخر ، والخيلاء ، والعجب ، والرياء ، والسمعة ، والنفاق ، والكذب ، وإخلاف الوعد ، والغلظة على الناس ، والانتقام ، ومقابلة الحسنة بالسيئة ، والأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، وترك القبول من النصاحين ، وحب غير الله ورجائه ، والتوكل عليه ، وإيثار رضاه على رضا الله ، وتقديم أمره على أمر الله ، والتماوت عند حق الله ، والوثوق بما عند حق نفسه ، والغضب لها ، والانتصار لها ، فإذا انتهكت حقوق نفسه لم يقم لغضبه شىء حتى ينتقم بأكثر من حقه ، وإذا انتهكت محارم الله لم ينبض له عرق غضبا لله ، فلا قوة فى أمره ، ولا بصيرة فى دينه . ومن ثمرتها : الدعوة إلى سبيل الشيطان وإلى سلوك طرق البغى ، واتباع الهوى ، وإيثار الشهوات على الطاعات ، وقيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، ووأد البنات ، وعقوق الأمهات ، وقطيعة الأرحام ، وإساءة الجوار ، وركوب مركب الخزى والعار .

وبالجملة ، فالخير بمجموعه ثمر يجتنى من شجرة العلم ، والشر بمجموعه شوك يجتنى من شجرة الجهل ، فلو ظهرت صورة العلم للأبصار لزاد حسنها على صورة الشمس والقمر ، ولو ظهرت صورة الجهل لكان منظرها أقبح منظر ، بل كل خير فى العالم فهو من آثار العلم الذى جاءت به الرسل ومسبب عنه ، وكذلك كل خير يكون إلى قيام الساعة وبعدها فى القيامة . وكل شر وفساد حصل فى العالم ويحصل إلى قيام الساعة وبعدها فى القيامة ، فسببه مخالفة ما جاءت به الرسل فى العلم والعمل ، ولو لم يكن للعلم أب ومرب وسائس ووزير إلا العقل الذى به عمارة الدارين ، وهو الذى أرشد إلى طاعة الرسل ، وسلم القلب والجوارح ونفسه إليهم ، وانقاد لحكمه وعزل نفسه ، وسلم الأمر إلى أهله ، لكفى به شرفا وفضلا . وقد مدح الله ـ سبحانه ـ العقل وأهله فى كتابه فى مواضع كثيرة منه ، وذم من لا عقل له ، وأخبر أنهم أهل النار الذين لا سمع لهم ولا عقل ، فهو آلة كل علم ، وميزانه الذى به يعرف صحيحه من سقيمه ، وراجحه من مرجوحه ، والمرآة التى يعرف بها الحسن من القبيح .

قد قيل : العقل ملك ، والبدن روحه وحواسه ، وحركاته كلها رعية له . فإذا ضعف عن القيام عليها وتعهدها وصل الخلل إليها كلها . ولهذا قيل : من لم يكن عقله أغلب

خصال الخير عليه ، كان حتفه فى أغلب خصال الشر عليه . وروى أنه لما هبط آدم من الجنة أتاه جبريل ، فقال : إن الله أحضرك العقل والدين والحياء لتختار واحدا منها ، فقال : أخذت العقل ، فقال الدين والحياء : أمرنا ألا نفارق العقل حيث كان ، فانحاز إليه والعقل عقلان : عقل غريزة ، وهو أب العلم ومربيه ومثمره . وعقل مكتسب مستفاد ، وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته ، فإذا اجتمعا فى العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، واستقام له أمره ، وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب . وإذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالا منه ، وإذا انفرد انتقص الرجل بنقصان أحدهما ، ومن الناس من يرجح صاحب العقل الغريزى ، ومنهم من يرجح صاحب العقل المكتسب .

والتحقيق : أن صاحب العقل الغريزى الذى لا علم ولا تجربة عنده ، آفته التى يؤتى منها الإحجام ، وترك انتهاز الفرصة ؛ لأن عقله يعقله عن انتهاز الفرصة لعدم علمه بها وصاحب العقل المكتسب يؤتى من الإقدام ، فإن علمه بالفرص وطرقها يلقيه على المبادرة إليها ، وعقله الغريزى لا يطيق رده عنه ، فهو غالبا يؤتى من إقدامه والأول من إحجامه ، فإذا رزق العقل الغريزى عقلا إيمانيا مستفادا من مشكاة النبوة لا عقلا معيشيا نفاقيا ، يظن أربابه أنهم على شىء ، ألا إنهم هم الكاذبون ، فإنهم يرون العقل أن يرضوا الناس على طبقاتهم ، ويسالموهم ويستجلبوا مودتهم ومحبتهم ، وهذا مع أنه لا سبيل إليه فهو إيثار للراحة والدعة ومؤونة الأذى فى الله والموالاة فيه والمعاداة فيه ، وهو وإن كان أسلم عاجلة فهو الهلك فى الآجلة ، فإنه ماذاق طعم الإيمان من لم يوال فى الله ويعاد فيه ، فالعقل كل العقل ما أوصل إلى رضا الله ورسوله ، والله الموفق المعين .

وفى حديث مرفوع ذكره ابن عبد البر وغيره : « أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل : قل لفلان العابد : أما زهدك فى الدنيا فقد تعجلت به الراحة ، وأما انقطاعك إلى فقد اكتسبت به العز ، فما عملت فيما لى عليك ؟ قال : وما لك على ؟ قال : هل واليت فى وليا ؟ أو عاديت فى عدوا ؟ »[1] وذكر أيضا : « أنه أوحى الله إلى جبريل أن اخسف بقرية كذا وكذا ، قال : يارب ، إن فيهم فلانا العابد ، قال : به فابدأ ، إنه لم يتمعر وجهه فى يوما قط » .

الوجه الحادى والتسعون : حديث ابن عمر عن النبى ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » ، قالوا : يا رسول الله ، وما رياض الجنة ؟ قال : « حلق الذكر ، فإن لله

(١) التمهيد لابن عبد البر (١٦ / ٤١ ، ٤٢) .

سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر ، فإذا أتوا عليهم صفوا بهم » [١] . قال عطاء : مجالس الذكر مجالس الحلال والحرام ، كيف يشترى ويبيع ، ويصوم ويصلى ويتصدق ، وينكح ويطلق ، ويحج . ذكره الخطيب فى كتاب (الفقيه والمتفقه) .

الوجه الثانى والتسعون : ما رواه الخطيب أيضا عن ابن عمر يرفعه : « مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة » [٢] ، وفى رفعه نظر .

الوجه الثالث والتسعون : ما رواه أيضا من حديث عبد الرحمن بن عوف يرفعه : « يسير الفقه خير من كثير من العبادة » [٣] ، ولا يثبت رفعه .

الوجه الرابع والتسعون : ما رواه أيضا من حديث أنس يرفعه : « فقيه أفضل عند الله من ألف عابد » [٤] .وهو فى الترمذى من حديث روح ابن جناح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا [٥]،وفى ثبوتهما مرفوعين نظر ، والظاهر أن هذا من كلام الصحابة فمن دونهم .

الوجه الخامس والتسعون : ما رواه أيضا عن ابن عمر يرفعه : « أفضل العبادة الفقه » [٦].

الوجه السادس والتسعون : ما رواه أيضا من حديث نافع عن ابن عمر يرفعه : « ما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى دين » [٧] .

الوجه السابع والتسعون : ما رواه عن على أنه قال : العالم أعظم أجرا من الصائم القائم الغازى فى سبيل الله .

الوجه الثامن والتسعون : ما رواه المخلص عن صاعد: حدثنا القاسم بن الفضيل بن بزيع ،حدثنا حجاج بن نصير ،حدثنا هلال بن عبد الرحمن الجعفى ،عن عطاء بن أبى ميمونة ، عن أبى هريرة وأبى ذر أنهما قالا :باب من العلم يتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعا ،وباب من العلم نعلمه عمل به أو لم يعمل ، أحب إلينا من مائة ركعة تطوعا . وقالا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول : « إذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال

---

(١) الترمذى (٣٥١٠) فى الدعوات ، باب:(٨٣) ، وقال:« حسن غريب » ،وحسنه الألبانى، وأحمد (٣/ ١٥٠) .

(٢) انظر الفقيه والمتفقه للخطيب (١ / ١٤) ، وتنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة (١ / ٢٧٨) .

(٣) الفقيه والمتفقه للخطيب (١ / ١٤ ، ١٥) .

(٤) الفقيه والمتفقه للخطيب (١ / ١٨) .

(٥) الترمذى (٢٦٨١) فى العلم ، باب : ماجاء فى فضل الفقه على العباد ، وقال : « غريب » ، وقال الألبانى : « موضوع » .

(٦ ، ٧) الفقيه والمتفقه للخطيب (١ / ٢١) .

مات شهيدا » (١) . ورواه ابن أبى داود عن شاذان عن حجاج به . قلت : وشاهده مامر من حديث الترمذى عن أنس يرفعه : « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » (٢) .

الوجه التاسع والتسعون : ما رواه الخطيب أيضا عن أبى هريرة قال : لأن أعلم باب من العلم فى أمر أو نهى ، أحب إلى من سبعين غزوة فى سبيل الله . وهذا إن صح فمعناه : أحب إلى من سبعين غزوة بلا علم ؛ لأن العمل بلا علم فساد أكثر من صلاحه ، أو يريد علما يتعلمه ويعلمه ، فيكون له أجر من عمل به إلى يوم القيامة ، وهذا لا يحصل فى الغزو المجرد .

الوجه المائة : ما رواه الخطيب أيضا عن أبى الدرداء : أنه قال : مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة .

الوجه الحادى والمائة : ما رواه عن الحسن قال : لأن أتعلم باب من العلم فأعلمه مسلما ، أحب إلى من أن يكون لى الدنيا فى سبيل الله .

الوجه الثانى والمائة : قال مكحول : ما عبد الله بأفضل من الفقه .

الوجه الثالث والمائة : قال سعيد بن المسيب : ليست عبادة الله بالصوم والصلاة ، ولكن بالفقه فى دينه . وهذا الكلام يراد به أمران : أحدهما : أنها ليست بالصوم والصلاة الخاليين عن العلم ، ولكن بالفقه الذى يعلم به كيف الصوم والصلاة . والثانى : أنها ليست الصوم والصلاة فقط بل الفقه فى دينه من أعظم عباداته .

الوجه الرابع والمائة : قال إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة : أقرب الناس من درجة النبوة العلماء وأهل الجهاد ، والعلماء دلوا الناس على ما جاءت به الرسل . وقد تقدم الكلام فى تفضيل العالم على الشهيد وعكسه .

الوجه الخامس والمائة : قال سفيان بن عيينة : أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده ، وهم الرسل والعلماء .

الوجه السادس والمائة : قال محمد بن شهاب الزهرى : ما عبد الله بمثل الفقه . وهذا الكلام ونحوه يراد به : أنه ما يعبد الله بمثل أن يتعبد بالفقه فى الدين ، فيكون نفس التفقه عبادة . كما قال معاذ بن جبل : عليكم بالعلم ، فإن طلبه لله عبادة ، وسيأتى إن شاء الله ذكر كلامه بتمامه . وقد يراد به أنه ما عبد الله بعبادة أفضل من عبادة يصحبها الفقه فى

---

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب (١ / ١٦)، وهو ضعيف كشاهده .

(٢) الترمذى (٢٦٤٧) فى العلم ، باب : فضل طلب العلم ، وقال : « حسن غريب » ، وضعفه الألبانى .

الدين ؛ لعلم الفقيه فى دينه بمراتب العبادات ومفسداتها وواجباتها وسننها وما يكملها وما ينقصها ، وكلا المعنيين صحيح .

الوجه السابع والمائة : قال سهل بن عبد الله التسترى : من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء . وهذا لأن العلماء خلفاء الرسل فى أممهم ووارثوهم فى علمهم ، فمجالسهم مجالس خلافة النبوة .

الوجه الثامن والمائة : أن كثيرا من الأئمة صرحوا بأن أفضل الأعمال بعد الفرائض طلب العلم . فقال الشافعى: ليس شىء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم ،وهذا الذى ذكر أصحابه عنه أنه مذهبه ،وكذلك قال سفيان الثورى وحكاه الحنفية عن أبى حنيفة .

وأما الإمام أحمد فحكى عنه ثلاث روايات : إحداهن : أنه العلم ، فإنه قيل له : أى شىء أحب إليك أجلس بالليل أنسخ أو أصلى تطوعا ؟ قال : نسخك تعلم به أمور دينك فهو أحب إلى . وذكر الخلال عنه فى كتاب العلم نصوصا كثيرة فى تفضيل العلم ، ومن كلامه فيه: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب ، وقد تقدم . والرواية الثانية: أن أفضل الأعمال بعد الفرائض صلاة التطوع ، واحتج لهذه الرواية بقوله ﷺ : «واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة » (١) ، وبقوله فى حديث أبى ذر وقد سأله عن الصلاة فقال :« خير موضوع » (٢) ،وبأنه أوصى من سأله موافقته فى الجنة بكثرة السجود وهو الصلاة (٣) ،وكذلك قوله فى الحديث الآخر : « عليك بكثرة السجود ، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ،وحط عنك بها خطيئة » (٤) ،وبالأحاديث الدالة على تفضيل الصلاة . والرواية الثالثة : أنه الجهاد ، فإنه قال : لا أعدل بالجهاد شيئا ، ومن ذا يطيقه ؟ ولا ريب أن أكثر الأحاديث فى الصلاة والجهاد .

وأما مالك ، فقال ابن القاسم : سمعت مالكا يقول : إن أقواما ابتغوا العبادة وأضاعوا العلم ، فخرجوا على أمة محمد ﷺ بأسيافهم ، ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك . قال مالك : وكتب أبو موسى الأشعرى إلى عمر بن الخطاب : أنه قرأ القرآن عندنا

---

(١) ابن ماجه (٢٧٩) فى الطهارة ، باب : المحافظة على الوضوء ، وفى الزوائد : « إسناده ضعيف لضعف التابع » ، ومالك فى الموطأ (١ / ٣٤) (٣٦) فى الطهارة ، باب : جامع الوضوء ، وضعفه الألبانى .

(٢) أحمد (٥ / ١٧٨ ، ١٧٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ١٦٤ ، ١٦٥) فى العلم ، باب السؤال للانتفاع وإن كثر : « فيه المسعودى وهو ثقة ولكنه اختلط » ، والحاكم فى المستدرك (٢ / ٥٩٧) فى التاريخ ، وقال الذهبى : « السعدى ليس بثقة » ، وسكت عنه الحاكم .

(٣) مسلم (٤٨٩ / ٢٢٦) فى الصلاة ، باب : فضل السجود والحث عليه .

(٤) مسلم (٤٨٨ / ٢٢٥) فى الصلاة ، باب : فضل السجود والحث عليه .

عدد كذا وكذا . فكتب إليه عمر : أن أفرض لهم من بيت المال ، فلما كان فى العام الثانى كتب إليه : أنه قد قرأ القرآن عندنا عدد كثير لأكثر من ذلك . فكتب إليه عمر : أن امحهم من الديوان ، فإنى أخاف من أن يسرع الناس فى القرآن أن يتفقهوا فى الدين فيتأولوه على غير تأويله . وقال ابن وهب كنت بين يدى مالك بن أنس ، فوضعت ألواحى وقمت إلى الصلاة ، فقال : ما الذى قمت إليه بأفضل من الذى تركته .

قال شيخنا وهذه الأمور الثلاثة التى فضل كل واحد من الأئمة بعضها وهى الصلاة والعلم والجهاد ، هى التى قال فيها عمر بن الخطاب ﷺ : لولا ثلاث فى الدنيا لما أحببت البقاء فيها : لولا أن أحمل أو أجهز جيشا فى سبيل الله ، ولولا مكابدة هذا الليل ، ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتفى أطايب التمر لما أحببت البقاء . فالأول : الجهاد ، والثانى : قيام الليل ، والثالث : مذاكرة العلم ، فاجتمعت فى الصحابة بكمالهم وتفرقت فيمن بعدهم .

الوجه التاسع والمائة : ما ذكره أبو نعيم وغيره عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ : أنه قال : « فضل العلم خير من نفل العمل ، وخير دينكم الورع »(١) وقد روى هذا مرفوعا من حديث عائشة ﷺ . وفى رفعه نظر ، وهذا الكلام هو فصل الخطاب فى هذه المسألة ، فإنه إذا كان كل من العلم والعمل فرضا فلابد منهما كالصوم والصلاة ، فإذا كانا فضلين ـ وهما النفلان المتطوع بهما ـ ففضل العلم ونفله خير من فضل العبادة ونفلها ؛ لأن العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه ، والعبادة يختص نفعها بصاحبها ؛ ولأن العلم تبقى فائدته وعلمه بعد موته ، والعبادة تنقطع عنه ، ولما مر من الوجوه السابقة .

الوجه العاشر بعد المائة : ما رواه الخطيب وأبو نعيم وغيرهما عن معاذ بن جبل ﷺ قال : تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يحسنه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، به يعرف الله ويعبد ، وبه يوحد ،وبه يعرف الحلال من الحرام ، وتوصل الأرحام ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على السراء ، والمعين على الضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواما ، فيجعلهم فى الخير قادة وسادة ، يقتدى بهم أدلة فى الخير ، تقتص آثارهم ، وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة فى

---

(١) الحاكم فى المستدرك (١ / ٩٣) ، ومجمع الزوائد للهيثمى (١ / ١٢٥) فى العلم ، باب : فضل العلم ، وقال: « رواه الطبرانى فى الأوسط والبزار ، وفيه عبد الله بن عبد القدوس وثقه البخارى وابن حبان ، وضعفه ابن معين » ، وقال ابن الجوزى فى العلل المتناهية رقم (٧٦) : « هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ » .

خلتهم ، وبأجنحتهم تمسحهم ، يستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ، والعلم حياة القلوب من العمى ، ونور للأبصار من الظلم ، وقوة للأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ، التفكر فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، وهو إمام للعمل والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء . هذا الأثر معروف عن معاذ ، ورواه أبو نعيم فى المعجم من حديث معاذ مرفوعا إلى النبى ﷺ ولا يثبت ، وحسبه أن يصل إلى معاذ .

الوجه الحادى عشر بعد المائة : ما رواه يونس بن عبد الأعلى عن ابن أبى فديك : حدثنى عمرو بن كثير ، عن أبى العلاء ، عن الحسن ، عن رسول الله ﷺ قال : « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام فبينه وبين الأنبياء فى الجنة درجة النبوة » (١) . وقد روى من حديث على بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ . وهذا وإن كان لا يثبت إسناده فلا يبعد معناه من الصحة ، فإن أفضل الدرجات النبوة ، وبعدها الصديقية ، وبعدها الشهادة ، وبعدها الصلاح . وهذه الدرجات الأربع التى ذكرها الله تعالى فى كتابه فى قوله : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء] ، فمن طلب العلم ليحيى به الإسلام فهو من الصديقين ، ودرجته بعد درجة النبوة .

الوجه الثانى عشر بعد المائة : قال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً** ﴾ هى العلم والعبادة ﴿ **وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً** ﴾ [البقرة : ٢٠١] هى الجنة ، وهذا من أحسن التفسير ، فإن أجل حسنات الدنيا العلم النافع والعمل الصالح .

الوجه الثالث عشر بعد المائة : قال ابن مسعود : عليكم بالعلم قبل أن يرفع ، ورفعه هلاك العلماء ، فوالذى نفسى بيده ليودن رجال قتلوا فى سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء ؛ لما يرون من كرامتهم ، وإن أحدا لم يولد عالما ، وإنما العلم بالتعلم .

الوجه الرابع عشر بعد المائة : قال ابن عباس وأبو هريرة وبعدهما أحمد بن حنبل : تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلينا من إحيائها .

الوجه الخامس عشر بعد المائة : قال عمر رضي الله عنه : أيها الناس ، عليكم بالعلم ، فإن لله ـ سبحانه ـ رداء يحبه ، فمن طلب بابا من العلم رداه الله بردائه ، فإن أذنب ذنبا استعتبه لئلا يسلبه رداءه ذلك حتى يموت به . قلت : ومعنى استعتاب الله عبده : أن يطلب منه أن يعتبه ، أى يزيل عتبه عليه بالتوبة والاستغفار والإنابة ، فإذا أناب إليه رفع عنه عتبه فيكون

(١) الدارمى (١ / ١٠٠) فى العلم ، باب : فضل العلم والعالم .

قد أعتب ربه ، أى أزال عتبه عليه ، والرب تعالى قد استعتبه ؛ أى طلب منه أن يعتبه . ومن هذا قول ابن مسعود ـ وقد وقعت زلزلة بالكوفة : إن ربكم يستعتبكم فاعتبوه . وهذا هو الاستعتاب الذى نفاه ـ سبحانه ـ فى الآخرة فى قوله : ﴿ **فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** ﴿٣٥﴾ ﴾ [الجاثية] أى لا نطلب منهم إزالة عتبنا عليهم ، فإن إزالته إنما تكون بالتوبة وهى لا تنفع فى الآخرة ، وهذا غير استعتاب العبودية كما فى قوله تعالى : ﴿ **فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [فصلت] فهذا معناه : أن يطلبوا إزالة عتبنا عليهم والعفو ﴿ **فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ** ﴾ أى ماهم ممن يزال العتب عليهم ، وهذا الاستعتاب ينفع فى الدنيا دون الآخرة .

الوجه السادس عشر بعد المائة : قال عمر ﷺ : موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . ووجه قول عمر : أن هذا العالم يهدم على إبليس كل ما يبنيه بعلمه وإرشاده ، وأما العابد فنفعه مقصور على نفسه .

الوجه السابع عشر بعد المائة : قول بعض السلف : إذا أتى علىَّ يوم لاأزداد فيه علما يقربنى إلى الله ، فلا بورك لى فى شمس ذلك اليوم . وقد رفع هذا إلى رسول الله ﷺ ، ورفعه إليه باطل ، وحسبه أن يصل إلى واحد من الصحابة أو التابعين . وفى مثله قال القائل : إذا مر بى يوم ولم أستفد هدى ولم أكتسب علما فما ذلك من عمرى .

الوجه الثامن عشر بعد المائة : قال بعض السلف: الإيمان عريان ، ولباسه التقوى ، وزينته الحياء ، وثمرته العلم . وقد رفع هذا أيضا ،ورفعه باطل .

الوجه التاسع عشر بعد المائة : إنه فى بعض الآثار : بين العالم والعابد مائة درجة ، بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة . وقد رفع هذا أيضا ، وفى رفعه نظر .

الوجه العشرون بعد المائة : ما رواه حرب فى مسائله مرفوعا إلى النبى ﷺ : « يجمع الله تعالى العلماء يوم القيامة ، ثم يقول : يا معشر العلماء ، إنى لم أضع علمى فيكم إلا لعلمى بكم ، ولم أضع علمى فيكم لأعذبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم » [1] . وهذا وإن كان غريبا فله شواهد حسان .

الوجه الحادى والعشرون بعد المائة : قول ابن المبارك ـ وقد سئل : من الناس ؟ قال :

---

(١) انظر : الدر المنثور (١ / ٣٥٠) وعزاه للطبرانى ، والترغيب والترهيب للمنذرى (١ / ١٠١) وعزاه للطبرانى فى الكبير وقال : « رواته ثقات » .

العلماء . قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد . قيل : فمن السفلة ؟ قال : الذى يأكل بدينه .

الوجه الثانى والعشرون بعد المائة : أن من أدرك العلم لم يضره مافاته بعد إدراكه ، إذ هو أفضل الحظوظ والعطايا ، ومن فاته العلم لم ينفعه ما حصل له من الحظوظ ، بل يكون وبالا عليه وسببا لهلاكه . وفى هذا قال بعض السلف : أى شىء أدرك من فاته العلم وأى شىء فاته من أدرك العلم ! .

الوجه الثالث والعشرون بعد المائة : قال بعض العارفين : أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت ؟ قالوا : بلى ، قالوا : فكذلك القلب إذا منع عنه العلم والحكمة ثلاثة أيام يموت . وصدق ، فإن العلم طعام القلب وشرابه ودواؤه ، وحياته موقوفة على ذلك ، فإذا فقد القلب العلم فهو موت ولكن لا يشعر بموته ، كما أن السكران الذى قد زال عقله ، والخائف الذى قد انتهى خوفه إلى غايته ، والمحب والمفكر قد يبطل إحساسهم بألم الجراحات فى تلك الحال ، فإذا صحوا وعادوا إلى حال الاعتدال أدركوا آلامها ، وهكذا العبد ، إذا حط عنه الموت أحمال الدنيا وشواغلها اختص بهلاكه وخسرانه .

فحتام لا تصحو وقد قرب المـــدى وحتام لا ينجاب عن قلبك السكر

بل سوف تصحو حين ينكشف الغطا وتذكر قولى حين لا ينفع الذكـر

فإذا كشف الغطاء ، وبرح الخفاء ، وبليت السرائر ، وبدت الضمائر ، وبعثر مافى القبور ، وحصل مافى الصدور ، فحينئذ يكون الجهل ظلمة على الجاهلين ، والعلم حسرة على الباطلين .

الوجه الرابع والعشرون بعد المائة : قال أبو الدرداء : من رأى أن الغدو إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص فى رأيه وعقله . وشاهد هذا قول معاذ ، وقد تقدم .

الوجه الخامس والعشرون بعد المائة : قول أبى الدرداء أيضا : لأن أتعلم مسألة أحب إلى من قيام ليلة .

الوجه السادس والعشرون بعد المائة : قوله أيضا : العالم والمتعلم شريكان فى الأجر ، وسائر الناس همج لا خير فيهم .

الوجه السابع والعشرون بعد المائة : ما رواه أبو حاتم بن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيرا أو ليعلمه كان كالمجاهد فى سبيل الله ، ومن دخل لغير ذلك كان كالناظر إلى ما ليس له »[1] .

---

(١) ابن حبان (٨٧) فى العلم ، باب : ذكر التسوية بين طالب العلم ومعلمه وبين المجاهد فى سبيل الله .

الوجه الثامن والعشرون بعد المائة : ما رواه أيضا فى صحيحه من حديث الثلاثة الذين انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو جالس فى حلقة ، فأعرض أحدهم ، واستحى الآخر فجلس خلفهم ، وجلس الثالث فى فرجة فى الحلقة ، فقال النبى ﷺ : « أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه » (١) . فلو لم يكن لطالب العلم إلا أن الله يؤويه إليه ولا يعرض عنه لكفى به فضلا .

الوجه التاسع والعشرون بعد المائة : ما رواه كميل بن زياد النخعى قال : أخذ على ابن أبى طالب رضي الله عنه بيدى فأخرجنى ناحية الجبانة ، فلما أصحر جعل يتنفس ، ثم قال : يا كميل بن زياد،القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها ، احفظ عنى ما أقول لك ، الناس ثلاثة : فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ،ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق . العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم يزكو على الإنفاق وفى رواية :على العمل ـ والمال تنقصه النفقة ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، ومحبة العلم دين يدان بها ، العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، وصنيعة المال تزول بزواله مات خزان الأموال وهم أحياء ،والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة . هاه هاه إن ههنا علما ـ وأشار بيده إلى صدره ـ لو أصبت له حملة بل أصبته لقنا غير مأمون عليه يستعمل آلة الدين للدنيا يستظهر حجج الله على كتابه وبنعمه على عباده ، أو منقادا لأهل الحق لا بصيرة له فى أحبائه ، ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة لا ذا ولا ذاك ، أو منهوما للذات سلس القياد للشهوات ، أو مغرى بجمع الأموال والادخار ليسا من دعاة الدين ، أقرب شبها بهم الأنعام السائمة ؛ لذلك يموت العلم بموت حامليه . اللهم بك لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته لكيلا تبطل حجج الله وبيناته ، أولئك الأقلون عددا ، الأعظمون عند الله قيلا ، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم ، ويزرعوها فى قلب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعر منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى ، أولئك خلفاء الله فى أرضه ودعاته إلى دينه . هاه هاه ، شوقا إلى رؤيتهم ، وأستغفر الله لى ولك ، إذا شئت فقم . ذكره أبو نعيم فى الحلية وغيره .

---

(١) ابن حبان (٨٦) فى العلم ، باب : ذكر أمان الله جل وعلا من آوى إلى مجلس علم ونيته فيه صحيحة .

قال أبو بكر الخطيب : هذا حديث حسن من أحسن الأحاديث معنى ،وأشرفها لفظا ، وتقسيم أمير المؤمنين للناس فى أوله تقسيم فى غاية الصحة ونهاية السداد ؛ لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام التى ذكرها مع كمال العقل وإزاحة العلل ؛ إما أن يكون عالما أو متعلما أو مغفلا للعلم ، وطلبه ليس بعالم ولا طالب له ، فالعالم الربانى هو الذى لا زيادة على فضله لفاضل ، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد ، وقد دخل فى الوصف له بأنه ربانى وصفه بالصفات التى يقتضيها العلم لأهله ويمنع وصفه بما خالفها . ومعنى الربانى فى اللغة : الرفيع الدرجة فى العلم ، العالى المنزلة فيه . وعلى ذلك حملوا قوله تعالى : ﴿ **لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ** ﴾ [المائدة : ٦٣] ، وقوله : ﴿ **كُونُوا رَبَّانِيِّينَ** ﴾ [آل عمران : ٧٩] . قال ابن عباس : حكماء فقهاء . وقال أبو رزين : فقهاء علماء . وقال أبو عمر الزاهد : سألت ثعلبا عن هذا الحرف ، وهو الربانى، فقال : سألت ابن الأعرابى : فقال : إذا كان الرجل عالما عاملا معلما قيل له : هذا ربانى ، فإن خرم عن خصلة منها لم نقل له ربانى .

قال ابن الأنبارى عن النحويين : إن الربانيين منسوبون إلى الرب ، وأن الألف والنون زيدتا للمبالغة فى النسب كما تقول : لحيانى وجبهانى ؛ إذا كان عظيم اللحية والجبهة . وأما المتعلم على سبيل النجاة فهو الطالب بتعلمه ، والقاصد به نجاته من التفريط فى تضييع الفروض الواجبة عليه ، والرغبة بنفسه عن إهمالها وإطراحها ، والأنفة من مجالسة البهائم . ثم قال: وقد نفى بعض المتقدمين عن الناس من لم يكن من أهل العلم . وأما القسم الثالث : فهم المهملون لأنفسهم الراضون بالمنزلة الدنية والحال الخسيسة ، التى هى فى الحضيض الأسقط والهبوط الأسفل ، التى لا منزلة بعدها فى الجهل ولا دونها فى السقوط . وما أحسن ما شبههم بالهمج الرعاع ، وبه يشبه دناة الناس وأراذلهم والرعاع المتبدد المتفرق وللناعق الصائح ، وهو فى هذا الموضع الراعى ، يقال : نعق الراعى بالغنم ينعق إذا صاح بها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١)** ﴾ [البقرة] .

ونحن نشير إلى بعض مافى هذا الحديث من الفوائد :

فقوله ﷺ :القلوب أوعية : يشبه القلب بالوعاء والإناء والوادى ؛ لأنه وعاء للخير والشر . وفى بعض الآثار : إن لله فى أرضه آنية وهى القلوب، فخيرها أرقها وأصلبها وأصفاها ، فهى أوانى مملوءة من الخير وأوانى مملوءة من الشر ،كما قال بعض السلف : قلوب الأبرار تغلى بالبر ، وقلوب الفجار تغلى بالفجور . وفى مثل هذا قيل فى المثل : وكل إناء بالذى فيه ينضح . وقال تعالى : ﴿ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا** ﴾ [الرعد: ١٧]،

شبه العلم بالماء النازل من السماء والقلوب فى سعتها وضيقها بالأودية ، فقلب كبير واسع يسع علما كثيرا كواد كبير واسع يسع ماء كثيرا ، وقلب صغير ضيق يسع علما قليلا كواد صغير ضيق يسع ماء قليلا ؛ ولهذ قال النبى ﷺ: « لا تسموا العنب الكرم ، فإن الكرم قلب المؤمن » فإنهم كانوا يسمون شجر العنب الكرم لكثرة منافعه وخيره ، والكرم كثيرة الخير والمنافع ، فأخبرهم أن قلب المؤمن أولى بهذه التسمية لكثرة مافيه من الخير والمنافع .

وقوله : « فخيرها أوعاها » : يراد به أسرعها وعيا وأثبتها وعيا ، ويراد به أيضا : أحسنها وعيا ، فيكون حسن الوعى الذى هو إيعاء لما يقال له فى قلبه هو سرعته وكثرته وثباته ، والوعاء من مادة الوعى ، فإنه آلة ما يوعى فيه كالغطاء والفراش والبساط ونحوها ، ويوصف بذلك القلب والأذن كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)** ﴾ [الحاقة] . قال قتادة : أذن سمعت ، وعقلت عن الله ما سمعت . وقال الفراء : لتحفظها كل أذن فتكون عظة لمن يأتى بعد . فالوعى توصف به الأذن كما يوصف به القلب ، يقال : قلب واع وأذن واعية ؛ لما بين الأذن والقلب من الارتباط . فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب ، فهى بابه ، والرسول الموصل إليه العلم ، كما أن اللسان رسوله المؤدى عنه ، ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن أحقها أن توصف بالوعى ، وأنها إذا وعت وعى القلب، وفى حديث جابر فى المثل الذى ضربته الملائكة للنبى ﷺ ولأمته وقول الملك له : « اسمع سمعت أذنك ، وعقل قلبك » (١) فلما كان القلب وعاء والأذن مدخل ذلك الوعاء وبابه ، كان حصول العلم موقوفا على حسن الاستماع وعقل القلب ، والعقل هو ضبط ما وصل إلى القلب وإمساكه حتى لا يتفلت منه . ومنه عقل البعير والدابة ، والعقال لما يعقل به ، وعقل الإنسان يسمى عقلا ؛ لأنه يعقله عن اتباع الغى والهلاك ؛ ولهذا يسمى حجرا لأنه يمنع صاحبه كما يمنع الحجر ماحواه ، فعقل الشىء أخص من علمه ومعرفته ؛ لأن صاحبه يعقل ما علمه فلا يدعه يذهب ، كما تعقل الدابة التى يخاف شرودها .

وللإدراك مراتب بعضها أقوى من بعض ؛ فأولها الشعور ، ثم الفهم ، ثم المعرفة ،ثم العلم، ثم العقل . ومرادنا بالعقل المصدر لا القوة الغريزية التى ركبها الله فى الإنسان، فخير القلوب ما كان واعيا للخير ضابطا له ، وليس كالقلب القاسى الذى لا يقبله ، فهذا قلب حجرى ، ولا كالمائع الأخرق الذى يقبل ولكن لا يحفظ ولا يضبط . فتفهيم الأول

---

(١) الترمذى (٢٨٦٠) فى الأمثال ، باب : ما جاء فى مثل الله لعباده ، وقال : « حديث مرسل » ، وقال الألبانى: « ضعيف الإسناد » .

كالرسم فى الحجر ، وتفهيم الثانى كالرسم على الماء ، بل خير القلوب ما كان لينا صلبا يقبل بلينه ما ينطبع فيه ويحفظ صورته بصلابته ، فهذا تفهيمه كالرسم فى الشمع وشبهه .

وقوله : (الناس ثلاثة فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل النجاة ، وهمج رعاع) : هذا تقسيم خاص للناس وهو الواقع ، فإن العبد إما أن تكون قد حصل كماله من العلم والعمل أو لا ، فالأول العالم الربانى ، والثانى إما أن يكون نفسه متحركة فى طلب ذلك الكمال ساعية فى إدراكه أولا ، والثانى هو المتعلم على سبيل النجاة ، الثالث وهو الهمج الرعاع ، فالأول هو الواصل ، والثانى هو الطالب ، والثالث هو المحروم .

والعالم الربانى : قال ابن عباس ﷺ : هو المعلم ، أخذه من التربية ، أى يربى الناس بالعلم ويربيهم به كما يربى الطفل أبوه . وقال سعيد بن جبير : هو الفقيه العليم الحكيم . قال سيبويه : زادوا ألفا ونونا فى الربانى إذا أرادوا تخصيصا بعلم الرب تبارك وتعالى ، كما قالوا : أشعرانى ولحيانى ، ومعنى قول سيبويه ـ رحمه الله: إن هذا العالم لما نسب إلى علم الرب تعالى الذى بعث به رسوله وتخصص به نسب إليه دون سائر من علم علما .

قال الواحدى : فالربانى على قوله منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بعلم الرب ، أى يعلم الشريعة وصفات الرب تبارك وتعالى .وقال المبرد : الربانى الذى يرب العلم ويرب الناس به ، أى يعلمهم ويصلحهم ، وعلى قوله: فالربانى من رب يرب ربا أى يربيه ، فهو منسوب إلى التربية ، يربى علمه ليكمل ويتم بقيامه عليه وتعاهده إياه ، كما يربى صاحب المال ماله ، ويربى الناس به كما يربى الأطفال أولياؤهم . وليس هذا من قوله : ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ** ﴾ [آل عمران : ١٤٦] . فالربيون هنا الجماعات بإجماع المفسرين . قيل : إنه من الربة ـ بكسر الراء ـ وهى الجماعة . قال الجوهرى : الربى واحد الربيين وهم الألوف من الناس ، قال تعالى : ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ** ﴾. ولا يوصف العالم بكونه ربانيا حتى يكون عاملا بعلمه معلما له ، فهذا قسم .

والقسم الثانى : متعلم على سبيل نجاة ، أى قاصدا بعلمه النجاة ، وهو المخلص فى تعلمه ، المتعلم ما ينفعه ، العامل بما علمه ، فلا يكون المتعلم على سبيل نجاة إلا بهذه الأمور الثلاثة ، فإنه إن تعلم ما يضره ولا ينفعه لم يكن على سبيل نجاة ، وإن تعلم ما ينتفع به لا للنجاة فكذلك ، وإن تعلمه ولم يعمل به لم يحصل له النجاة ؛ ولهذا وصفه بكونه على السبيل أى على الطريق التى تنجيه ، وليس حرف على وما عمل فيه متعلقا

بمتعلم إلا على وجه التضمين ، أى مفتش متطلع على سبيل نجاته ، فهذا فى الدرجة الثانية ، وليس ممن تعلمه ليمارى به السفهاء ، أو يجارى به العلماء ، أو يصرف وجوه الناس إليه ، فإن هذا من أهل النار كما جاء فى الحديث وثبته أبو نعيم أيضا . قوله ﷺ :« من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا ، لم يجد رائحة الجنة»(١) . قال : وثبت أيضا قوله ﷺ : « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » (٢). فهؤلاء ليس فيهم من هو على سبيل نجاة بل على سبيل الهلكة ، نعوذ بالله من الخذلان .

القسم الثالث : المحروم المعرض ، فلا عالم ولا متعلم ، بل همج رعاع ، والهمج من الناس حمقاؤهم وجهلتهم ، وأصله من الهمج جمع همجة ، وهو ذباب صغير كالبعوض ، يسقط على وجوه الغنم والدواب وأعينها ، فشبه همج الناس به . والهمج أيضا مصدر ، قال الراجز :

قد هلكت جارتنا من الهمج وإن تجع تأكل عتودا أو ثلج

والهمج هنا مصدر ، ومعناه : سوء التدبير فى أمر المعيشة . وقولهم : همج هامج مثل ليل لايل . والرعاع من الناس : الحمقى الذين لا يعتد بهم .

وقوله : (أتباع كل ناعق) : أى من صاح بهم ودعاهم تبعوه ، سواء دعاهم إلى هدى أو إلى ضلال ، فإنهم لا علم لهم بالذى يدعون إليه أحق هو أم باطل ، فهم مستجيبون لدعوته . وهؤلاء من أضر الخلق على الأديان ، فإنهم الأكثرون عددا ، الأقلون عند الله قدرا ، وهم حطب كل فتنة ، بهم توقد ويشب ضرامها ، فإنها يهتزلها أولو الدين ، ويتولاها الهمج الرعاع . وسمى داعيهم ناعقا تشبيها لهم بالأنعام التى ينعق بها الراعى ، فتذهب معه أين ذهب ، قال تعالى : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ** (١٧١) ﴾ [البقرة] ، وهذا الذى وصفهم به أمير المؤمنين هو من عدم علمهم وظلمة قلوبهم ، فليس لهم نور ولا بصيرة يفرقون بها بين الحق والباطل ، بل الكل عندهم سواء .

وقوله رضي الله عنه : (يميلون مع كل ريح) وفى رواية : (مع كل صائح) : شبه عقولهم الضعيفة بالغصن الضعيف ، وشبه الأهوية والآراء بالرياح . والغصن يميل مع الريح حيث مالت ، وعقول هؤلاء تميل مع كل هوى وكل داع ، ولو كانت عقولا كاملة كانت كالشجرة

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١ / ١٩٠) .

(٢) سبق تخريجه ص (٢٢٤) .

الكبيرة التى لا تتلاعب بها الرياح . وهذا بخلاف المثل الذى ضربه النبى ﷺ للمؤمنين بالخامة من الزرع تفيئه الريح مرة وتقيمه أخرى ، والمنافق كشجرة الأرز التى لا تقطع حتى تستحصد (١) ،فإن هذا المثل ضرب للمؤمن وما يلقاه من عواصف البلاء والأوجاع والأوجال وغيرها ، فلا يزال بين عافية وبلاء ومحنة ومنحة وصحة وسقم وأمن وخوف وغير ذلك ، فيقع مرة ويقوم أخرى ، ويميل تارة ويعتدل أخرى ، فيكفر عنه بالبلاء ، ويمحص به ويخلص من كدره . والكافر كله خبث ، ولا يصلح إلا للوقود ، فليس فى إصابته فى الدنيا بأنواع البلاء من الحكمة والرحمة مافى إصابة المؤمن ، فهذه حال المؤمن فى الابتلاء . وأما مع الأهواء ودعاة الفتن والضلال والبدع فكما قيل :

تزول الجبال الراسيات وقلبه على العهد لا يلوى ولا يتغير

وقوله رحمه الله : (لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق) : بين السبب الذى جعلهم بتلك المثابة ، وهو أنه لم يحصل لهم من العلم نور يفرقون به بين الحق والباطل ، كما قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ** ﴾ [الحديد : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الانعام : ١٢٢] ، وقوله تعالى : ﴿ **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ الآية [المائدة : ١٦] ، وقوله تعالى : ﴿**وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ [الشورى : ٥٢] ، فإذا عدم القلب هذا النور صار بمنزلة الحيران الذى لا يدرى أين يذهب ، فهو لحيرته وجهله بطريق مقصوده يؤم كل صوت يسمعه ، ولم يسكن قلوبهم من العلم ما تمتنع به من دعاة الباطل ، فإن الحق متى استقر فى القلب قوى به وامتنع مما يضره ويهلكه ؛ ولهذا سمى الله الحجة العلمية سلطانا وقد تقدم ذلك ، فالعبد يؤتى من ظلمة بصيرته ومن ضعف قلبه ، فإذا استقر فيه العلم النافع استنارت بصيرته ، وقوى قلبه ، وهذان الأصلان هما قطب السعادة ـ أعنى العلم والقوة ـ وقد وصف بهما ـ سبحانه ـ المعلم الأول جبريل صلوات الله وسلامه عليه فقال : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾** ﴾ [النجم] ، وقال تعالى فى سورة التكوير : ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾** ﴾ [التكوير] ،فوصفه بالعلم والقوة ، وفيه معنى أحسن من هذا ، وهو الأشبه بمراد على رحمه الله وهو : أن هؤلاء ليسوا من أهل البصائر الذين استضاؤوا بنور العلم ولا لجؤوا إلى عالم

(١) مسلم (٩ ٢٨٠٩ / ٥٨) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجرة الأرز ، والترمذى (٢٨٦٦) فى الأمثال ، باب : ما جاء فى مثل المؤمن القارئ للقرآن وغير القارئ .

مستبصر فقلدوه ، ولا متبعين لمستبصر ، فإن الرجل إما أن يكون بصيرا أو أعمى متمسكا ببصير يقوده ، أو أعمى يسير بلا قائد .

وقوله ﷺ :(العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال) : يعنى : أن العلم يحفظ صاحبه ويحميه من موارد الهلكة ومواقع العطب ، فإن الإنسان لا يلقى نفسه فى هلكة إذا كان عقله معه ، ولا يعرضها لمتلف إلا إذا كان جاهلا بذلك لا علم له به ، فهو كمن يأكل طعاما مسموما ، فالعلم بالسم وضرره يحرسه علمه ويمتنع به من أكله ، والجاهل به يقتله جهله ، فهذا مثل حراسة العلم للعالم ، وكذا الطبيب الحاذق يمتنع بعلمه عن كثير ما يجلب له الأمراض والأسقام ، وكذا العالم بمخاوف طريق سلوكه ومعاطبها يأخذ حذره منها فيحرسه علمه من وساوس الهلاك ، وهكذا العالم بالله وبأمره وبعدوه ،ومكائده ومداخله على العبد يحرسه علمه من الشيطان وخطراته ، وإلقاء الشك والريب والكفر فى قلبه ،فهو بعلمه يمتنع من قبول ذلك ، فعلمه يحرسه من الشيطان ، فكلما جاء ليأخذه صاح به حرس العلم والإيمان فيرجع خاسئا خائبا . وأعظم مايحرسه من هذا العدو المبين العلم والإيمان ، فهذا السبب الذى من العبد والله من وراء حفظه وحراسته وكلاءته ، فمتى وكله إلى نفسه طرفة عين تخطفه عدوه .

قال بعض العارفين : أجمع العارفون على أن التوفيق ألا يكلك الله إلى نفسك ، وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلى بينك وبين نفسك .

وقوله : (العلم يزكو على الإنفاق والمال تنقصه النفقة) : العالم كلما بذل علمه للناس وأنفق منه تفجرت ينابيعه ، فازداد كثرة وقوة وظهورا ، فيكتسب بتعليمه حفظ ما علمه ،ويحصل له به علم مالم يكن عنده ، وربما تكون المسألة فى نفسه غير مكشوفة ولا خارجة من حيز الإشكال ، فإذا تكلم بها وعلمها اتضحت له وأضاءت ، وانفتح له منها علوم أخر . وأيضا . فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما علم الخلق من جهالتهم جزاه الله بأن علمه من جهالته ، كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار عن النبى ﷺ أنه قال فى حديث طويل : « وإن الله قال لى: أنفق أنفق عليك » (١) . وهذا يتناول نفقة العلم ، إما بلفظه ، وإما بتنبيهه وإشارته وفحواه . ولزكاء العلم ونحوه طريقان : أحدهما : تعليمه ، والثانى : العمل به ، فإن العمل به أيضا ينميه ويكثره ، ويفتح لصاحبه أبوابه وخباياه .

---

(١) مسلم (٩٩٣ / ٣٦) فى الزكاة ، باب : الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف .

وقوله : (المال تنقصه النفقة) : لا ينافى قول النبى ﷺ : « ما نقصت صدقة من مال » (١) ، فإن المال إذا تصدقت منه وأنفقت ذهب ذلك القدر وخلفه غيره ، وأما العلم فكالقبس من النار ، لو اقتبس منها العالم لم يذهب منها شىء ، بل يزيد العلم بالاقتباس منه ، فهو كالعين التى كلما أخذ منها قوى ينبوعها وجاش معينها .

قوله : (محبة العلم أو العالم دين يدان بها) : لأن العلم ميراث الأنبياء، والعلماء ورثتهم ، فمحبة العلم وأهله محبة لميراث الأنبياء وورثتهم ، وبغض العلم وأهله بغض لميراث الأنبياء وورثتهم ، فمحبة العلم من علامات السعادة،وبغض العلم من علامات الشقاوة . وهذا كله إنما هو فى علم الرسل الذى جاؤوا به وورثوه للأمة ، لا فى كل ما يسمى علما .

وأيضا ، فإن محبة العلم تحمل على تعلمه واتباعه ، وذلك هو الدين ، وبغضه ينهى عن تعلمه واتباعه وذلك هو الشقاء والضلال ، وأيضا فإن الله ـ سبحانه ـ عليم يحب كل عليم ، وإنما يضع علمه عند من يحبه ، فمن أحب العلم وأهله فقد أحب ما أحب الله وذلك مما يدان به .

قوله : (العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته وجميل الأحدوثة بعد مماته يكسبه ذاك) : أى يجعله كسبا له ويورثه إياه ، ويقال: كسبه ذلك عزا وطاعة ، وأكسبه ، لغتان ، ومنه حديث خديجة رضي الله عنها : « إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم » (٢) روى بفتح التاء وضمها ، ومعناه : تكسب المال والغنى ، هذا هو الصواب . وقالت طائفة : من رواه بضمها فذلك من أكسبه مالا وعزا ، ومن رواه بفتحها فمعناه : تكسب أنت المال المعدوم بمعرفتك وحذقك بالتجارة ، ومعاذ الله من هذا الفهم ، وخديجة أجل قدرا من تكلمها بهذا فى هذا المقام العظيم أن تقول لرسول الله ﷺ : أبشر ، فوالله لا يخزيك الله ، إنك تكسب الدرهم والدينار ، وتحسن التجارة ! ومثل هذه التحريفات إنما تذكر لئلا يغتر بها فى تفسير كلام الله ورسوله .

والمقصود : أن قوله :(العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته): أى يجعله مطاعا ؛ لأن الحاجة إلى العلم عامة لكل أحد للملوك فمن دونهم ،فكل أحد محتاج إلى طاعة العالم ، فإنه يأمر بطاعة الله ورسوله فيجب على الخلق طاعته ، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء : ٥٩] ، وفسر أولى الأمر بالعلماء

(١) مسلم (٢٥٨٨ / ٦٩) فى البر والصلة والآداب ، باب : استحباب العفو والتواضع .

(٢) البخارى (٣) فى بدء الوحى ، باب : (٣) ، ومسلم (١٦٠ / ٢٥٢) فى الإيمان ، باب : بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ .

قال ابن عباس : هم الفقهاء والعلماء أهل الدين ، الذين يعلمون الناس دينهم ، أوجب الله تعالى طاعتهم . وهذا قول مجاهد والحسن والضحاك وإحدى الروايتين عن الإمام أحمد . وفسروا بالأمراء وهو قول ابن زيد وإحدى الروايتين عن ابن عباس وأحمد ، والآية تتناولها جميعا ، فطاعة ولاة الأمر واجبة إذا أمروا بطاعة الله ورسوله ، وطاعة العلماء كذلك ، فالعالم بما جاء به الرسول العامل به أطوع فى أهل الأرض من كل أحد ، فإذا مات أحيا الله ذكره ونشر له فى العالمين أحسن الثناء ، فالعالم بعد وفاته ميت وهو حى بين الناس ، والجاهل فى حياته حى وهو ميت بين الناس ، كما قيل :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبـــور

وأرواحهم فى وحشة من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشور

وقال الآخر :

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم وعاش قوم وهم فى الناس أموات

وقال آخر :

وما دام ذكر العبد بالفضل باقيا فذلك حى وهو فى التراب هالك

ومن تأمل أحوال أئمة الإسلام كأئمة الحديث والفقه ، كيف هم تحت التراب وهم فى العالمين كأنهم أحياء بينهم ، لم يفقدوا منهم إلا صورهم ، وإلا فذكرهم وحديثهم والثناء عليهم غير منقطع ، وهذه هى الحياة حقا ، حتى عد ذلك حياة ثانية ، كما قال المتنبى :

ذكر الفتى عيشه الثانى وحاجته مافاته وفضول العيش أشغال

قوله : (وصنيعة المال تزول بزواله) : يعنى : أن كل صنيعة صنعت للرجل من أجل ماله من إكرام ومحبة وخدمة وقضاء حوائج وتقديم واحترام وتولية وغير ذلك ، فإنها هى مراعاة لماله ، فإذا زال ماله وفارقه زالت تلك الصنائع كلها ، حتى إنه ربما لا يسلم عليه من كان يدأب فى خدمته ويسعى فى مصالحه . وقد أكثر الناس من هذا المعنى فى أشعارهم وكلامهم وفى مثل قولهم : من ودك لأمر ملك عند انقضائه ، قاله بعض العرب .

ومن هذا ما قيل : إذا أكرمك الناس لمال أو سلطان فلا يعجبنك ذلك ، فإن زوال الكرامة بزوالهما ، ولكن ليعجبك إن أكرموك لعلم أو دين . وهذا أمر لا ينكر فى الناس ، حتى إنهم ليكرمون الرجل لثيابه ، فإذا نزعها لم ير منهم تلك الكرامة ، وقال مالك : بلغنى أن أبا هريرة دعى إلى وليمة فأتى فحجب ، فرجع فلبس غير تلك الثياب فأدخل ، فلما وضع الطعام أدخل كمه فى الطعام فعوتب فى ذلك ، فقال : إن هذه الثياب هى التى

أدخلت ، فهى تأكل . حكاه ابن مزين الطليطلى فى كتابه ، وهذا بخلاف صنيعة العلم ، فإنها لا تزول أبدا ، بل كل مآلها فى زيادة ، مالم يسلب ذلك العالم علمه ، وصنيعة العلم والدين أعظم من صنيعة المال ؛ لأنها تكون بالقلب واللسان والجوارح ، فهى صادرة عن حب وإكرام لأجل ما أودعه الله تعالى إياه من علمه وفضله به على غيره . وأيضا فصنيعة العلم تابعة لنفس العالم وذاته ، وصنيعة المال تابعة لماله المنفصل عنه . وأيضا فصنيعة المال صنيعة معاوضة ، وصنيعة العلم والدين صنيعة حب وتقرب وديانة . وأيضا فصنيعة المال تكون مع البر والفاجر والمؤمن والكافر ، وأما صنيعة العلم والدين فلا تكون إلا مع أهل ذلك . وقد يراد من هذا أيضا معنى آخر وهو أن من اصطنعت عنده صنيعة بمالك إذا زال ذلك المال وفارقه عدمت صنيعتك عنده ، وأما من اصطنعت إليه صنيعة علم وهدى ، فإن تلك الصنيعة لا تفارقه أبدا ، بل ترى فى كل وقت ، كأنك أسديتها إليه حينئذ .

وقوله:(مات خازن الأموال وهم أحياء) قد تقدم بيانه ، وكذا قوله : (والعلماء باقون ما بقى الدهر) .

وقوله : (أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة) : المراد بأمثالهم صورهم العلمية ووجودهم المثالى ، أى وإن فقدت ذواتهم فصورهم وأمثالهم فى القلوب لا تفارقها ، وهذا هو الوجود الذهنى العلمى ؛ لأن محبة الناس لهم واقتداءهم بهم وانتفاعهم بعلومهم يوجب ألا يزالوا نصب عيونهم وقبلة قلوبهم ، فهم موجودون معهم وحاضرون عندهم وإن غابت عنهم أعيانهم ، كما قيل :

ومن عجب أنى أحن إليهـــم ... وأسأل عنهم من لقيت وهم معى
وتطلبهم عينى وهم فى سوادها ... ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعـى

وقال آخر :

ومن عجب أن يشكو البعد عاشق ... وهل غاب عن قلب المحب حبيب
خيالك فى عينى وذكرك فى فمى ... ومشـــواك فى قلبى فأيـــن تغيب

قوله:(آه ، إن هاهنا علما ـ وأشار إلى صدره): يدل على جواز إخبار الرجل بما عنده من العلم والخير ليقتبس منه ولينتفع به ،ومنه قول يوسف الصديق عليه السلام :﴿ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف] ،فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك ليكثر به ما يحبه الله ورسوله من الخير فهو محمود ، وهذا غير من أخبر بذلك ليتكثر به عند الناس ويتعظم،وهذا يجازيه الله بمقت الناس له وصغره فى عيونهم ، والأول بكثرة فى قلوبهم وعيونهم ،وإنما الأعمال بالنيات . وكذلك إذا أثنى الرجل على نفسه ليخلص بذلك من مظلمة وشر ، أو ليستوفى بذلك حقا له يحتاج فيه إلى التعريف بحاله ، أو ليقطع عنه

أطماع السفلة فيه ، أو عند خطبته إلى من لا يعرف حاله ، والأحسن فى هذا أن يوكل من يعرف به وبحاله ، فإن لسان ثناء المرء على نفسه قصير ، وهو فى الغالب مذموم ، لما يقترن به من الفخر والتعاظم .

ثم ذكر أصناف حملة العلم الذين لا يصلحون لحمله وهم أربعة :

أحدهم : من ليس هو بمأمون عليه وهو الذى أوتى ذكاء وحفظا ولكن مع ذلك لم يؤت ذكاء ، فهو يتخذ العلم الذى هو آلة الدين آلة الدنيا ، يستجلبها به ، ويتوسل بالعلم إليها ، ويجعل البضاعة التى هى متجر الآخرة متجر الدنيا ، وهذا غير أمين على ما حمله من العلم ، ولا يجعله الله إماما فيه قط ؛ فإن الأمين هو الذى لا غرض له ولا إرادة لنفسه إلا اتباع الحق وموافقته ، فلا يدعو إلى إقامة رياسته ولا دنياه . وهذا الذى قد اتخذ بضاعة الآخرة ومتجرها متجرا للدنيا ، قد خان الله ، وخان عباده ، وخان دينه . فلهذا قال : غير مأمون عليه .

وقوله :(يستظهر بحجج الله على كتابه وبنعمه على عباده) : هذه صفة هذا الخائن إذا أنعم الله عليه استظهر بتلك النعمة على الناس،وإذا تعلم علما استظهر به على كتاب الله . ومعنى (استظهاره بالعلم على كتاب الله): تحكيمه عليه وتقديمه وإقامته دونه ، وهذه حال كثير ممن يحصل له علم ، فإنه يستغنى به ويستظهر به ويحكمه ، ويجعل كتاب الله تبعا له، يقال :استظهر فلان على كذا بكذا : أى ظهر عليه به وتقدم ،وجعله وراء ظهره .وليست هذه حال العلماء ، فإن العالم ـ حقا ـ يستظهر بكتاب الله على كل ما سواه، فيقدمه ويحكمه ،ويجعله عيارا على غيره مهيمنا عليه،كما جعله الله تعالى كذلك،فالمستظهر به موفق سعيد ، والمستظهر عليه مخذول شقى ، فمن استظهر على الشىء فقد جعله خلف ظهره مقدما عليه ما استظهر به ، وهذا حال من اشتغل بغير كتاب الله عنه، واكتفى بغيره منه ، وقدم غيره وأخره .

والصنف الثانى : من حملة العلم المنقاد الذى لم يثلج له صدره ولم يطمئن به قلبه ، بل هو ضعيف البصيرة فيه ، لكنه منقاد لأهله ، وهذه حال أتباع الحق من مقلديهم . وهؤلاء وإن كانوا على سبيل نجاة ، فليسوا من دعاة الدين ، وإنما هم من مكثرى سواد الجيش ، لا من أمرائه وفرسانه .

وقوله : (ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة): هذا لضعف علمه وقلة بصيرته ، إذا وردت على قلبه أدنى شبهة قدحت فيه الشك والريب بخلاف الراسخ فى العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ما أزالت يقينه ولا قدحت فيه شكا ؛ لأنه

قد رسخ فى العلم فلا تستفزه الشبهات ، بل إذا وردت عليه ردها حرس العلم وجيشه مغلولة مغلوبة . والشبهة وارد يرد على القلب ، يحول بينه وبين انكشاف الحق له ، فمتى باشر القلب حقيقة العلم لم تؤثر تلك الشبهة فيه ، بل يقوى علمه ويقينه بردها ومعرفة بطلانها ، ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبه قدحت فيه الشك بأول وهلة ، فإن تداركها وإلا تتابعت على قلبه أمثالها حتى يصير شاكا مرتابا . والقلب يتوارده جيشان من الباطل ؛ جيش شهوات الغى ، وجيش شبهات الباطل ، فأيما قلب صغا إليها وركن إليها تشربها وامتلأ بها ، فينضح لسانه وجوارحه بموجبها ، فإن أشرب شبهات الباطل تفجرت على لسانه الشكوك والشبهات والإيرادات ، فيظن الجاهل أن ذلك لسعة علمه ، وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه .

وقال لى شيخ الإسلام رحمه الله ـ وقد جعلت أورد عليه إيرادا بعد إيراد : لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضج إلا بها ، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة ، تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها ، فيراها بصفائه ، ويدفعها بصلابته ، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقرا للشبهات ، أو كما قال . فما أعلم أنى انتفعت بوصية فى دفع الشبهات كانتفاعى بذلك . وإنما سميت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها ، فإنها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل . وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر ، فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس فيعتقد صحتها . وأما صاحب العلم واليقين فإنه لا يغتر بذلك ، بل يجاوز نظره إلى باطنها وما تحت لباسها فينكشف له حقيقتها . ومثال هذا : الدرهم الزائف ، فإنه يغتر به الجاهل بالنقد ، نظرا إلى ما عليه من لباس الفضة . والناقد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك فيطلع على زيفه ، فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف والمعنى كالنحاس الذى تحته . وكم قد قتل هذا الاعتذار من خلق لا يحصيهم إلا الله .

وإذا تأمل العاقل الفطن هذا القدر وتدبره ، رأى أكثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ ويردها بعينها بلفظ آخر . وقد رأيت أنا من هذا فى كتب الناس ما شاء الله ، وكم رد من الحق بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح . وفى مثل هذا قال أئمة السنة ، منهم الإمام أحمد وغيره : لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة شنعت . فهؤلاء الجهمية يسمون إثبات صفات الكمال لله من حياته وعلمه وكلامه وسمعه وبصره وسائر ما وصف به نفسه تشبيها وتجسيما ، ومن أثبت ذلك مشبها فلا ينفر من هذا المعنى الحق لأجل هذه التسمية الباطلة إلا العقول الصغيرة القاصرة خفافيش البصائر ، وكل أهل نحلة ومقالة يكسون نحلتهم ومقالتهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ ، ومقالة مخالفيهم أقبح ما يقدرون

عليه من الألفاظ ، ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف بها حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل ، ولا تغتر باللفظ . كما قيل فى هذا المعنى :

تقول هذا جنى النحل تمدحـــه وإن نشأ قلت ذا قيء الزنابير

مدحا وذما وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتريه ســوء تعبير

فإذا أردت الاطلاع على كنه المعنى : هو حق أو باطل ؟ فجرده من لباس العبارة ، وجرد قلبك عن النفرة والميل ، ثم أعط النظر حقه ، ناظرا بعين الإنصاف ، ولا تكن ممن ينظر فى مقالة أصحابه ومن يحسن ظنه نظرا تاما بكل قلبه ، ثم ينظر فى مقالة خصومه ، وممن يسيء ظنه به كنظر الشزر والملاحظة ، فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوئ والناظر بعين المحبة عكسه ، وما سلم من هذا إلا من أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق . وقد قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويـا

وقال آخر :

نظـــروا بعين عداوة لـــو أنها عين الرضا لا ستحسنوا ما استقبحوا

فإذا كان هذا فى نظر العين الذى يدرك المحسوسات ولا يتمكن من المكابرة فيها ، فما الظن بنظر القلب الذى يدرك المعانى التى هى عرضة المكابرة . والله المستعان على معرفة الحق وقبوله ، ورد الباطل وعدم الاغترار به .

وقوله :(بأول عارض من شبهة): هذا دليل ضعف عقله ومعرفته ، إذ تؤثر فيه البداآت ،ويستفز بأوئل الأمور ، بخلاف الثابت التام العاقل ، فإنه لا تستفزه البداآت ، ولا تزعجه وتقلقله، فإن الباطل له دهشة وروعة فى أوله ، فإذا ثبت له القلب رد على عقبيه ، والله يحب من عنده العلم والأناة فلا يعجل ، بل يثبت حتى يعلم ويستيقن ما ورد عليه ، ولا يعجل بأمر من قبل استحكامه ، فالعجلة والطيش من الشيطان ، فمن ثبت عند صدمة البداآت استقبل أمره بعلم وجزم ،ومن لم يثبت لها استقبله بعجلة وطيش وعاقبته الندامة ، وعاقبة الأول حمد أمره ، ولكن للأول آفة متى قرنت بالحزم والعزم نجا منها وهى الفوت ، فإنه لا يخاف من التثبيت إلا الفوت ، فإذا اقترن به العزم والحزم تم أمره ؛ ولهذا فى الدعاء الذى رواه الإمام أحمد والنسائى عن النبى ﷺ : « اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر ، والعزيمة على الرشد » (١) .وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح وما أتى العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما ، فما أتى أحد إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداآت

(١) النسائى (١٣٠٤) فى السهو ، باب : نوع آخر من الدعاء ، وأحمد ٤ / ١٢٤ ، ١٢٥ ، وضعفه الألبانى .

له ، أو من باب التهاون والتمات وتضييع الفرصة بعد مواتاتها ، فإذا حصل الثبات أولا والعزيمة ثانيا أفلح كل الفلاح ، والله ولى التوفيق .

الصنف الثالث : رجل نهمته فى نيل لذته ،فهو منقاد لداعى الشهوة أين كان ،ولا ينال درجة ورائة النبوة مع ذلك ،ولا ينال العلم إلا بهجر اللذات وتطليق الراحة .قال مسلم فى صحيحه : قال يحيى بن أبى كثير:لا ينال العلم براحة الجسم . وقال إبراهيم الحربى : أجمع عقلاء كل أمة أن النعيم لا يدرك بالنعم ،ومن آثر الراحة فاتته الراحة ، فما لصاحب اللذات وما لدرجة ورائة الأنبياء !

فدع عنك الكتابة لست منها ولو سودت وجهك بالمداد

فإن العلم صناعة القلب وشغله ، فما لم تتفرغ لصناعته وشغله لم تنلها وله وجهة واحدة ، فإذا وجهت وجهته إلى اللذات والشهوات انصرفت عن العلم ، ومن لم يغلب لذة إدراكه العلم وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه لم ينل درجة العلم أبدا ، فإذا صارت شهوته فى العلم ولذته فى كل إدراكه رجى له أن يكون من جملة أهله . ولذة العلم لذة عقلية روحانية من جنس لذة الملائكة ، ولذة شهوات الأكل والشراب والنكاح لذة حيوانية يشارك الإنسان فيها الحيوان ، ولذة الشر والظلم والفساد والعلوى فى الأرض شيطانية يشارك صاحبها فيها إبليس وجنوده . وسائر اللذات تبطل بمفارقة الروح البدن إلا لذة العلم والإيمان ، فإنها تكمل بعد المفارقة ؛ لأن البدن وشواغله كان ينقصها ويقللها ويحجبها ، فإذا انطوت الروح عن البدن التذت لذة كاملة بما حصلته من العلم النافع والعمل الصالح ، فمن طلب اللذة العظمى وآثر النعيم المقيم فهو فى العلم والإيمان اللذين بهما كمال سعادة الإنسان ، وأيضا فإن تلك اللذات سريعة الزوال ، وإذا انقضت أعقبت هما وغما ، وألا يحتاج صاحبها أن يداويه بمثلها دفعا لألمه ، وربما كان معاودته لها مؤلما له كريها إليه ، لكن يحمله عليه مدواة ذلك الغم والهم ، فأين هذا من لذة العلم ولذة الإيمان بالله ومحبته والإقبال عليه والتنعم بذكره ، فهذه هى اللذة الحقيقية .

الصنف الرابع : من حرصه وهمته فى جمع الأموال وتثميرها وادخارها ، فقد صارت لذته فى ذلك وفنى بها عما سواه ، فلا يرى شيئا أطيب له مما هو فيه ، فمن أين هذا ودرجة العلم ؟

فهؤلاء الأصناف الأربعة ليسوا من دعاة الدين ولا من أئمة العلم ، ولا من طلبته الصادقين فى طلبه . ومن تعلق منهم بشىء منه فهو من المتسلقين عليه المتشبهين بحملته وأهله ، المدعين لوصاله المبتوتين من حباله . وفتنة هؤلاء فتنة لكل مفتون ، فإن الناس

يتشبهون بهم لما يظنون عندهم من العلم ، ويقولون : لسنا خيرا منهم ، ولا نرغب بأنفسنا عنهم ، فهم حجة لكل مفتون ؛ ولهذا قال فيهم بعض الصحابة الكرام : احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .

وقوله : (أقرب شبها بهم الأنعام السائمة) : وهذا التشبيه مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤) ﴾ [الفرقان] فما أقصر ـ سبحانه ـ على تشبيههم بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلا منهم . والسائمة : الراعية . وشبه أمير المؤمنين هؤلاء بها لأن همتهم فى سعى الدنيا وحطامها ، والله تعالى يشبه أهل الجهل والغى تارة بالأنعام وتارة بالحمر ، وهذا تشبيه لمن تعلم علما ولم يعقله ولم يعمل به ، فهو كالحمار الذى يحمل أسفارا . وتارة بالكلب ، وهذا لمن انسلخ عن العلم ، وأخلد إلى الشهوات والهوى .

وقوله : (كذلك يموت العلم بموت حامليه) : هذا من قول النبى ﷺ فى حديث عبد الله بن عمر وعائشة ﷺ وغيرهما :« إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الرجال ،ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا ، فأفتوا بغير علم ،فضلوا وأضلوا » رواه البخارى فى صحيحه (١). فذهاب العلم إنما هو بذهاب العلماء . قال ابن مسعود يوم مات عمر ﷺ : إنى لأحسب تسعة أعشار العلم اليوم قد ذهب . وقد تقدم قول عمر ﷺ : موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه .

وقوله :(اللهم بك لن تخلو الأرض من مجتهد قائم لله بحجج الله) : ويدل عليه الحديث الصحيح عن النبى ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ،لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » (٢) . ويدل عليه أيضا مارواه الترمذى عن قتيبة : حدثنا حماد بن يحيى الأبح ، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل أمتى مثل المطر ، لا يدرى أوله خير أم آخره » قال : هذا حديث حسن غريب (٣) . ويروى عن عبد الرحمن بن مهدى أنه كان يثبت حماد بن يحيى الأبح ، وكان يقول :هو من شيوخنا . وفى الباب عن عمار وعبد الله بن عمرو ، فلو لم يكن فى أواخر الأمة قائم بحجج الله مجتهد لم يكونوا موصوفين بهذه الخيرية . وأيضا فإن هذه الأمة أكمل الأمم ، وخير أمة أخرجت للناس ، ونبيها خاتم النبيين لا نبى بعده ، فجعل الله

---

(١) البخارى (١٠٠) فى العلم ، باب : كيف يقبض العلم ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٢) مسلم (١٩٢٠ / ١٧٠) فى الإمارة ، باب قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم » .

(٣) الترمذى (٢٨٦٩) فى الأمثال ، باب : (٦) ، وقال الألبانى: « حسن صحيح » .

العلماء فيها كلما هلك عالم خلفه عالم ؛ لئلا تطمس معالم الدين وتخفى أعلامه . وكان بنو إسرائيل كلما هلك نبى خلفه نبى ، فكانت تسوسهم الأنبياء . والعلماء لهذه الأمة كالأنبياء فى بنى إسرائيل . وأيضا ففى الحديث الآخر : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » (١) . وهذا يدل على أنه لا يزال محمولا فى القرون قرنا بعد قرن . وفى صحيح أبى حاتم من حديث الخولانى قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال الله يغرس فى هذا الدين غرسا يستعملهم فى طاعته ، وغرس الله هم أهل العلم والعمل ، فلو خلت الأرض من عالم خلت من غرس الله » (٢) ولهذا القول حجج كثيرة لها موضع آخر .

وزاد الكذابون فى حديث على : (إما ظاهرا مشهورا وإما خفيا مستورا) ، وظنوا أن ذلك دليل لهم على القول بالمنتظر ، ولكن هذه الزيادة من وضع بعض كذابيهم ، والحديث مشهور عن على لم يقل أحد عنه هذه المقالة إلا كذاب ، وحجج الله لا تقوم بخفى مستور لا يقع العالم له على خبر ، ولا ينتفعون به فى شىء أصلا ، فلا جاهل يتعلم منه ، ولا ضال يهتدى به ، ولا خائف يأمن به ، ولا ذليل يتعزز به ، فأى حجة لله قامت بمن لا يرى له شخص ، ولا يسمع منه كلمة ، ولا يعلم له مكان ، ولا سيما على أصول القائلين به ، فإن الذى دعاهم إلى ذلك أنهم قالوا : لابد منه فى اللطف بالمكلفين وانقطاع حجتهم عن الله ، فيا لله العجب ! أى لطف حصل بهذا المعدوم لا المعصوم ؟ ! وأى حجة أثبتم للخلق على ربهم بأصلكم الباطل ؟ ! فإن هذا المعدوم إذا لم يكن لهم سبيل قط إلى لقائه والاهتداء به فهل فى تكليف مالا يطاق أبلغ من هذا ؟ وهل فى العذر والحجة أبلغ من هذا ؟ فالذى فررتم منه وقعتم فى شر منه ، وكنتم فى ذلك كما قيل :

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولكن أبى الله إلا أن يفضح من تنقص بالصحابة الأخيار وبسادة هذه الأمة ، وأن يرى الناس عورته ويغريه بكشفها ، ونعوذ بالله من الخذلان ، ولقد أحسن القائل :

ما أنا للسرداب أن يلد الذى حملتموه بزعمكم ما آنا

فعلى عقولكم العفاء فإنكم ثلثتم العنقاء والغيلانا

---

(١) كشف الأستار (١ / ٨٦) رقم (١٤٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ١٤٥) فى العلم ، باب: أخذ الحديث من الثقات : «رواه البزار وفيه عمرو بن خالد القرشى كذبه يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ونسبه إلى الوضع ».

(٢) ابن ماجه (٨) فى المقدمة ، باب : اتباع سنة رسول الله ﷺ ، وأحمد (٤ / ٢٠٠)، وقال الألبانى: « حسن ».

ولقد بطلت حجج استودعها مثل هذا الغائب وضاعت أعظم ضياع ، فأنتم أبطلتم حجج الله من حيث زعمتم حفظها ، وهذا تصريح من أمير المؤمنين ﷺ بأن حامل حجج الله فى الأرض بحيث يؤديها عن الله ويبلغها إلى عباده مثله ﷺ ، ومثل إخوانه من الخلفاء الراشدين ومن اتبعهم إلى يوم القيامة .

وقوله : (لكيلا تبطل حجج الله وبيناته) : أى لكيلا تذهب من بين يدى الناس وتبطل من صدورهم ، وإلا فالبطلان محال عليها ؛ لأنها ملزوم ما يستحيل عليه البطلان .

وقوله : (أولئك الأقلون عددا الأعظمون عند الله قدرا) يعنى : هذا الصنف من الناس أقل الخلق عددا ، وهذا سبب غربتهم ، فإنهم قليلون فى الناس ، والناس على خلاف طريقهم ، فلهم نبأ ، وللناس نبأ . قال النبى ﷺ : « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء » (١) . فالمؤمنون قليل فى الناس ، والعلماء قليل فى المؤمنين ، وهؤلاء قليل فى العلماء ، وإياك أن تغتر بما يغتر به الجاهلون فإنهم يقولون : لو كان هؤلاء على حق لم يكونوا أقل الناس عددا والناس على خلافهم . فاعلم أن هؤلاء هم الناس ، ومن خالفهم فمشبهون بالناس وليسوا بناس ، فما الناس إلا أهل الحق وإن كانوا أقلهم عددا . قال ابن مسعود : لا يكن أحدكم إمعة ، يقول : أنا مع الناس ، ليوطن أحدكم نفسه على أن يؤمن ولو كفر الناس . وقد ذم ـ سبحانه ـ الأكثرين فى غير موضع ، كقوله : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] ، وقال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يوسف] ، وقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ [سبأ] ، وقال : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص : ٢٤] . وقال بعض العارفين : انفرادك فى طريق طلبك دليل على صدق الطلب .

مت بداء الهوى وإلا فخاطـــر ... واطرق الحى والعيون نواظر

لا تخف وحشة الطريق إذا سـر ... ت وكن فى خفارة الحق سائر

وقوله : (بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباههم) : وهذا لأن الله ـ سبحانه ـ ضمن حفظ حججه وبيناته ، وأخبر رسول الله ﷺ أنه لا تزال طائفة من أمته على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة (٢) ، فلا يزال غرس الله الذين غرسهم فى دينه يغرسون العلم فى قلوب من أهَّلهم

(١) مسلم (١٤٥ / ٢٣٢) فى الإيمان ، باب : بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا .
(٢) سبق تخريجه ص (٢٤٩)

الله لذلك وارتضاهم ، فيكونوا ورثة لهم كما كانوا هم ورثة لمن قبلهم ، فلا تنقطع حجج الله والقائم بها من الأرض . وفى الأثر المشهور : لا يزال الله يغرس فى هذا الدين غرسا يستعملهم بطاعته ؛ وكان من دعاء بعض من تقدم : اللهم اجعلنى من غرسك الذين تستعملهم بطاعتك . ولهذا ما أقام الله لهذا الدين من يحفظه ثم قبضه إليه إلا وقد زرع ما علمه من العلم والحكمة ، إما فى قلوب أمثاله ، وإما فى كتب ينتفع بها الناس بعده ، وبهذا وبغيره فضل العلماء العباد ، فإن العالم إذا زرع علمه عند غيره ثم مات جرى عليه أجره وبقى له ذكره ،وهو عمر ثان وحياة أخرى ، وذلك أحق ما تنافس فيه المتنافسون ، ورغب فيه الراغبون .

وقوله : (هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا مما استوحش منه الجاهلون) : الهجوم على الرجل الدخول عليه بلا استئذان ، ولما كانت طريق الآخرة وعرة على أكثر الخلق ـ لمخالفتها لشهواتهم ومباينتها لإرادتهم ومألوفاتهم ـ قل سالكوها ، وزاهدهم فيها قلة علمهم أو عدمه بحقيقة الأمر وعاقبة العباد ومصيرهم ، وما هيئوا له وهيئ لهم ، فقل علمهم بذلك ، واستلانوا مركب الشهوة والهوى على مركب الإخلاص والتقوى ، وتوعرت عليهم الطريق ، وبعدت عليهم الشقة ، وصعب عليهم مرتقى عقابها ، وهبوط أوديتها ، وسلوك شعابها ، فأخلدوا إلى الدعة والراحة ، وآثروا العاجل على الآجل وقالوا : عيشنا اليوم نقد ، وموعودنا نسيئة ، فنظروا إلى عاجل الدنيا ، وأغمضوا العيون عن آجلها ، ووقفوا مع ظاهرها ، ولم يتأملوا باطنها ، وذاقوا حلاوة مباديها وغاب عنهم مرارة عواقبها ، ودر لهم ثديها فطاب لهم الارتضاع ، واشتغلوا به عن التفكر فى الفطام ومرارة الانقطاع ، وقال مغترهم بالله وجاحدهم لعظمته وربوبيته متمثلا فى ذلك :

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به

وأما القائمون لله بحجته خلفاء نبيه فى أمته ، فإنهم لكمال علمهم وقوته نفذ بهم إلى حقيقة الأمر ، وهجم بهم عليه ، فعاينوا ببصائرهم ما عشيت عنه بصائر الجاهلين ، فاطمأنت قلوبهم به ، وعملوا على الوصول إليه لما باشرها من روح اليقين رفع لهم علم السعادة فشمروا إليه ، وأسمعهم منادى الإيمان النداء فاستبقوا إليه ، واستيقنت أنفسهم ما وعدهم به ربهم فزهدوا فيما سواه ، ورغبوا فيما لديه . علموا أن الدنيا دار ممر لا دار مقر ، ومنزل عبور لا مقعد حبور ، وأنها خيال طيف أو سحابة صيف ، وإن من فيها كراكب ، قال تحت ظل شجرة ثم راح عنها وتركها ، وتيقنوا أنها أحلام نوم ، أو كظل زائل :

إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وأن واصفها صدق فى وصفها إذ يقول :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عراة وجـــوع

أراها وإن كانت تحب فإنـــها سحابة صيف عن قليل تقشع

فرحلت عن قلوبهم مدبرة كما ترحلت عن أهلها موليه ، وأقبلت الآخرة إلى قلوبهم مسرعة كما أسرعت إلى الخلق مقبلة ، فامتطوا ظهور العزائم ، وهجروا لذة المنام ، وما ليل المحب بنائم . علموا طول الطريق وقلة المقام فى منزل التزود ، فسارعوا فى الجهاز ، وجد بهم السير إلى منازل الأحباب ، فقطعوا المراحل ، وطووا المفاوز .

وهذا كله من ثمرات اليقين ، فإن القلب إذا استيقن ما أمامه من كرامة الله وما أعد لأوليائه بحيث كأنه ينظر إليه من وراء حجاب الدنيا ، ويعلم أنه إذا زال الحجاب رأى ذلك عيانا ، زالت عنه الوحشة التى يجدها المتخلفون ؛ ولأن له ما استوعره المترفون . وهذه المرتبة هى أول مراتب اليقين ، وهى علمه وتيقنه ، وهى انكشاف المعلوم للقلب بحيث يشاهده ولا يشك فيه كانكشاف المرئى للبصر ، ثم يليها المرتبة الثانية وهى :مرتبة عين اليقين ،ونسبتها إلى العين كنسبة الأول إلى القلب ، ثم تليها المرتبة الثالثة وهى : حق اليقين ،وهى مباشرة المعلوم وإدراكه الإدراك التام ، فالأولى كعلمك بأن فى هذا الوادى ماء ، والثانية كرؤيته ،والثالثة كالشرب منه .

ومن هذا ما يروى فى حديث حارثة وقول النبى ﷺ : « كيف أصبحت يا حارثة ؟ » قال : أصبحت مؤمنا حقا . قال : « إن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفت نفسى عن الدنيا وشهواتها ، فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وإلى أهل النار يتعاوون فيها. قال:« عبد نور الله قلبه » (١) فهذا هو هجوم العلم بصاحبه على حقيقة الأمر ، ومن وصل إلى هذا استلان ما يستوعره المترفون ، وأنس مما يستوحش منه الجاهلون ، ومن لم يثبت قدم إيمانه على هذه الدرجة فهو إيمان ضعيف ،وعلامة هذا انشراح الصدر لمنازل الإيمان وانفساحه،وطمأنينة القلب لأمر الله،والإنابة إلى ذكر الله ومحبته ،والفرح بلقائه، والتجافى عن دار الغرور، كما فى الأثر المشهور : إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح ، قيل:وما علامة ذلك ؟ قال:التجافى عن دار الغرور ،والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد

(١) الطبرانى فى الكبير ٣ / ٢٦٦ (٣٣٦٧) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ٦٢) : « فيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه » والعقيلى فى الضعفاء الكبير ٤ / ٤٥٥ وقال : ليس لهذا الحديث إسناد يثبت .

للموت قبل نزوله . وهذه هى الحال التى كانت تحصل للصحابة عند النبى ﷺ إذا ذكرهم الجنة والنار ، كما فى الترمذى وغيره من حديث الجريرى عن أبى عثمان النهدى عن حنظلة الأسدى ـ وكان من كتاب النبى ﷺ ـ أنه مر بأبى بكر رضي الله عنه وهو يبكى فقال : مالك يا حنظلة فقال : نافق حنظلة يا أبا بكر ، نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنا رأى عين ، فإذا رجعنا إلى الأزواج والضيعة نسينا كثير . قال :فوالله ،إنا لكذلك . انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ ، فانطلقنا ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « مالك يا حنظلة؟ » قال : نافق حنظلة يا رسول الله ، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى عين، فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ، ونسينا كثيرا . قال : فقال رسول الله ﷺ : «لو تدومون على الحال التى تقومون بها من عندى لصافحتكم الملائكة فى مجالسكم وفى طرقكم وعلى فرشكم ،ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ساعة وساعة » . قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح [١]. وفى الترمذى أيضا نحوه من حديث أبى هريرة .

والمقصود : أن الذى يهجم بالقلب على حقيقة الإيمان ويلين له ما يستوعره غيره ويؤنسه بما يستوحش منه سواء العلم التام والحب الخالص ، والحب تبع للعلم ، يقوى بقوته ويضعف بضعفه ، والمحب لا يستوعر طريقا توصله إلى محبوبه ولا يستوحش فيها .

وقوله : (صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى ـ وفى رواية : بالمحل الأعلى) : الروح فى هذا الجسد بدار غربة ، ولها وطن غيره ، فلا تستقر إلا فى وطنها ، وهى جوهر علوى مخلوق من مادة علوية ، وقد اضطرت إلى مساكنة هذا البدن الكثيف ، فهى دائما تطلب وطنها فى المحل الأعلى ، وتحن إليه حنين الطير إلى أوكارها ، وكل روح ففيها ذلك ولكن لفرط اشتغالها بالبدن، وبالمحسوسات المألوفة أخلدت إلى الأرض ، ونسيت معلمها ووطنها الذى لا راحة لها فى غيره ، فإنه لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه ، والدنيا سجنه حقا ، فلهذا تجد المؤمن بدنه فى الدنيا ، وروحه فى المحل الأعلى ـ وفى الحديث المرفوع : « إذا نام العبد وهو ساجد باهى الله به الملائكة فيقول : انظروا إلى عبدى ، بدنه فى الأرض وروحه عندى » [٢] رواه تمام وغيره . وهذا معنى قول بعض السلف . القلوب جوالة ، فقلب حول الحشر ، وقلب يطوف مع الملائكة حول العرش ، فأعظم عذاب الروح انغماسها وتدسيسها فى أعماق البدن ، واشتغالها بملاذه ، وانقطاعها

---

(١) الترمذى (٢٥١٤) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب : (٥٩) ، ورواه مسلم (٢٧٥٠ / ١٢) فى التوبة ، باب : فضل دوام الذكر والفكر فى أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك فى بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا ، وابن ماجه (٤٢٣٩) فى الزهد ، باب : المداومة على العمل .

(٢) أحمد فى الزهد ص ٢٨٠ ، وقال ابن حجر فى التلخيص الحبير رقم (١٦٣) : « حديث منقطع » .

عن ملاحظة ما خلقت له وهيئت له وعن وطنها ومحلها ومحل أنسها ومنزل كرامتها ، ولكن سكر الشهوات يحجبها عن مطالعة هذا الألم والعذاب ، فإذا صحت من سكرها ، وأفاقت من غمرتها ، أقبلت عليها جيوش الحسرات من كل جانب ، فحينئذ تتقطع حسرات على مافاتها من كرامة الله وقربه والأنس به ، والوصول إلى وطنها الذى لا راحة لها إلا فيه ، كما قيل :

صحبتك إذ عينى عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسى ألومها

ولو تنقلت الروح فى المواطن كلها والمنازل ، لم تستقر ولم تطمئن إلا فى وطنها ومحلها الذى خلقت له ، كما قيل :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

وإذا كانت الروح تحن أبدا إلى وطنها من الأرض مع قيام غيره مقامه فى السكنى ، وكثيرا ما يكون غير وطنها أحسن وأطيب منه ، وهى دائما تحن إليه ، مع أنه لا ضرر عليها ولا عذاب فى مفارقته إلى مثله ، فكيف بحنينها إلى الوطن الذى فى فراقها له عذابها وآلامها وحسرتها التى لا تنقضى ، فالعبد المؤمن فى هذه الدار سبى من الجنة إلى دار التعب والعناء ، ثم ضرب عليه الرق فيها ، فكيف يلام على حنينه إلى داره التى سبى منها ، وفرق بينه وبين من يحب ، وجمع بينه وبين عدوه ، فروحه دائما معلقة بذلك الوطن وبدنه فى الدنيا ، ولى من أبيات فى ذلك :

وحى على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبى العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم

وكلما أراد منه العدو نسيان وطنه وضرب الذكر عنه صفحا وإيلافه وطنا غيره ، أبت ذلك روحه وقلبه ، كما قيل :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

ولهذا كان المؤمن غريبا فى هذه الدار أين حل منها ، فهو فى دار غربة ، كما قال النبى ﷺ : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل »[1] ، ولكنها غربة تنقضى ويصير إلى وطنه ومنزله ، وإنما الغربة التى لا يرجى انقطاعها فهى غربة فى دار الهوان ، ومفارقة

(١) البخارى (٦٤١٦) فى الرقاق ، باب : قول النبى ﷺ : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » ، والترمذى (٢٣٣٣) فى الزهد ، باب : ما جاء فى قصر الأمل ، وابن ماجه (٤١١٤) فى الزهد ، باب : مثل الدنيا ، وأحمد ٢ / ٢٤ .

وطنه الذى كان قد هيئ وأعد له ، وأمر بالتجهيز إليه والقدوم عليه ، فأبى إلا اغترابه عنه ومفارقته له ، فتلك غربة لا يرجى إيابها ، ولا يجبر مصابها ، ولا تبادر إلى إنكار كون البدن فى الدنيا والروح فى الملأ الأعلى ، فللروح شأن وللبدن شأن ، والنبى ﷺ كان بين أظهر أصحابه وهو عند ربه يطعمه ويسقيه ، فبدنه بينهم ، وروحه وقلبه عند ربه . وقال أبو الدرداء : إذا نام العبد عرج بروحه إلى تحت العرش ، فإن كان طاهرا أذن لها بالسجود ، وإن لم يكن طاهرا لم يؤذن لها بالسجود . فهذه ـ والله أعلم ـ هى العلة التى أمر الجنب لأجلها أن يتوضأ إذا أراد النوم . وهذا الصعود إنما كان لتجرد الروح عن البدن بالنوم ، فإذا تجردت بسبب آخر حصل لها من الترقى والصعود بحسب ذلك التجرد ، وقد يقوى الحب بالمحب حتى لا يشاهد منه بين الناس إلا جسمه وروحه فى موضع آخر عند محبوبه ، وفى هذا من أشعار الناس وحكاياتهم ما هو معروف .

وقوله :(أولئك خلفاء الله فى أرضه،ودعاته إلى دينه)هذا حجة أحد القولين فى أنه يجوز أن يقال :فلان خليفة الله فى أرضه واحتج أصحابه أيضا بقوله تعالى للملائكة : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٠] ، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [فاطر : ٣٩] ،وهذا خطاب لنوع الإنسان ، وبقوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ [النمل : ٦٢] ،وبقول موسى لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) ﴾ [الاعراف] ، وبقول النبى ﷺ : « إن الله ممكن لكم فى الأرض ومستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء »(١) . واحتجوا بقول الراعى يخاطب أبا بكر رضي الله عنه :

خليفة الرحمن إنا معشـــر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى لله فى أموالنا حق الزكـــاة منزلا تنزيلا

ومنعت طائفة هذا الإطلاق وقالت:لا يقال لأحد أنه خليفة الله؛ فإن الخليفة إنما يكون عمن يغيب ويخلفه غيره ،والله تعالى شاهد غائب ، قريب غير بعيد ، راء وسامع ، فمحال أن يخلفه غيره ، بل هو ـ سبحانه ـ الذى يخلف عبده المؤمن فيكون خليفته ، كما قال النبى ﷺ فى حديث الدجال :« إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ،وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مؤمن» (٢) والحديث فى

(١) مسلم (٢٧٤٢) فى الذكر ، باب : أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء ، والترمذى (٢١٩١) فى الفتن ، باب : ما جاء ما أخبر النبى ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وابن ماجه (٤٠٠٠) فى الفتن ، باب : فتنة النساء ، وأحمد ٣ / ١٩ .

(٢) مسلم (٢١٣٧ / ١١٠) فى الفتن وأشراط الساعة ، باب : ذكر الدجال وصفته وما معه .

الصحيح. وفى صحيح مسلم أيضا من حديث عبد الله بن عمرو ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا سافر: «اللهم أنت الصاحب فى السفر ،والخليفة فى الأهل والحضر » الحديث(١). وفى الصحيح : أن النبى ﷺ قال: « اللهم اغفر لأبى سلمة ، وارفع درجته فى المهديين ، واخلفه فى أهله » (٢) ،فالله تعالى هو خليفة العبد ؛ لأن العبد يموت فيحتاج إلى من يخلفه فى أهله قالوا : ولهذا أنكر الصديق رضي الله عنه على من قال له : يا خليفة الله . قال : لست بخليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله ، وحسبى ذلك .

قالوا : وأما قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] فلا خلاف أن المراد به آدم وذريته ، وجمهور أهل التفسير من السلف والخلف على أنه جعله خليفة عمن كان قبله فى الأرض ، قيل : عن الجن الذين كانوا سكانها ، وقيل : عن الملائكة الذين سكنوها بعد الجن ، وقصتهم مذكورة فى التفاسير .

وأما قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ ﴾ [فاطر : ٣٩] فليس المراد به خلائف عن الله ، وإنما المراد به : أنه جعلكم يخلف بعضكم بعضا ، فكلما هلك قرن خلفه قرن ، إلى آخر الدهر . ثم قيل : إن هذا خطاب لأمة محمد ﷺ خاصة ، أى جعلكم خلائف من الأمم الماضية فهلكوا ، وورثتم أنتم الأرض من بعدهم . ولا ريب أن هذا الخطاب للأمة ، والمراد نوع الإنسان الذى جعل الله أباهم خليفة عمن قبله ، وجعل ذريته يخلف بعضهم بعضا إلى قيام الساعة ؛ ولهذا جعل هذا آية من آياته كقوله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ [النمل : ٦٢] .

وأما قول موسى لقومه : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] فليس ذلك استخلافا عنه ، وإنما هو استخلاف عن فرعون وقومه ، أهلكهم وجعل قوم موسى خلفاء من بعدهم ، وكذا قول النبى ﷺ : « إن الله مستخلفكم فى الأرض » (٣) أى من الأمم التى تهلك ، وتكونون أنتم خلفاء من بعدهم .

قالوا : وأما قول الراعى فقول شاعر قال قصيدة فى غيبة الصديق، لا يدرى أبلغت أبا بكر أم لا ؟ ولو بلغته فلا يعلم أنه أقره على هذه اللفظة أم لا ؟ قلت : إن أريد بالإضافة إلى الله أنه خليفة عنه فالصواب قول الطائفة المانعة منها ، وإن أريد بالإضافة أن الله

---

(١) مسلم (١٣٤٢ / ٤٢٥) فى الحج ، باب : ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره .

(٢) مسلم (٩٢٠ / ٧) فى الجنائز ، باب : فى إغماض الميت والدعاء له إذا حضر ، وأبو داود (٣١١٨) فى الجنائز ، باب : تغميض الميت .

(٣) سبق تخريجه ص (٢٥٦) .

استخلفه عن غيره ممن كان قبله فهذا لا يمتنع فيه الإضافة ، وحقيقتها خليفة الله الذى جعله الله خلفا عن غيره ، وبهذا يخرج الجواب عن قول أمير المؤمنين : (أولئك خلفاء الله فى أرضه) .

فإن قيل : هذا لا مدح فيه ؛ لأن هذا الاستخلاف عام فى الأمة ، وخلافة الله التى ذكرها أمير المؤمنين خاصة بخواص الخلق .

فالجواب : أن الاختصاص المذكور أفاد اختصاص الإضافة ، فالإضافة هنا للتشريف والتخصيص كما يضاف إليه عباده،كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾[الحجر : ٤٢] . ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا** ﴾[الفرقان:٦٣] ونظائرهما . ومعلوم أن كل الخلق عباد له ، فخلفاء الأرض كالعباد فى قوله: ﴿ **وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** (١٥)﴾[آل عمران] ﴿**وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ** (٣١) ﴾ [غافر] ، وخلفاء الله فى قوله : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ [الحجر : ٤٢] ونظائره .

وقوله :(ودعاته إلى دينه): الدعاة جمع داع ، كقاض وقضاة ورام ورماة ، وإضافتهم إلى الله للاختصاص ، أى الدعاة المخصوصون به ، الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته، وهؤلاء هم خواص خلق الله وأفضلهم عند الله منزلة ، وأعلاهم قدرا ، يدل على ذلك :

الوجه الثلاثون بعد المائة : وهو قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** (٣٣) ﴾ [فصلت] . قال الحسن : هو المؤمن أجاب الله فى دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحا فى إجابته ، فهذا حبيب الله ، هذا ولى الله . فمقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد ، قال تعالى : ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا** (١٩) ﴾ [الجن] .

وقال تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل : ١٢٥] جعل ـ سبحانه ـ مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق ، فالمستجيب القابل الذكى الذى لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة ، والقابل الذى عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة ،وهى الأمر والنهى المقرون بالرغبة والرهبة ، والمعاند الجاحد يجادل بالتى هى أحسن . هذا هو الصحيح فى معنى هذه الآية ، لا ما يزعم أسير منطق اليونان أن الحكمة قياس البرهان وهى دعوة الخواص ، والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهى دعوة العوام ،والمجادلة بالتى هى أحسن القياس الجدلى ، وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلى مسلم المقدمات . وهذا باطل ، وهو مبنى على أصول الفلسفة وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨] . قال الفراء وجماعة : ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ معطوف على الضمير فى ﴿ أَدْعُو ﴾ يعنى : ومن اتبعنى يدعو إلى الله كما أدعو . وهذا قول الكلبى ، قال : حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ، ويذكر بالقرآن والموعظة . ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة . قال ابن الأنبارى : ويجوز أن يتم الكلام عند قوله : ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ ثم يبتدئ بقوله : ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ ، فيكون الكلام على قوله جملتين أخبر فى أولاهما أنه يدعو إلى الله وفى الثانية بأنه من أتباعه على بصيرة ، والقولان متلازمان ، فلا يكون الرجل من أتباعه حقا حتى يدعو إلى مادعا إليه . وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة ، وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهى لا تحصل إلا بالعلم الذى يدعو به وإليه ، بل لابد فى كمال الدعوة من البلوغ فى العلم إلى حد يصل إليه السعى ، ويكفى هذا فى شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام ، والله يؤتى فضله من يشاء .

الوجه الحادى والثلاثون بعد المائة : أنه لو لم يكن من فوائد العلم إلا أنه يثمر اليقين الذى هو أعظم حياة القلب ، وبه طمأنينته وقوته ونشاطه وسائر لوازم الحياة ؛ ولهذا مدح الله ـ سبحانه ـ أهله فى كتابه ، وأثنى عليهم بقوله : ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [البقرة] ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا (١) الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [البقرة] ، وقوله فى حق خليله إبراهيم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام] ، وذم من لا يقين عنده فقال : ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [النمل] .

وفى الحديث المرفوع من حديث سفيان الثورى عن سليمان التيمى ، عن خيثمة ، عن عبد الله بن مسعود ـ يرفعه : « لا ترضين أحدا بسخط الله ، ولا تحمدن أحدا على فضله ، ولا تذمن أحدا على مالم يؤتك الله ، فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص ، ولا يرده عنك كراهية كاره ، وأن الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة والفرح فى الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط » (٢) . فإذا باشر القلب اليقين امتلأ نورا ، وانتفى عنه كل ريب وشك ، وعوفى من أمراضه القاتلة ، وامتلأ شكرا لله وذكرا له ، ومحبة وخوفا ، فحى عن بينة . واليقين والمحبة هما ركنا الإيمان ، وعليهما ينبنى ، وبهما قوامه ، وهما يمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية ، وعنهما تصدر ، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال ، وبقوتهما قوتها .

---

(١) فى المطبوعة : « كذلك نفصل » .

(٢) الطبرانى فى الكبير ١٠ / ٢٦٦ (٤ / ١٠٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع(٤ / ٧٤) : « فيه خالد بن يزيد العمرى واتهم بالوضع » .

وجميع منازل السائرين ومقامات العارفين إنما تفتح بهما ، وهما يثمران كل عمل صالح ، وعلم نافع ، وهدى مستقيم . قال شيخ العارفين الجنيد : اليقين هو استقرار العلم الذى لا ينقلب ولا يتحول ولا يتغير فى القلب . وقال سهل : حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله . وقيل : من علاماته الالتفات إلى الله فى كل نازلة ، والرجوع إليه فى كل أمر ، والاستعانة به فى كل حال ، وإرادة وجهه بكل حركة وسكون . وقال السرى : اليقين السكون عند جولان الموارد فى صدرك لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضيا . قلت : هذا إذا لم تكن الحركة مأمورا بها ، فإذا كانت مأمورا بها فاليقين فى بذل الجهد فيها واستفراغ الوسع .

وقيل : إذا استكمل العبد حقيقة اليقين صار البلاء عنده نعمة والمحنة منحة ، فالعلم أول درجات اليقين ؛ ولهذا قيل : العلم يستعملك واليقين يحملك ، فاليقين أفضل مواهب الرب لعبده ، ولا تثبت قدم الرضاء إلا على درجة اليقين ، قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ [التغابن : ١١] . قال ابن مسعود : هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله فيرضى ويسلم ؛ فلهذا لم يحصل له هداية القلب والرضا والتسليم إلا بيقينه .

الوجه الثانى والثلاثون بعد المائة : ما رواه أبو يعلى الموصلى فى مسنده من حديث أنس ابن مالك ـ يرفعه إلى النبى ﷺ ـ قال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (١) . وهذا وإن كان فى سنده حفص بن سليمان وقد ضعف ، فمعناه صحيح ، فإن الإيمان فرض على كل واحد ، وهو ماهية مركبة من علم وعمل ، فلا يتصور وجود الإيمان إلا بالعلم والعمل .

ثم شرائع الإسلام واجبة على كل مسلم ، ولا يمكن أداؤها إلا بعد معرفتها والعلم بها ، والله تعالى أخرج عباده من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا ، فطلب العلم فريضة على كل مسلم ، وهل تمكن عبادة الله ـ التى هى حقه على العباد كلهم ـ إلا بالعلم ؟ وهل ينال العلم إلا بطلبه ؟ ثم إن العلم المفروض تعلمه ضربان .

ضرب منه فرض عين ، لا يسع مسلما جهله ، وهو أنواع :

النوع الأول : علم أصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فإن من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل فى باب الإيمان ، ولا يستحق اسم المؤمن ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ** ﴾ [البقرة : ١٧٧] ، وقال :

---

(١) أبو يعلى فى مسنده (٢٨٣٧) ، والحديث رواه أيضا ابن ماجه (٢٢٤) فى المقدمة ، باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم ، وقال البوصيرى فى مصباح الزجاجة ١/ ٣٠ : « هذا إسناد ضعيف ؛ لضعف حفص بن سليمان » ، وصححه الألبانى .

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً (١٣٦) ﴾ [النساء] . ولما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » قال : صدقت (١) . فالإيمان بهذه الأصول فرع معرفتها والعلم بها .

النوع الثانى : علم شرائع الإسلام ، واللازم منها علم ما يخص العبد من فعلها كعلم الوضوء والصلاة والصيام والحج والزكاة وتوابعها وشروطها ومبطلاتها .

النوع الثالث : علم المحرمات الخمسة ، التى اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الإلهية ، وهى المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [الأعراف] فهذه محرمات على كل واحد ، فى كل حال ، على لسان كل رسول ، لا تباح قط ؛ ولهذا أتى فيها بإنما المفيدة للحصر مطلقا ، وغيرها محرم فى وقت مباح فى غيره ، كالميتة والدم ولحم الخنزير ونحوه ، فهذه ليست محرمة على الإطلاق والدوام ، فلم تدخل تحت التحريم المحصور المطلق .

النوع الرابع : علم أحكام المعاشرة والمعاملة التى تحصل بينه وبين الناس خصوصا وعموما ، والواجب فى هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم ، فليس الواجب على الإمام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجيرته ، وليس الواجب على من نصب نفسه لأنواع التجارات مِنْ تعلم أحكام البياعات، كالواجب على من لا يبيع ولا يشترى إلا ما تدعو الحاجة إليه .

وتفصيل هذه الجملة لا ينضبط بحد لاختلاف الناس فى أسباب العلم الواجب ، وذلك يرجع إلى ثلاثة أصول : اعتقاد وفعل وترك ، فالواجب فى الاعتقاد مطابقته للحق فى نفسه ، والواجب فى العمل معرفته وموافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة الاختيارية للشرع أمر وإباحة ، والواجب فى الترك معرفة موافقة الكف والسكون لمرضات الله ، وأن المطلوب منه إبقاء هذا الفعل على عدمه المستصحب ، فلا يتحرك فى طلبه أو كف النفس عن فعله على الطريقتين . وقد دخل فى هذه الجملة علم حركات القلوب والأبدان .

وأما فرض الكفاية : فلا أعلم فيه ضابطا صحيحا ، فإن كل أحد يدخل فى ذلك ما يظنه فرضا ،فيدخل بعض الناس فى ذلك علم الطب وعلم الحساب وعلم الهندسة والمساحة ،وبعضهم يزيد على ذلك علم أصول الصناعة كالفلاحة والحياكة والحدادة والخياطة ونحوها ، وبعضهم يزيد على ذلك علم المنطق وربما جعله فرض عين ، وبناه على

(١) البخارى (٥٠) فى الإيمان ، باب : سؤال جبريل النبى ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان ، ومسلم (٩ / ٥) فى الإيمان ، باب : بيان الإيمان والإسلام والإحسان .

عدم صحة إيمان المقلد ، وكل هذا هوس وخبط ، فلا فرض إلا ما فرضه الله ورسوله ـ فياسبحان الله ! هل فرض الله على كل مسلم أن يكون طبيبا حجاما ، حاسبا مهندسا ، أو حائكا ، أو فلاحا ، أو نجارا ، أو خياطا ، فإن فرض الكفاية كفرض العين فى تعلقه بعموم المكلفين ، وإنما يخالفه فى سقوطه بفعل البعض ، ثم على قول هذا القائل يكون الله قد فرض على كل أحد جملة هذه الصنائع والعلوم ، فإنه ليس واحد منها فرضا على معين والآخر على معين آخر ، بل عموم فرضيتها مشتركة بين العموم ، فيجب على كل أحد أن يكون حسابا حائكا خياطا نجارا فلاحا طبيبا مهندسا ، فإن قال المجموع فرض على المجموع لم يكن قولك : إن كل واحد منها فرض كفاية صحيحا ، لأن فرض الكفاية يجب على العموم .

وأما المنطق : فلو كان علما صحيحا كان غايته أن يكون كالمساحة والهندسة ونحوها ، فكيف وباطله أضعاف حقه وفساده ، وتناقض أصوله واختلاف مبانيه توجب مراعاتها للذهن أن يزيغ فى فكره ، ولا يؤمن بهذا إلا من قد عرفه وعرف فساده وتناقضه ، ومناقضة كثير منه للعقل الصريح . وأخبر بعض من كان قد قرأه وعنى به أنه لم يزل متعجبا من فساد أصوله وقواعده ، ومبانيها لصريح المعقول ، وتضمنها لدعاو محضة غير مدلول عليها ، وتفريقه بين متساويين ، وجمعه بين مختلفين ، فيحكم على الشىء بحكم وعلى نظيره بضد ذلك الحكم ، أو يحكم على الشىء بحكم ثم يحكم على مضاده أو مناقضه به . قال : إلى أن سألت بعض رؤسائه وشيوخ أهله عن شىء من ذلك ، فأفكر فيه ثم قال : هذا علم قد صقلته الأذهان ، ومرت عليه من عهد القرون الأوائل ـ أو كما قال ـ فينبغى أن نتسلمه من أهله ، وكان هذا من أفضل ما رأيت فى المنطق . قال : إلى أن وقفت على رد متكلمى الإسلام عليه ،وتبيين فساده وتناقضه ، فوقفت على مصنف لأبى سعيد السيرافى النحوى فى ذلك ،وعلى رد كثير من أهل الكلام والعربية عليهم ، كالقاضى أبى بكر بن الطيب والقاضى عبد الجبار ، والجبائى وابنه ، وأبى المعالى ، وأبى القاسم الأنصارى ، وخلق لا يحصون كثرة ، ورأيت استشكالات فضلائهم ورؤسائهم لمواضع الإشكال ومخالفتها ، ما كان ينقدح لى كثير منه . ورأيت آخر من تجرد للرد عليهم شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه ـ فإنه أتى فى كتابيه الكبير والصغير بالعجب العجاب ، وكشف أسرارهم وهتك أستارهم ، فقلت فى ذلك :

واعجبا لمنطق اليونان ... كم فيه من إفك ومن بهتان

مخبط لجيد الأذهان ... ومفسد لفطرة الإنسان

مضطرب الأصول والمبانى ... على شفا هار بناه البانى
أحوج ما كان إليه العانى ... يخونه فى السر والإعلان
يمشى به اللسان فى الميدان ... مشى مقيد على صفوان
متصل العثار والتوانى ... كأنه السراب بالقيعان
بدا لعين الظمئ الحيرانى ... فأمه بالظن والحسبان
يرجو شفاء غلة الظمآن ... فلم يجد ثم سوى الحرمان
فعاد بالخيبة والخسران ... يقرع سن نادم حيران
قد ضاع منه العمر فى الأمانى ... وعاين الخفة فى الميزان

وما كان من هوس النفوس بهذه المنزلة ، فهو بأن يكون جهلا أولى منه بأن يكون علما تعلمه فرض كفاية أو فرض عين . وهذا الشافعى وأحمد وسائر أئمة الإسلام وتصانيفهم وسائر أئمة العربية وتصانيفهم وأئمة التفسير وتصانيفهم ، لمن نظر فيها هل راعوا فيها حدود المنطق وأوضاعه ؟ وهل صح لهم علمهم بدونه أم لا ؟ بل هم كانوا أجل قدرا وأعظم عقولا من أن يشغلوا أفكارهم بهذيان المنطقيين ، وما دخل المنطق على علم إلا أفسده ، وغير أوضاعه ، وشوش قواعده .

ومن الناس من يقول : إن علوم العربية من التصريف والنحو واللغة والمعانى والبيان ونحوها تعلمها فرض كفاية ؛ لتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها . ومن الناس من يقول : تعلم أصول الفقه فرض كفاية؛ لأنه العلم الذى يعرف به الدليل ومرتبته ، وكيفية الاستدلال .

وهذه الأقوال وإن كانت أقرب إلى الصواب من القول الأول ، فليس وجوبها عاما على كل أحد ولا فى كل وقت ،وإنما يجب وجوب الوسائل فى بعض الأزمان وعلى بعض الأشخاص ، بخلاف الفرض الذى يعم وجوبه كل أحد ، وهو علم الإيمان وشرائع الإسلام ،فهذا هو الواجب وأما ما عداه فإن توقفت معرفته عليه فهو من باب مالا يتم الواجب إلا به ، ويكون الواجب منه القدر الموصل إليه ، دون المسائل التى هى فضلة لا يفتقر معرفة الخطاب وفهمه إليها . فلا يطلق القول بأن علم العربية واجب على الإطلاق ، إذ الكثير منه ومن مسائله وبحوثه لا يتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها ، وكذلك أصول الفقه القدر الذى يتوقف فهم الخطاب عليه منه يجب معرفته دون المسائل المقررة والأبحاث التى هى فضلة ، فكيف يقال : إن تعلمها واجب ؟ ! وبالجملة ، فالمطلوب الواجب من

العبد من العلوم والأعمال إذا توقف على شيء منها ، كان ذلك الشيء واجبا وجوب الوسائل . ومعلوم أن ذلك التوقف يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والألسنة والأذهان ، فليس لذلك حد مقدر ، والله أعلم .

الوجه الثالث والثلاثون بعد المائة : ما رواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة ـ يرفعه إلى النبى ﷺ ـ قال : « سأل موسى ربه عن ست خصال ، كان يظن أنها له خالصة ، والسابعة لم يكن موسى يحبها قال : يا رب ، أى عبادك أتقى ؟ قال : الذى يذكر ولا ينسى ، قال : فأى عبادك أهدى ؟ قال : الذى يتبع الهدى ، قال : فأى عبادك أحكم ؟ قال : الذى يحكم للناس ما يحكم لنفسه ، قال : أى عبادك أعلم ؟ قال : عالم لا يشبع من العلم ، يجمع علم الناس إلى علمه ، قال : فأى عبادك أعز ؟ قال : الذى إذا قدر عفا ، قال : فأى عبادك أغنى ؟ قال : الذى يرضى بما أوتى ، قال : فأى عبادك أفقر ؟ قال : صاحب منقوص »[1] . فأخبر فى هذا الحديث أن أعلم عباده الذى لا يشبع من العلم ، فهو يجمع علم الناس إلى علمه ؛ لنهمته فى العلم وحرصه عليه . ولا ريب أن كون العبد أعظم عباد الله من أعظم أوصاف كماله ،وهذا هو الذى حمل موسى على الرحلة إلى عالم الأرض ليعلمه مما علمه الله . هذا وهو كليم الرحمن ، وأكرم الخلق على الله فى زمانه ،وأعلم الخلق . فحمله حرصه ونهمته فى العلم على الرحلة إلى العالم الذى وصف له ، فلولا أن العلم أشرف ما بذلت فيه المهج وأنفقت فيه الأنفاس لاشتغل موسى عن الرحلة إلى الخضر بما هو بصدده من أمر الأمة ، وعن مقاساة النصب والتعب فى رحلته وتلطفه للخضر فى قوله : ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** (٦٦) ﴾ [الكهف] فلم ير اتباعه حتى استأذنه فى ذلك ، وأخبره أنه جاء متعلما مستفيدا . فهذا النبى الكريم كان عالما بقدر العلم وأهله ، صلوات الله وسلامه عليه .

الوجه الرابع والثلاثون بعد المائة : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الخلق لعبادته الجامعة لمحبته ، وإيثار مرضاته المستلزمة لمعرفته ، ونصب للعباد علما لا كمال لهم إلا به ، وهو أن تكون حركاتهم كلها موافقة على وفق مرضاته ومحبته ؛ ولذلك أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، وشرع شرائعه . فكمال العبد الذى لا كمال له إلا به أن تكون حركاته موافقة لما يحبه الله منه ويرضاه له ؛ ولهذا جعل اتباع رسوله دليلا على محبته ، قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٣١) ﴾ [آل عمران] ، فالمحب الصادق يرى خيانة منه لمحبوبه أن يتحرك بحركة اختيارية فى غير مرضاته، وإذا فعل

---

(١) ابن حبان (٦١٨٤) .

فعلا مما أبيح له بموجب طبيعته وشهوته تاب منه كما يتوب من الذنب ، ولا يزال هذا الأمر يقوى عنده حتى تنقلب مباحاته كلها طاعات ، فيحتسب نومه وفطره وراحته كما يحتسب قومته وصومه واجتهاده ، وهو دائما بين سراء يشكر الله عليها ، وضراء يصبر عليها ، فهو سائر إلى الله دائما فى نومه ويقظته .

قال بعض العلماء : الأكياس عاداتهم عبادات الحمقى،والحمقى عباداتهم عادات .

وقال بعض السلف حبذا نوم الأكياس وفطرهم ، يغبنون به سهر الحمقى وصومهم ، فالمحب الصادق إن نطق نطق لله وبالله ،وإن سكت سكت لله ،وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فسكونه استعانة على مرضات الله،فهو لله وبالله ومع الله ،ومعلوم أن صاحب هذا المقام أحوج خلق الله إلى العلم، فإنه لا تتميز له الحركة المحبوبة لله من غيرها،ولا السكون المحبوب له من غيره إلا بالعلم ، فليست حاجته إلى العلم كحاجة من طلب العلم لذاته ،ولأنه فى نفسه صفة كمال ، بل حاجته إليه كحاجته إلى مابه قوام نفسه وذاته ؛ ولهذا اشتدت وصاة شيوخ العارفين[1] لمريديهم بالعلم وطلبه ، وأنه من لم يطلب العلم لم يفلح ،حتى كانوا يعدون من لا علم له من السفلة .

قال ذو النون ـ وقد سئل : من السفلة ؟ فقال : من لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ، ولا يتعرفه .

وقال أبو يزيد :و نظرتم إلى الرجل ـ وقد أعطى من الكرامات حتى يتربع فى الهواء ـ فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى،وحفظ الحدود ،ومعرفة الشريعة .

وقال أبو حمزة البزاز : من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق الا متابعة الرسول فى أقواله وأفعاله وأحواله .

وقال محمد بن الفضل الصوفى الزاهد : ذهاب الإسلام على يدى أربعة أصناف من الناس : صنف لا يعملون بما يعلمون ، وصنف يعملون بما لا يعلمون ، وصنف لا يعملون ولا يعلمون ، وصنف يمنعون الناس من التعلم .

قلت :

الصنف الأول : من له علم بلا عمل فهو أضر شىء على العامة ، فإنه حجة لهم فى كل نقيصة ومنحسة .

---

(١) العارف بالله عند المحققين من علماء السنة : يراد به من يزهد الناس فى الدنيا ويرغبهم فى الآخرة ويحببهم فى الله تعالى ورسوله وعمل الخيرات،على الإخلاص ووفق الاتباع،لا الابتداع ،على خلاف ما يعتقده كثير من أدعياء التصوف بلا علم حيث العارف عندهم من يتوسل به إلى الله تعالى ولو كان قد مات منذ زمن أو يقدس فى حياته ويعظم بما يضعه بما لا يليق بالبشر. والله أعلم .

والصنف الثانى : العابد الجاهل ، فإن الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحه فيقتدون به على جهله ، وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف فى قوله : (احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم ، فإذا كان العلماء فجرة والعباد جهلة عمت المصيبة بهما ، وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة) .

والصنف الثالث : الذين لا علم لهم ولا عمل وإنما هم كالأنعام السائمة .

والصنف الرابع : نواب إبليس فى الأرض ، وهم الذين يثبطون الناس عن طلب العلم والتفقه فى الدين ، فهؤلاء أضر عليهم من شياطين الجن ، فإنهم يحولون بين القلوب وبين هدى الله وطريقه .

فهؤلاء الأربعة أصناف هم الذين ذكرهم هذا العارف ـ رحمة الله عليه ـ وهؤلاء كلهم على شفا جرف هار وعلى سبيل الهلكة . وما يلقى العالم الداعى إلى الله ورسوله ما يلقاه من الأذى والمحاربة إلا على أيديهم ، والله يستعمل من يشاء فى سخطه كما يستعمل من يحب فى مرضاته ، إنه بعباده خبير بصير ، ولا ينكشف سر هذه الطوائف وطريقتهم إلا بالعلم . فعاد الخير بحذافيره إلى العلم وموجبه ، والشر بحذافيره إلى الجهل وموجبه .

الوجه الخامس والثلاثون بعد المائة : أن الله ـ سبحانه ـ جعل العلماء وكلاء وأمناء على دينه ووحيه ،وارتضاهم لحفظه والقيام به والذب عنه ،وناهيك بها منزلة شريفة ومنقبة عظيمة ، قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩)** ﴾ [الأنعام] ،وقد قيل : إن هؤلاء القوم هم الأنبياء ، وقيل : أصحاب رسول الله ﷺ ،وقيل : كل مؤمن . هذه أمهات الأقوال بعد أقوال متفرعة عن هذه ، كقول من قال :هم الأنصار أو المهاجرون والأنصار ، أو قوم من أبناء فارس ، وقال آخرون : هم الملائكة . قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصواب أنهم الأنبياء الثمانية عشر الذين سماهم فى الآيات قبل هذه الآية . قال : وذلك أن الخبر فى الآيات قبلها عنهم مضى وفى التى بعدها عنهم ذكر ، فما يليها بأن يكون خبرا عنهم أولى وأحق بأن يكون خبرا عن غيرهم ، فالتأويل : فإن يكفر قومك من قريش يا محمد بآياتنا وكذبوا بها وجحدوا حقيقتها ، فقد استحفظناها ، واسترعينا القيام بها رسلنا وأنبياءنا من قبلك الذين لا يجحدون حقيقتها ، ولا يكذبون بها ، ولكنهم يصدقون بها ويؤمنون بصحتها .

قلت : السورة مكية ،والإشارة بقوله ﴿ **هَؤُلَاءِ** ﴾ إلى من كفر به من قومه أصلا ومن

عداهم تبعا ، فيدخل فيها كل من كفر بما جاء به من هذه الأمة . والقوم الموكلون بها هم الأنبياء أصلا والمؤمنون بهم تبعا ، فيدخل كل من قام بحفظها والذب عنها والدعوة إليها . ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلا وللمؤمنين بهم تبعا ، وأحق من دخل فيها من أتباع الرسول خلفاؤه فى أمته وورثته ، فهم الموكلون بها ، وهذا ينتظم فى الأقوال التى قيلت فى الآية .

وأما قول من قال : إنهم الملائكة ، فضعيف جدا ، لا يدل عليه السياق ، وتأباه لفظة (قوما) ، إذ الغالب فى القرآن بل المطرد تخصيص القوم ببنى آدم دون الملائكة .

وأما قول إبراهيم لهم : ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ فإنما قاله لما ظنهم من الإنس ، وأيضا فلا يقتضيه فخامة المعنى ومقصوده ؛ ولهذا لو أظهر ذلك وقيل : فإن يكفر بها كفار قومك فقد وكلنا بها الملائكة ، فإنهم لا يكفرون بها لم نجد منه من التسلية وتحقير شأن الكفرة بها ، وبيان عدم تأهلهم لها والإنعام عليهم ، وإيثار غيرهم من أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنى عليهم لكونهم أحق بها وأهلها ، والله أعلم حيث يضع هداه ويختص به من يشاء .

وأيضا ، فإن تحت هذه الآية إشارة وبشارة بحفظها ، وأنه لا ضيعة عليها ، وأن هؤلاء وإن ضيعوها ولم يقبلوها فإن لها قوما غيرهم يقبلونها ويحفظونها ، ويرعونها ويذبون عنها . فكفر هؤلاء بها لا يضيعها ولا يذهبها ولا يضرها شيئا ، فإن لها أهلا ومستحقا سواهم . فتأمل شرف هذا المعنى وجلالته ، وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها ، والمسارعة إلى قبولها ، وما تحته من تنبيههم على محبته لهم ، وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين ، وما تحته من احتقارهم وازدرائهم ، وعدم المبالاة والاحتفال بهم ، وإنكم وإن تؤمنوا بها فعبادى المؤمنون بها الموكلون بها سواكم كثير ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الإسراء] .

وإذا كان للملك عبيد قد عصوه وخالفوا أمره ولم يلتفتوا إلى عهده ، وله عبيد آخرون سامعون له مطيعون قابلون مستجيبون لأمره ، فنظر إليهم وقال : إن يكفر هؤلاء نعمى ويعصوا أمرى ويضيعوا عهدى ، فإن لى عبيدا سواهم وهم أنتم ، تطيعون أمرى وتحفظون عهدى ، وتؤدون حقى ، فإن عبيده المطيعين يجدون فى أنفسهم من الفرح والسرور والنشاط وقوة العزيمة ما يكون موجبا لهم المزيد من القيام بحق العبودية ، والمزيد من كرامة سيدهم ومالكهم ، وهذا أمر يشهد به الحس والعيان .

وأما توكيلهم بها فهو يتضمن توفيقهم للإيمان بها ،والقيام بحقوقها ،ومراعاتها والذب عنها والنصيحة لها ، كما يوكل الرجل غيره بالشىء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه و(بها)

الأولى متعلقة بوكلنا ، و (بها) الثانية متعلقة بكافرين ، والباء فى (بكافرين) لتأكيد النفى .

فإن قلت : فهل يصح أن يقال لأحد هؤلاء المؤكلين : إنه وكيل الله بهذا المعنى كما يقال : ولى الله .

قلت : لا يلزم من إطلاق فعل التوكل المقيد بأمر ما أن يصاغ منه اسم فاعل مطلق ، كما أنه لا يلزم من إطلاق فعل الاستخلاف المقيد أن يقال : خليفة الله لقوله : ﴿ **وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ** ﴾ [الاعراف : ١٢٩] وقوله : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ [النور : ٥٥] ، فلا يوجب هذا الاستخلاف أن يقال لكل منهم : إنه خليفة الله ؛ لأنه استخلاف مقيد . ولما قيل للصديق : يا خليفة الله ، قال : لست بخليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله وحسبى ذلك . ولكن يسوغ أن يقال : هو وكيل بذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا** ﴾ [الأنعام : ٨٩] .

والمقصود : أن هذا التوكيل خاص بمن قام بها علما وعملا وجهادا لأعدائها ، وذبا عنها ونفيا لتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين . وأيضا ، فهو توكيل رحمة وإحسان وتوفيق واختصاص لا توكيل حاجة ، كما يوكل الرجل من يتصرف عنه فى غيبته لحاجة إليه؛ ولهذا قال بعض السلف : (فقد وكلنا بها قوما) يقول : رزقناها قوما . فلهذا لا يقال لمن رزقها ورحم بها : أنه وكيل لله . وهذا بخلاف اشتقاق ولى الله من الموالاة ، فإنها المحبة والقرب ، فكما يقال : عبد الله وحبيبه ، يقال : وليه ، والله تعالى يوالى عبده إحسانا إليه ، وجبرا له ورحمة ، بخلاف المخلوق فإنه يوالى المخلوق لتعززه به وتكثره بموالاته لذل العبد وحاجته ، وأما العزيز الغنى فلا يوالى أحدا من ذل ولا حاجة ، قال تعالى : ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)** ﴾ [الإسراء] ، فلم ينف الولى نفيا عاما مطلقا ، بل نفى أن يكون له ولى من الذل ، وأثبت فى موضع آخر أن له أولياء بقوله : ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)** ﴾ [يونس] ، وقوله : ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، فهذا موالاة رحمة وإحسان وجبر ، والموالاة المنفية موالاة حاجة وذل ، يوضح هذا :

الوجه السادس والثلاثون بعد المائة : وهو ما روى عن النبى ﷺ من وجوه متعددة أنه قال : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » (١) ، فهذا الحمل المشار إليه فى هذا الحديث هو التوكل المذكور فى الآية ، فأخبر ﷺ أن العلم الذى جاء به يحمله عدول أمته من كل خلف حتى

(١) سبق تخريجه ص (٢٥٠) .

لا يضيع ويذهب ، وهذا يتضمن تعديله ﷺ لحملة العلم الذى بعث به ، وهو المشار إليه فى قوله :« هذا العلم » ، فكل من حمل العلم المشار إليه لابد وأن يكون عدلا ؛ ولهذا اشتهر عند الأمة عدالة نقلته وحملته اشتهارا لا يقبل شكا ولا امتراء . ولا ريب أن من عدله رسول الله ﷺ لا يسمع فيه جرح ، فالأئمة الذين اشتهروا عند الأمة بنقل العلم النبوى وميراثه كلهم عدول بتعديل رسول الله ﷺ ؛ ولهذا لا يقبل قدح بعضهم فى بعض ، وهذا بخلاف من اشتهر عند الأمة جرحه والقدح فيه ، كأئمة البدع ومن جرى مجراهم من المتهمين فى الدين ، فإنهم ليسوا عند الأمة من حملة العلم ، فما حمل علم رسول الله ﷺ إلا عدل ، ولكن قد يغلط فى مسمى العدالة ، فيظن أن المراد بالعدل من لا ذنب له وليس كذلك ، بل هو عدل مؤتمن على الدين ، وإن كان منه ما يتوب إلى الله منه فإن هذا لا ينافى العدالة كما لا ينافى الإيمان والولاية .

الوجه السابع والثلاثون بعد المائة : أن بقاء الدين والدنيا فى بقاء العلم ، وبذهاب العلم تذهب الدنيا والدين ، فقوام الدين والدنيا إنما هو بالعلم . قال الأوزاعى : قال ابن شهاب الزهرى : الاعتصام بالسنة نجاة ، والعلم يقبض قبضا سريعا ، فنعش العلم ثبات الدين والدنيا ، وذهاب العلم ذهاب ذلك كله . وقال ابن وهب : أخبرنى يزيد عن ابن شهاب قال : بلغنا عن رجال من أهل العلم أنهم كانوا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة ، والعلم يقبض قبضا سريعا ، فنعش العلم ثبات الدين والدنيا ، وذهاب العلم ذهاب ذلك كله .

الوجه الثامن والثلاثون بعد المائة : أن العلم يرفع صاحبه فى الدنيا والآخرة مالا يرفعه الملك ولا المال ولا غيرهما ، فالعلم يزيد الشريف شرفا ، ويرفع العبد المملوك حتى يجلسه مجالس الملوك ، كما ثبت فى الصحيح من حديث الزهرى عن أبى الطفيل : أن نافع بن عبد الحارث أتى عمر بن الخطاب بعسفان ، وكان عمر استعمله على أهل مكة ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادى ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبزى . فقال :من ابن أبزى ؟ فقال : رجل من موالينا . فقال عمر : استخلفت عليهم مولى، فقال : إنه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض ، فقال عمر : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين » [(١)] .

قال أبو العالية : كنت آتى ابن عباس وهو على سريره وحوله قريش ، فيأخذ بيدى فيجلسنى معه على السرير فتغامز بى قريش ، ففطن لهم ابن عباس فقال : كذا هذا العلم ،

---

(١) مسلم (٢٦٩) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها .

يزيد الشريف شرفا ، ويجلس المملوك على الأسرة .

وقال إبراهيم الحربى : كان عطاء بن أبى رباح عبدا أسود لامرأة من مكة ، وكان أنفه كأنه باقلاة ، قال : وجاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه ، فجلسوا إليه وهو يصلى ، فلما صلى انفتل إليهم ، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج ، وقد حول قفاه إليهم ، ثم قال سليمان لابنيه : قوما ، فقاما . فقال : يا بنى ،لا تنيا فى طلب العلم، فإنى لا أنسى ذلنا بين يدى هذا العبد الأسود . قال الحربى : وكان محمد بن عبد الرحمن الأوقص عنقه داخل فى بدنه ، وكان منكباه خارجين كأنهما زجان ، فقالت أمه : يا بنى ، لا تكون فى مجلس قوم إلا كنت المضحوك منه المسخور به ، فعليك بطلب العلم، فإنه يرفعك . فولى قضاء مكة عشرين سنة . قال : وكان الخصم إذا جلس إليه بين يديه يرعد حتى يقوم ، قال : ومرت به امرأة وهو يقول : اللهم اعتق رقبتى من النار ، فقالت له: يا ابن أخى ، وأى رقبة لك ؟

وقال يحيى بن أكثم : قال الرشيدى : ما أنبل المراتب ؟ قلت : ما أنت فيه يا أمير المؤمنين ،قال : فتعرف أجل منى ؟ قلت : لا ، قال : لكنى أعرفه ، رجل فى حلقة يقول: حدثنا فلان ، عن فلان ، عن رسول الله ﷺ . قال : قلت : يا أمير المؤمنين ، أهذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله ﷺ وولى عهد المؤمنين ؟ قال : نعم ويلك ، هذا خير منى لأن اسمه مقترن باسم رسول الله ﷺ ، لا يموت أبدا ونحن نموت ونفنى، والعلماء باقون ما بقى الدهر .

وقال خيثمة بن سليمان : سمعت أبى الخناجر يقول : كنا فى مجلس ابن هارون والناس قد اجتمعوا إليه ، فمر أمير المؤمنين فوقف علينا فى المجلس ، وفى المجلس ألوف ، فالتفت إلى أصحابه وقال : هذا الملك .

وفى تاريخ بغداد للخطيب : حدثنى أبو النجيب عبد الغفار بن عبد الواحد قال : سمعت الحسن بن على المقرى يقول : سمعت أبا الحسن بن فارس يقول : سمعت الأستاذ ابن العميد يقول : ما كنت أظن أن فى الدنيا حلاوة ألذ من الرياسة والوزارة التى أنا فيها، حتى شهدت مذاكرة سليمان بن أيوب بن أحمد الطبرانى وأبى بكر الجعابى بحضرتى ، فكان الطبرانى يغلب بكثرة حفظه ، وكان الجعابى يغلب الطبرانى بفطنته ، وزكا أهل بغداد حتى ارتفعت أصواتهم ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه ، فقال الجعابى : عندى حديث

ليس فى الدنيا إلا عندى ، فقال هاته ، فقال : حدثنا أبو خليف ، حدثنا سليمان بن أيوب، وحدث بالحديث . فقال الطبرانى : أنبأنا سليمان بن أيوب ، ومنى سمع أبو خليفة ، فاسمع من حتى يعلو إسنادك ، فإنك تروى عن أبى خليفة عنى . فخجل الجعابى وغلبه الطبرانى . قال ابن العميد : فوددت فى مكانى أن الوزارة والرياسة ليتها لم تكن لى وكنت الطبرانى ، وفرحت مثل الفرح الذى فرح الطبرانى لأجل الحديث ، أو كما قال .

وقال المزنى : سمعت الشافعى يقول : من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن نظر فى الفقه نبل مقداره ، ومن تعلم اللغة رق طبعه ، ومن تعلم الحساب جزل رأيه ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه . وقد روى هذا الكلام عن الشافعى من وجوه متعددة .

وقال سفيان الثورى : من أراد الدنيا والآخرة فعليه بطلب العلم . وقال عبد الله بن داود : سمعت سفيان الثورى يقول : إن هذا الحديث عز ، فمن أراد به الدنيا وجدها ، ومن أراد به الآخر وجدها .

وقال النضر بن شميل : من أراد أن يشرف فى الدنيا والآخرة فليتعلم العلم ، وكفى بالمرء سعادة أن يوثق به فى دين الله ، ويكون بين الله وبين عباده . وقال حمزة بن سعيد المصرى : لما حدث أبو مسلم اللخمى أول يوم حدث قال لابنه : كم فضل عندنا من أثمان غلاتنا ؟ قال : ثلاثمائة دينار ، قال : فرقها على أصحاب الحديث والفقراء شكرا أن أباك اليوم شهد على رسول الله ﷺ فقبلت شهادته . وفى (كتاب الجليس والأنيس) لأبى الفرج المعافى بن زكرياء الجريرى : حدثنا محمد بن الحسين بن دريد ، حدثنا أبو حاتم عن العتبى عن أبيه قال : ابتنى معاوية بالأبطح مجلسا ، فجلس عليه ومعه ابنه قرظة ، فإذا هو بجامعة على رحال لهم ، وإذا شاب منهم قد رفع عقيرته يتغنى :

من يساجلنى يساجل ماجدا ... يملأ الدلو إلى عقد الكرب

قال : من هذا ؟ قالوا : عبد الله بن جعفر ، قال : خلوا له الطريق ، ثم إذا هو بجامعة فيهم غلام يتغنى :

بينما يذكـــــرننى أبصرننى ... عند قيد الميل يسعى بى الأغر

قلن تعرفن الفتى قلن نعم ... قد عرفناه وهل يخفى القمـر

قال : من هذا ؟ قالوا : عمر بن أبى ربيعة ، قال : خلوا له الطريق فليذهب ، قال : ثم إذا هو بجماعة ، وإذا فيهم رجل يسأل ، فيقال له : رميت قبل أن أحلق ، وحلقت

قبل أن أرمى ، فى أشياء أشكلت عليهم من مناسك الحج ، فقال : من هذا ؟ قالوا : عبد الله بن عمر ، فالتفت إلى ابنه قرظة وقال : هذا وأبيك الشرف ، هذا والله شرف الدنيا والآخرة .

وقال سفيان بن عيينة : أرفع الناس منزلة عند الله من كان بين الله وبين عباده وهم الأنبياء والعلماء .

وقال سهل التسترى : من أراد أن ينظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء ، يجىء الرجل فيقول : يافلان ، أيش تقول فى رجل حلف على امرأته بكذا وكذا ، فيقول : طلقت امرأته . ويجىء آخر فيقول : حلفت بكذا وكذا ، فيقول : ليس يحنث بهذا القول . وليس هذا إلا لنبى أو عالم ، فاعرفوا لهم ذلك .

الوجه التاسع والثلاثون بعد المائة : أن النفوس الجاهلة التى لا علم عندها قد ألبست ثوب الذل والإزراء عليها ، والتنقص بها أسرع منه إلى غيرها ، وهذا أمر معلوم عند الخاص والعام . قال الأعمش : إنى لأرى الشيخ لا يروى شيئا من الحديث فاشتهى أن ألطمه . وقال معاوية : سمعت الأعمش يقول : من لم يطلب الحديث أشتهى أن أصفعه بنعلى . وقال هشام بن على : سمعت الأعمش يقول : إذا رأيت الشيخ لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث فاصفع له،فإنه من شيوخ القمراء. قال أبو صالح : قلت لأبى جعفر : ما شيوخ القمراء ؟ قال : شيوخ دهريون يجتمعون فى ليالى القمر ، يتذاكرون أيام الناس، ولا يحسن أحدهم أن يتوضأ للصلاة . وقال المزنى : كان الشافعى إذا رأى شيخا سأله عن الحديث والفقه ، فإن كان عنده شىء وإلا قال له : لا جزاك الله خيرا عن نفسك ولا عن الإسلام ، قد ضيعت نفسك ، وضيعت الإسلام .

وكان بعض خلفاء بنى العباس يلعب بالشطرنج فاستأذن عليه عمه ، فأذن له وغطى الرقعة ، فلما جلس قال له : ياعم ، هل قرأت القرآن ؟ قال : لا ، قال : هل كتبت شيئا من السنة ؟ قال : لا ، قال : فهل نظرت فى الفقه واختلاف الناس ؟ قال : لا ، قال : فهل نظرت فى العربية وأيام الناس ؟ قال : لا ، قال : فقال الخليفة : اكشف الرقعة . ثم أتم اللعب ، وزال احتشامه وحياؤه منه ، وقال له ملاعبه : يا أمير المؤمنين ، تكشفها ومعنا من تحتشم منه ، قال : اسكت فما معنا أحد .

وهذا لأن الإنسان إنما تميز عن سائر الحيوانات بما خص به من العلم والعقل والفهم ، فإذا عدم ذلك لم يبق فيه إلا القدر المشترك بينه وبين سائر الحيوانات وهى الحيوانية البهيمية ، ومثل هذا لا يستحى منه الناس ، ولا يمنعون بحضرته وشهوده مما يستحيا منه من أولى الفضل والعلم .

الوجه الأربعون بعد المائة : أن كل صاحب بضاعة سوى العلم إذا علم أن غير بضاعته خير منها زهد فى بضاعته ، ورغب فى الأخرى ، وود أنها له عوض بضاعته إلا صاحب بضاعة العلم ، فإنه ليس يحب أن له بحظه منها حظ أصلا . وكان سفيان الثورى إذا رأى الشيخ لم يكتب الحديث قال : لا جزاك الله عن الإسلام خيرا .

قال أبو جعفر الطحاوى : كنت عند أحمد بن أبى عمران ، فمر بنا رجل من بنى الدنيا ، فنظرت إليه وشغلت به عما كنت فيه من المذاكرة ، فقال لى : كأنى بك قد فكرت فيما أعطى هذا الرجل من الدنيا ، قلت له : نعم ، قال : هل أدلك على خلة ؟ هل لك أن يحول الله إليك ما عنده من المال ويحول إليه ما عندك من العلم فتعيش أنت غنيا جاهلا ويعيش هو عالما فقيرا ؟ فقلت : ما أختار أن يحول الله ما عندى من العلم إلى ما عنده ، فالعلم غنى بلا مال ، وعز بلا عشيرة ، وسلطان بلا رجال ، وفى ذلك قيل :

العلم كنز وذخـــــر لا نفاد لــه ... نعم القرين إذا ما صاحب صحبا
قد يجمع المرء مالا ثم يحـــــرمه ... عما قليل فيلقى الذل والحـــربا
وجامع العلم مغبوط به أبـــــدا ... ولا يحاذر منه الفـــوت والسلبا
يا جامـع العلم نعم الذخر تجمعه ... لا تعدلن بــه درا ولا ذهبـــــا

الوجه الحادى والأربعون بعد المائة : أن الله ـ سبحانه ـ أخبر أنه يجزى المحسنين أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ، وأخبر ـ سبحانه ـ أنه يجزى على الإحسان بالعلم ، وهذا يدل على أنه من أحسن الجزاء . أما المقام الأول ففى قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)** ﴾ [الزمر] ، وهذا يتناول الجزاءين الدنيوى والأخروى ، وأما المقام الثانى ففى قوله تعالى : ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)** ﴾ [يوسف] . قال الحسن : من أحسن عبادة الله فى شبيبته لقاه الله الحكمة عند كبر سنه ، وذلك قوله : ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤)** ﴾ [القصص] . ومن هذا قال بعض العلماء : تقول الحكمة : من التمسنى فلم يجدنى فليعمل بأحسن ما يعلم ، وليترك أقبح ما يعلم ، فإذا فعل ذلك فأنا معه وإن لم يعرفنى .

الوجه الثانى والأربعون بعد المائة : أن الله ـ سبحانه ـ جعل العلم للقلوب كالمطر للأرض ، فكما أنه لا حياة للأرض إلا بالمطر ، فكذلك لا حياة للقلب إلا بالعلم . وفى الموطأ قال لقمان لابنه : يابنى ، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله تعالى يحيى

القلوب الميتة بنور الحكمة ، كما يحيى الأرض بوابل المطر ؛ ولهذا فإن الأرض إنما تحتاج إلى المطر فى بعض الأوقات ، فإذا تتابع عليها احتاجت إلى انقطاعه ، وأما العلم فيحتاج إليه بعدد الأنفاس ، ولا تزيده كثرته إلا صلاحا ونفعا .

الوجه الثالث والأربعون بعد المائة : أن كثيرا من الأخلاق التى لا تحمد فى الشخص بل يذم عليها تحمد فى طالب العمل كالملق ، وترك الاستحياء والذل ، والتردد إلى أبواب العلماء ونحوها . قال ابن قتيبة : جاء فى الحديث : ليس الملق من أخلاق المؤمنين إلا فى طلب العلم . وهذا أثر عن بعض السلف . وقال ابن عباس : ذللت طالبا فعززت مطلوبا . وقال : وجدت عامة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحى من الأنصار ، إن كنت لأقيل عند باب أحدهم ولو شئت أذن لى ، ولكن أبتغى بذلك طيب نفسه .

وقال أبو إسحاق : قال على : كلمات لو رحلتم المطى فيهن لأفنيتموهن قبل أن تدركوا مثلهن : لا يرجون عبد إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه ، ولا يستحيى من لا يعلم أن يتعلم ، ولا يستحيى إذا سئل عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم ، واعلموا أن منزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد ، وإذا ذهب البصر ذهب الإيمان .

ومن كلام بعض العلماء : لا ينال العلم مستحى ولا متكبر ، هذا يمنعه حياؤه من التعلم ، وهذا يمنعه كبره ، وإنما حمدت هذه الأخلاق فى طلب العلم لأنها طريق تحصيله ، فكانت من كمال الرجل ومفضية إلى كماله . ومن كلام الحسن : من استتر عن طلب العلم بالحياء لبس للجهل سربالة ، فاقطعوا سرابيل الحياء ، فإنه من رق وجهه رق عمله . وقال الخليل : منزلة الجهل بين الحياء والأنفة . ومن كلام على رضى الله تعالى عنه : قرنت الهيبة بالخيبة ، والحياء بالحرمان . وقال إبراهيم لمنصور : سل مسألة الحمقى ، واحفظ حفظ الأكياس ، وكذلك سؤال الناس هو عيب ونقص فى الرجل ، وذلة تنافى المروءة إلا فى العلم ، فإنه عين كماله ومروءته وعزه . كما قال بعض أهل العلم : خير خصال الرجل السؤال عن العلم . وقيل : إذا جلست إلى عالم فسل تفقها لا تعنتا .

وقال رؤبة بن العجاج : أتيت النسابة البكرى فقال : من أنت ؟ قلت : أنا ابن العجاج . قال : قصرت وعرفت ، لعلك كقوم إن سكت لم يسألونى ، وإن تكلمت لم يعوا عنى . قلت : أرجو ألا أكون كذلك . قال : ما أعداء المروءة ؟ قلت : تخبرنى قال : بنو عم السوء ، إن رأوا حسنا ستروه ، وإن رأوا سيئا أذاعوه . ثم قال : إن العلم آفة ونكدا وهجنة ، فآفته نسيانه ، وهجنته نشره عند غير أهله . وأنشد ابن الأعرابى :

ما أقرب الأشياء حين يسوقها ... قدروا بعدها إذا لم تقدر
فسل الفقيه تكن فقيها مثله ... من يسع فى علم بذل يمهر
فتدبر العلم الذى تفتى به ... لا خير فى علم بغير تدبر
ولقد يجد المرء وهو مقصر ... ويخيب جد المرء غير مقصر
ذهب الرجال المقتدى بفعالهم ... والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت فى خلف يزين بعضهم ... بعضا ليدفع معور عن معور

وللعلم ست مراتب :

أولها : حسن السؤال .

الثانية : حسن الإنصات والاستماع .

الثالثة : حسن الفهم .

الرابعة : الحفظ .

الخامسة : التعليم .

السادسة ـ وهى ثمرته : وهى العمل به ومراعاة حدوده .

فمن الناس من يحرمه لعدم سؤاله ، إما لأنه لا يسأل بحال أو يسأل عن شىء وغيره أهم إليه منه ، كمن يسأل عن فضوله التى لا يضر جهله بها ، ويدع مالا غنى له عن معرفته . وهذه حال كثير من الجهال المتعلمين . ومن الناس من يحرمه لسوء إنصاته ، فيكون الكلام والممارات آثر عنده وأحب إليه من الإنصات ، وهذه آفة كامنة فى أكثر النفوس الطالبة للعلم ، وهى تمنعهم علما كثيرا ولو كان حسن الفهم .

ذكر ابن عبد البر عن بعض السلف أنه قال : من كان حسن الفهم ردىء الاستماع ، لم يقم خيره بشره . وذكر عبد الله بن أحمد فى (كتاب العلل) له قال : كان عروة بن الزبير يحب مماراة ابن عباس ، فكان يخزن علمه عنه ، وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يلطف له فى السؤال فيعزه بالعلم عزا . وقال ابن جريج : لم أستخرج العلم الذى استخرجت من عطاء إلا برفقى به . وقال بعض السلف : إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول . وقد قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق] .

فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم ، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى ؟ وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها ؟ فإنه ـ سبحانه ـ أمر

عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة ، بما تكون تذكرة لمن كان له قلب ، فإن من عدم القلب الواعى عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه ولو مرت به كل آية ، ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها على من لا بصر له ، فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات ، فإنه يراها ، ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين : أحدهما : أن يحضره ويشهده لما يلقى إليه. فإن كان غائبا عنه مسافرا فى الأمانى والشهوات والخيالات لا ينتفع به ، فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقى سمعه ويصغى بكليته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه .

وهاهنا ثلاثة أمور : أحدها : سلامة القلب وصحته وقبوله . الثانى : إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق . الثالث : إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال على الذكر . فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة فى هذه الآية . قال ابن عطية : القلب هنا عبارة عن العقل إذ هو محله ، والمعنى : لمن كان له قلب واع ينتفع به . قال : وقال الشبلى : قلب حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفة عين . وقوله : ﴿ **أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ معناه : صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة وأثبته فى سمعه ، فذلك إلقاء له عليها ، ومنه قوله : ﴿**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي** ﴾ أى أثبتها عليك ، وقوله : ﴿ **وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ قال بعض المتأولين : معناه : وهو شاهد مقبل على الأمر ، غير معرض عنه ولا مفكر فى غير ما يسمع . قال : وقال قتادة : هى إشارة إلى أهل الكتاب ، فكأنه قال : إن هذه العبر لتذكرة لمن له فهم فتدبر الأمر ، أو لمن سمعها من أهل الكتاب فشهد بصحتها ؛ لعلمه بها من كتابه التوراة وسائر كتب بنى إسرائيل . قال : فشهيد على التأويل الأول من المشاهدة ، وعلى التأويل الثانى من الشهادة . وقال الزجاج : معنى ﴿ **لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ** ﴾ [ق : ٣٧] : من شرف قلبه إلى التفهم ، ألا ترى أن قوله : ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ** ﴾ [البقرة : ١٨] أنهم لم يستمعوا استماع مستفهم مسترشد ، فجعلوا بمنزلة من لم يسمع كما قال الشاعر :

أصم عما ساءه سميع

ومعنى ﴿ **أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ** ﴾ استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يستمع ، والعرب تقول : ألق إلىَّ سمعك : أى استمع منى ، ﴿ **وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ أى : قلبه فيما يسمع ، وجاء فى التفسير : أنه يعنى به أهل الكتاب الذين عندهم صفة النبى ﷺ فالمعنى : ﴿ **أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ [ق : ٣٧] : أشاهد أن صفة النبى ﷺ فى كتابه ، وهذا هو الذى حكاه ابن عطية عن قتادة ، وذكر أن شهيدا فيه بمعنى شاهد أى مخبر . وقال صاحب الكشاف : لمن كان له قلب واع ؛ لأن من لا يعى قلبه فكأنه لا قلب له ، وإلقاء السمع الإصغاء ، ﴿ **وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ : أى حاضر بفطنته ؛ لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب ، أو هو مؤمن شاهد

على صحته وأنه وحى من الله ، وهو بعض الشهداء فى قوله : ﴿ **لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، وعن قتادة : وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعته عنده ، فلم يختلف فى أن المراد بالقلب الواعى ، وأن المراد بإلقاء السمع إصغاؤه وإقباله على المذكر ، وتفريغ سمعه له .

واختلف فى الشهيد على أربعة أقوال ، أحدها : أنه من المشاهدة وهى الحضور ، وهذا أصح الأقوال ، ولا يليق بالآية غيره . الثانى : أنه شهيد من الشهادة ، وفيه على هذا ثلاثة أقوال : أحدها : أنه شاهد على صحة مامعه من الإيقان ، الثانى : أنه شاهد من الشهداء على الناس يوم القيامة ، الثالث : أنه شهادة من الله عنده على صحة نبوة رسول الله ﷺ بما علمه من الكتب المنزلة .

والصواب القول الأول ، فإن قوله : ﴿ **وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ جملة حالية والواو فيها واو الحال ، أى ألقى السمع فى هذه الحال ، وهذا يقتضى أن يكون حال إلقائه السمع شهيدا ، وهذا هو من المشاهدة والحضور ، ولو كان المراد به الشهادة فى الآخرة أو الدنيا لما كان لتقييدها بإلقاء السمع معنى ، إذ يصير الكلام : إن فى ذلك لآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع حال كونه شاهدا بما معه فى التوراة ، أو حال كونه شاهدا يوم القيامة . ولا ريب أن هذا ليس هو المراد بالآية . وأيضا فالآية عامة فى كل من له قلب وألقى السمع ، فكيف يدعى تخصيصها بمؤمنى أهل الكتاب الذين عندهم شهادة من كتبهم على صفة النبى ﷺ . وأيضا فالسورة مكية ، والخطاب فيها لا يجوز أن يختص بأهل الكتاب ، ولا سيما مثل هذا الخطاب الذى علق فيه حصول مضمون الآية ومقصودها بالقلب الواعى وإلقاء السمع ، فكيف يقال : هى فى أهل الكتاب ؟

فإن قيل : المختص بهم قوله : ﴿ **وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ فهذا أفسد وأفسد ؛ لأن قوله : ﴿ **وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ يرجع الضمير فيه إلى جملة من تقدم وهو من له قلب أو ألقى السمع ، فكيف يدعى عوده إلى شىء غايته أن يكون بعض المذكور أولا ولا دلالة فى اللفظ عليه ؟ وأيضا ، فإن المشهود به محذوف ولا دلالة فى اللفظ عليه ، فلو كان المراد به وهو شاهد بكذا لذكر المشهود به ، إذ ليس فى اللفظ ما يدل عليه ، وهذا بخلاف ما إذا جعل من الشهود وهو الحضور ، فإنه لا يقتضى مفعولا مشهودا به ليتم الكلام بذكره وحده . وأيضا ، فإن الآية تضمنت تقسيما وترديدا بين قسمين ؛ أحدهما : من كان له قلب ، والثانى : من ألقى السمع وحضر بقلبه ولم يغب ، فهو حاضر القلب ، شاهده لا غائبه . وهذا ـ والله أعلم ـ سر الإتيان بأو دون الواو ؛ لأن المنتفع بالآيات من الناس نوعان :

أحدهما : ذو القلب الواعى الزكى ، الذى يكتفى بهدايته بأدنى تنبيه ، ولا يحتاج إلى أن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاته ، بل قلبه واع زكى ، قابل للهدى غير معرض عنه ، فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط ؛ لكمال استعداده وصحة فطرته ، فإذا جاءه الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه مكتوبا فيه ، فهو قد أدركه مجملا ، ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملا ، وهذه حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل ، كما هى حال الصديق الأكبر رضي الله عنه .

والنوع الثانى : من ليس له هذا الاستعداد والقبول ، فإذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه ، وأحضر قلبه ، وجمع فكرته عليه ، وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله . وهذه طريقة أكثر المستجيبين ، ولهم نوع ضرب الأمثال وإقامة الحجج ، وذكر المعارضات والأجوبة عنها . والأولون هم الذين يدعون بالحكمة ، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة ، فهؤلاء نوعا المستجيبين .

وأما المعارضون المدعون للحق فنوعان : نوع يدعون بالمجادلة بالتى هى أحسن ، فإن استجابوا وإلا فالمجالدة . فهؤلاء لابد لهم من جدال أو جلاد . ومن تأمل دعوة القرآن وجدها شاملة لهؤلاء الأقسام ، متناولة لها كلها ، كما قال تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل : ١٢٥] فهؤلاء المدعوون بالكلام ، وأما أهل الجلاد فهم الذين أمر الله بقتالهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله .

وأما من فسر الآية بأن المراد بمن كان له قلب : هو المستغنى بفطرته عن علم المنطق ، وهو المؤيد بقوة قدسية ينال بها الحد الأوسط بسرعة ، فهو لكمال فطرته مستغن عن مراعات أوضاع المنطق ، والمراد بمن ألقى السمع وهو شهيد : من ليست له هذه القوة ـ فهو محتاج إلى تعلم المنطق ليوجب له مراعاته ، وإصغاؤه إليه ألا يزيغ فى فكره . وفسر قوله : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ** ﴾ : أنها القياس البرهانى ، و ﴿ **وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ : القياس الخطابى ، و ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ : القياس الجدلى . فهذا ليس من تفاسير الصحابة ولا التابعين ، ولا أحد من أئمة التفسير ، بل ولا من تفاسير المسلمين ، وهو تحريف لكلام الله تعالى ، وحمل له على اصطلاح المنطقية المبخوسة الحظ من العقل والإيمان . وهذا من جنس تفاسير القرامطة والباطنية وغلاة الإسماعيلية لما يفسرونه من القرآن ، وينزلونه على مذاهبهم الباطلة ، والقرآن برىء من ذلك كله ، منزه عن هذه الأباطيل والهذيانات . وقد ذكرنا بطلان ما فسر به المنطقيون هذه الآية التى نحن فيها والآية الأخرى فى موضع آخر من وجوه متعددة ، وبينا بطلانه عقلا وشرعا ولغة وعرفا ، وأنه

يتعالى كلام الله عن حمله على ذلك ، وبالله التوفيق .

والمقصود : بيان حرمان العلم من هذه الوجوه الستة : أحدها : ترك السؤال . الثانى : سوء الانصات وعدم إلقاء السمع . الثالث : سوء الفهم . الرابع : عدم الحفظ . الخامس : عدم نشره وتعليمه ، فإن من خزن علمه ولم ينشره ولم يعلمه ابتلاه الله بنسيانه وذهابه منه ، جزاء من جنس عمله ، وهذا أمر يشهد به الحس والوجود . السادس : عدم العمل به ، فإن العمل به يوجب تذكره وتدبره ومراعاته والنظر فيه ، فإذا أهمل العمل به نسيه .

قال بعض السلف : كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به . وقال بعض السلف أيضا : العلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه حل وإلا ارتحل ، فالعمل به من أعظم أسباب حفظه وثباته ، وترك العمل به إضاعة له ، فما استدر العلم ولا استجلب بمثل العمل ، قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ** ﴾ [الحديد : ٢٨] ، وأما قوله تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** ﴾ [البقرة : ٢٨٢] فليس من هذا الباب ، بل هما جملتان مستقلتان ، طلبية وهى الأمر بالتقوى ، وخبرية وهى قوله تعالى : ﴿ **وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** ﴾ أى : والله يعلمكم ما تتقون ، وليست جوابا للأمر بالتقوى ، ولو أريد بها الجزاء لأتى بها مجزومة مجردة عن الواو فكان يقول : واتقوا الله يعلمكم أو إن تتقوه يعلمكم ، كما قال : ﴿ **إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً** ﴾ [الانفال : ٢٩] فتدبره .

الوجه الرابع والأربعون بعد المائة : أن الله ـ سبحانه ـ نفى التسوية بين العالم وغيره ، كما نفى التسوية بين الخبيث والطيب ، وبين الأعمى والبصير ، وبين النور والظلمة ، وبين الظل والحرور ، وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وبين الأبكم العاجز الذى لا يقدر على شىء ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، وبين المؤمنين والكفار ، وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين فى الأرض ، وبين المتقين والفجار . فهذه عشرة مواضع فى القرآن نفى فيها التسوية بين هؤلاء الأصناف ، وهذا يدل على أن منزلة العالم من الجاهل كمنزلة النور من الظلمة ، والظل من الحرور ، والطيب من الخبيث ، ومنزلة كل واحد من هذه الأصناف مع مقابله ، وهذا كاف فى شرف العلم وأهله ، بل إذا تأملت هذه الأصناف كلها وجدت نفى التسوية بينها راجعا إلى العلم وموجبه ، فبه وقع التفضيل ، وانتفت المساواة .

الوجه الخامس والأربعون بعد المائة : أن سليمان لما توعد الهدهد بأن يعذبه عذابا شديدا أو يذبحه ، إنما نجا منه بالعلم ، وأقدم عليه فى خطابه له بقوله : ﴿ **أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ** ﴾ [النمل : ٢٢] خبرا . وهذا الخطاب إنما جرأه عليه العلم ، وإلا فالهدهد مع

ضعفه لا يتمكن من خطابه لسليمان مع قوته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم . ومن هذا الحكاية المشهورة : أن بعض أهل العلم سئل عن مسألة فقال : لا أعلمها ، فقال : أحد تلامذته : أنا أعلم هذه المسألة . فغضب الأستاذ وهم به ، فقال له : أيها الأستاذ ، لست أعلم من سليمان بن داود ولو بلغت فى العلم ما بلغت ، ولست أنا أجهل من الهدهد وقد قال لسليمان : ﴿ **أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ** ﴾ فلم يعتب عليه ولم يعنفه .

الوجه السادس والأربعون بعد المائة : أن من نال شيئا من شرف الدنيا والآخرة فإنما ناله بالعلم . وتأمل ما حصل لآدم من تميزه على الملائكة ، واعترافهم له بتعليم الله له الأسماء كلها ، ثم ما حصل له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكنى الجنة بما هو خير له منها بعلم الكلمات التى تلقاها من ربه . وما حصل ليوسف من التمكين فى الأرض والعزة والعظمة بعلمه بتعبير تلك الرؤيا ، ثم علمه بوجوه استخراج أخيه من إخوته بما يقرون به ويحكمون هم به ، حتى آل الأمر إلى ما آل إليه من العز والعاقبة الحميدة وكمال الحال التى توصل إليها بالعلم ، كما أشار إليها ـ سبحانه ـ فى قوله : ﴿ **كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)** ﴾ [يوسف] جاء فى تفسيرها : نرفع درجات من نشاء بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته بالعلم . وقال فى إبراهيم ﷺ : ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ** ﴾ [الأنعام : ٨٣] فهذه رفعة بعلم الحجة ، والأول رفعة بعلم السياسة . وكذلك ما حصل للخضر بسبب علمه من تلمذة كليم الرحمن له وتلطفه معه فى السؤال ، حتى قال: ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦)** ﴾ [الكهف] . وذلك ما حصل لسليمان من علم منطق الطير حتى وصل إلى ملك سبأ وقهر ملكتهم واحتوى على سرير ملكها ودخولها تحت طاعته ولذلك قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦)** ﴾ [النمل]. وكذلك ما حصل لداود من علمه نسج الدروع من الوقاية من سلاح الأعداء، وعدد ـ سبحانه ـ هذه النعمة بهذا العلم على عباده فقال: ﴿ **وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠)** ﴾ [الانبياء]. وكذلك ما حصل للمسيح من علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ما رفعه الله به إليه وفضله وكرمه. وكذلك ما حصل لسيد ولد آدم من العلم الذى ذكره الله به نعمة عليه فقال: ﴿**وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** ﴾ [النساء : ١١٣] .

الوجه السابع والأربعون بعد المائة : أن الله ـ سبحانه ـ أثنى على إبراهيم خليله بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ** ﴾ [النحل] فهذه أربع أنواع من الثناء ، افتتحها بأنه أمة ، والأمة هو القدوة الذى يؤتم به .

قال ابن مسعود : والأمة المعلم للخير . وهى فعلة من الائتمام كقدوة ، وهو الذى يقتدى به .

الثانى : قوله : ﴿ قَانِتًا لِلَّهِ ﴾ : قال ابن مسعود : القانت المطيع ، والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة .

الثالث : قوله : ﴿ حَنِيفًا ﴾ : والحنيف المقبل على الله ، ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه ، فالميل لازم معنى الحنيف لا أنه موضوعه لغة .

الرابع : قوله : ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ﴾ : والشكر للنعم مبنى على ثلاثة أركان : الأقرار بالنعمة وإضافتها إلى المنعم بها ، وصرفها فى مرضاته ، والعمل فيها بما يجب . فلا يكون العبد شاكرا إلا بهذه الأشياء الثلاثة . والمقصود : أنه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه ، وتعليمه ونشره ، فعاد الكمال كله إلى العلم ، والعمل بموجبه، ودعوة الخلق إليه .

الوجه الثامن والأربعون بعد المائة : قوله ـ سبحانه ـ عن المسيح أنه قال : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم] . قال سفيان بن عيينة : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ : قال : معلما للخير ، وهذا يدل على أن تعليم الرجل الخير هو البركة التى جعلها الله فيه ، فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه ، وهذا فى الحقيقة ليس إلا فى العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه ؛ ولهذا سمى ـ سبحانه ـ كتابه مباركا ، كما قال تعالى : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ [الأنبياء : ٥٠] ، وقال : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ [ص : ٢٩] . ووصف رسوله بأنه مبارك كما فى قول المسيح : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم : ٣١] فبركة كتابه ورسوله هى سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة إلى الله .

الوجه التاسع والأربعون بعد المائة : مافى الصحيح عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » رواه مسلم فى الصحيح (١) . وهذا من أعظم الأدلة على شرف العلم وفضله وعظم ثمرته ، فإن ثوابه يصل إلى الرجل بعد موته مادام ينتفع به ، فكأنه حى لم ينقطع عمله ، مع ماله من حياة الذكر والثناء، فجريان أجره عليه إذا انقطع عن الناس ثواب أعمالهم حياة ثانية . وخص النبى ﷺ هذه الأشياء الثلاثة بوصول الثواب إلى

(١) مسلم (١٦٣١ / ١٤) فى الوصية ، باب : ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته .

الميت لأنه سبب لحصولها ، والعبد إذا باشر السبب الذى يتعلق به الأمر والنهى يترتب عليه مسببه ، وإن كان خارجا عن سعيه وكسبه ، فلما كان هو السبب فى حصول هذا الولد الصالح والصدقة الجارية والعلم النافع ، جرى عليه ثوابه وأجره لتسببه فيه ، فالعبد إنما يثاب على ما باشره أو على ما تولد منه . وقد ذكر تعالى هذين الأصلين فى كتابه فى سورة براءة فقال : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)** ﴾ [التوبة] ، فهذه الأمور كلها متولدات عن أفعالهم غير مقدورة لهم ، وإنما المقدور لهم أسبابها التى باشروها ، ثم قال : ﴿ **وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)** ﴾ [التوبة] ، فالنفقة وقطع الوادى أفعال مقدورة لهم ، وقال فى القسم الأول : ﴿ **كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ** ﴾ إلا أن المتولد حاصل عن شيئين : أفعالهم وغيرها ، فليست أفعالهم سببا مستقلا فى حصول المتولد بل هى جزء من أجزاء السبب ، فيكتب لهم فى ذلك ما كان مقابلا لأفعالهم .

وأيضا ، فإن الظمأ والنصب وغيظ العدو ليس من أفعالهم فلا يكتب لهم نفسه ، ولكن لما تولد عن أفعالهم كتب لهم به عمل صالح . وأما القسم الآخر : وهو الأفعال المقدورة نفسها كالإنفاق وقطع الوادى فهو عمل صالح ، فيكتب لهم نفسه ، إذ هو مقدور لهم ، حاصل بإرادتهم وقدرتهم ، فعاد الثواب إلى الأفعال المقدورة والمتولد عنها ، وبالله التوفيق .

الوجه الخمسون بعد المائة : ماذكره ابن عبد البر عن عبد الله بن داود قال : إذا كان يوم القيامة عزل الله تبارك وتعالى العلماء عن الحساب ، فيقول : ادخلوا الجنة على ما كان فيكم ، إنى لم أجعل علمى فيكم إلا لخير أردته بكم . قال ابن عبد البر : وزاد غيره فى هذا الخبر : أن الله يحبس العلماء يوم القيامة فى زمرة واحدة حتى يقضى بين الناس ، ويدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، ثم يدعو العلماء فيقول : يامعشر العلماء ، إنى لم أضع حكمتى فيكم وأنا أريد أن أعذبكم ، قد علمت أنكم تخلطون من المعاصى ما يخلط غيركم فسترتها عليكم وغفرتها لكم ، وإنما كنت أعبد بفتياكم وتعليمكم عبادى ، ادخلوا الجنة بغير حساب . ثم قال : لا معطى لما منع ، ولا مانع لما أعطى . قال وروى نحو هذا المعنى بإسناد متصل مرفوع . وقد روى حرب الكرمانى فى مسائله نحوه مرفوعا ، وقال إبراهيم : بلغنى أنه إذا كان يوم القيامة توضع حسنات الرجل فى كفة ، وسيئاته فى الكفة الأخرى ، فتشيل حسناته ، فإذا يئس فطن أنها النار جاء شىء مثل السحاب حتى يقع من حسناته فتشيل سيئاته . قال : فيقال له : أتعرف هذا من عملك ؟ فيقول : لا ، فيقال : هذا ما علمت الناس من الخير فعمل به من بعدك .

فإن قيل : فقواعد الشرع تقتضى أن يسامح الجاهل بما لا يسامح به العالم ، وأنه يغفر له مالا يغفر للعالم ، فإن حجة الله عليه أقوم منها على الجاهل ، وعلمه بقبح المعصية وبغض الله لها وعقوبته عليها أعظم من علم الجاهل ، ونعمة الله عليه بما أودعه من العلم أعظم من نعمته على الجاهل ، وقد دلت الشريعة وحكم الله على أن من حبى بالإنعام وخص بالفضل والإكرام ثم أسام نفسه مع ميل الشهوات فأرتعها فى مراتع الهلكات ، وتجرأ على انتهاك الحرمات ، واستخف بالتبعات والسيئات ، أنه يقابل من الانتقام والعتب بما لا يقابل به من ليس فى مرتبته ، وعلى هذا جاء قوله تعالى : ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا** (٣٠) ﴾ [الاحزاب] ولهذا كان حد الحر ضعف حد العبد فى الزنا والقذف وشرب الخمر لكمال النعمة على الحر، ومما يدل على هذا : الحديث المشهور الذى أثبته أبو نعيم وغيره عن النبى ﷺ أنه قال : « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » (١) . قال بعض السلف : يغفر للجاهل سبعون ذنبا قبل أن يغفر للعالم ذنب . وقال بعضهم أيضا : إن الله يعافى الجهال ما لا يعافى للعلماء ؟

فالجواب : إن هذا الذى ذكرتموه حق لا ريب فيه ، ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضا : أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له فى الإسلام تأثير ظاهر فإنه يحتمل له مالا يحتمل لغيره ، ويعفى عنه مالا يعفى عن غيره ، فإن المعصية خبث ، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث ، بخلاف الماء القليل فإنه لا يحمل (٢) أدنى خبث . ومن هذا قول النبى ﷺ لعمر : « وما يدريك ، لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (٣) . وهذا هو المانع له ﷺ من قتل من جس عليه وعلى المسلمين ، وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم ، فأخبر ﷺ أنه شهد بدرا ، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم ، لكن منع من ترتب أثره عليه ماله من المشهد العظيم ، فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة فى جنب ما له من الحسنات .

ولما حض النبى ﷺ على الصدقة ، فأخرج عثمان رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة قال : «ماضر عثمان ما عمل بعدها » (٤) . وقال لطلحة ـ لما تطأطأ للنبى ﷺ حتى صعد على

---

(١) الهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١٩٠) وقال : رواه الطبرانى فى الصغير وفيه عثمان البرى ، قال الفلاس : صدوق لكنه كثير الغلط صاحب بدعة ، ضعفه أحمد والنسائى والدارقطنى .

(٢) هكذا بالأصل ولعلها : « يحمل » بالإثبات .

(٣) البخارى (٣٩٨٣) فى المغازى ، باب : فضل من شهد بدرا ، ومسلم (٢٤٩٤ / ١٦١) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم .

(٤) الترمذى (٣٧٠١) فى المناقب ، باب : فى مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقال الترمذى : « حسن غريب من هذا الوجه » ، وحسنه الألبانى ، وأحمد ٥ / ٦٣ .

ظهره إلى الصخرة : « أوجب طلحة »[1] . وهذا موسى كليم الرحمن عز وجل ، ألقى الألواح التى فيها كلام الله الذى كتبه له ، ألقاها على الأرض حتى تكسرت ، ولطم عين ملك الموت ففقأها ، وعاتب ربه ليلة الإسرى فى النبى ﷺ وقال : شاب بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى ، وأخذ بلحية هارون وجره إليه وهو نبى الله ، وكل هذا لم ينقص من قدره شيئا عند ربه ، وربه تعالى يكرمه ويحبه ، فإن الأمر الذى قام به موسى ، والعدو الذى برز له ، والصبر الذى صبره والأذى الذى أوذيه فى الله ، أمر لا تؤثر فيه أمثال هذه الأمور ، ولا تعير فى وجهه ، ولا تخفض منزلته .

وهذا أمر معلوم عند الناس ، مستقر فى فطرهم : أن من له ألوف من الحسنات فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها ، حتى أنه ليختلج داعى عقوبته على إساءته ، وداعى شكره على إحسانه ، فيغلب داعى الشكر لداعى العقوبة ، كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحـــد جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال آخر :

فإن يكن الفعل الذى ساء واحدا فأفعاله اللاتى سررن كثيـر

والله سبحانه يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته ، فأيهما غلب كان التأثير له، فيفعل بأهل الحسنات الكثيرة ـ الذين آثروا محابه ومراضيه وغلبتهم دواعى طبعهم أحيانا من العفو والمسامحة ـ مالا يفعله مع غيرهم .

وأيضا ، فإن العالم إذا زل فإنه يحسن إسراع الفيئة ، وتدارك الفارط ، ومداواة الجرح . فهو كالطبيب الحاذق البصير بالمرض وأسبابه وعلاجه ، فإن زواله على يده أسرع من زواله على يد الجاهل .

وأيضا ، فإن معه من معرفته بأمر الله وتصديقه بوعده ووعيده وخشيته منه ، وإزرائه على نفسه بارتكابه ، وإيمانه بأن الله حرمه وأن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به إلى غير ذلك من الأمور المحبوبة للرب ، ما يغمر الذنب ويضعف اقتضائه ويزيل أثره ، بخلاف الجاهل بذلك أو أكثره ، فإنه ليس معه إلا ظلمة الخطيئة وقبحها وآثارها المردية ، فلا يستوى هذا وهذا . وهذا فصل الخطاب فى هذا الموضع ، وبه يتبين أن الأمرين حق ، وأنه لا منافاة بينهما ، وأن كل واحد من العالم والجاهل إنما زاد قبح الذنب منه على الآخر بسبب جهله وتجرد خطيئته عما يقاومها ، ويضعف تأثيرها ، ويزيل أثرها ، فعاد القبح فى الموضعين إلى

---

(١) الترمذى (٣٧٣٨) فى المناقب ، باب : مناقب طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه ، وقال : « حسن صحيح غريب » ، وأحمد ١ / ١٦٥ ، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٤١٧) : « إسناده صحيح » .

الجهل وما يستلزمه ، وقلته وضعفه إلى العلم وما يستلزمه ، وهذا دليل ظاهر على شرف العلم وفضله ، وبالله التوفيق .

الوجه الحادى والخمسون بعد المائة : أن العالم مشتغل بالعلم والتعليم ، لا يزال فى عبادة . فنفس تعلمه وتعليمه عبادة . قال ابن مسعود : لا يزال الفقيه يصلى ، قالوا : وكيف يصلى ؟ قال : ذكر الله على قلبه ولسانه . ذكره ابن عبد البر . وفى حديث معاذ مرفوعا وموقوفا : تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله حسنة ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح . وقد تقدم ، والصواب أنه موقوف .

وذكر ابن عبد البر عن معاذ مرفوعا : لأن تغدو فتتعلم بابا من أبواب العلم خير لك من أن تصلى مائة ركعة . وهذا لا يثبت رفعه .

وقال ابن وهب : كنت عند مالك بن أنس ، فحانت صلاة الظهر أو العصر وأنا أقرأ عليه وأنظر فى العلم بين يديه ، فجمعت كتبى وقمت لأركع ، فقال لى مالك : ما هذا ؟ فقلت : أقوم إلى الصلاة ، فقال : إن هذا لعجب ، ما الذى قمت إليه أفضل من الذى كنت فيه إذا صحت فيه النية . وقال الربيع : سمعت الشافعى يقول : طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة .

وقال سفيان الثورى : ما من عمل أفضل من طلب العلم إذا صحت فيه النية .

وقال رجل للمعافى بن عمران : أيما أحب : الليل أقوم أصلى إليك كله أو أكتب الحديث ؟ فقال : حديث تكتبه أحب إلى من قيامك من أول الليل إلى آخره . وقال أيضا : كتابة حديث واحد أحب إلى من قيام ليلة .

وقال ابن عباس : تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها ،وفى مسائل إسحاق ابن منصور ، قلت لأحمد بن حنبل : قوله : تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلىَّ من إحيائها أى علم أراد ؟ قال : هو العلم الذى ينتفع به الناس فى أمر دينهم . قلت : فى الوضوء والصلاة والصوم والحج والطلاق ونحو هذا ؟ قال : نعم . قال إسحاق : وقال لى إسحاق بن راهويه هو كما قال أحمد .

وقال أبو هريرة : لأن أجلس ساعة فأتفقه فى دينى ، أحب إلى من إحياء ليلة إلى الصباح.

وذكر ابن عبد البر من حديث أبى هريرة يرفعه :« لكل شىء عماد ، وعماد هذا الدين الفقه ، وما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى الدين » (١) الحديث ، وقد تقدم .

وقال محمد بن على الباقر : عالم ينتفع بعلمه أفضل من ألف عابد ، وقال أيضا :

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١ / ٢٦ .

رواية الحديث وبثه فى الناس أفضل من عبادة ألف عابد . ولما كان طلب العلم والبحث عنه وكتابته والتفتيش عليه من عمل القلب والجوارح ، كان من أفضل الأعمال ، ومنزلته من عمل الجوارح كمنزلة أعمال القلب من الإخلاص والتوكل والمحبة والإنابة والخشية والرضا ونحوها من الأعمال الظاهرة .

الوجه الثانى والخمسون بعد المائة : مارواه الإمام أحمد والترمذى من حديث أبى كبشة الأنمارى قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا وعلما ، فهو يتقى فى ماله ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقا ، فهذا بأحسن المنازل عند الله . ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا ، فهو يقول : لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، وهما فى الأجر سواء . ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما ، فهو يخبط فى ماله ، ولا يتقى فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقا ، فهذا بأسوأ المنازل عند الله . ورجل لم يؤته الله مالا ولا علما ، فهو يقول : لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، وهما فى الوزر سواء » حديث صحيح ، صححه الترمذى والحاكم وغيرهما (١) .

فقسم النبى ﷺ أهل الدنيا أربعة أقسام : خيرهم من أوتى علما ومالا فهو محسن إلى الناس وإلى نفسه بعلمه وماله . ويليه فى المرتبة من أوتى علما ولم يؤت مالا وإن كان أجرهما سواء ، فذلك إنما كان بالنية ، وإلا فالمنفق المتصدق فوقه بدرجة الإنفاق والصدقة ، والعالم الذى لا مال له إنما ساواه فى الأجر بالنية الجازمة المقترن بها مقدورها وهو القول المجرد . الثالث : من أوتى مالا ولم يؤت علما فهذا أسوأ الناس منزلة عند الله ؛ لأن ماله طريق إلى هلاكه ، فلو عدمه لكان خيرا له ، فإنه أعطى ما يتزود به إلى الجنة ، فجعله زادا له إلى النار . الرابع : من لم يؤت مالا ولا علما ، ومن نيته أنه لو كان له مال لعمل فيه بمعصية الله ، فهذا يلى الغنى الجاهل فى المرتبة ، ويساويه فى الوزر بنيته الجازمة المقترن بها مقدورها ، وهو القول الذى لم يقدر على غيره . فقسم السعداء قسمين ، وجعل العلم والعمل بموجبه سبب سعادتهما . وقسم الأشقياء قسمين ، وجعل الجهل وما يترتب عليه سبب شقاوتهما ، فعادت السعادة بجملتها إلى العلم وموجبه ، والشقاوة بجملتها إلى الجهل وثمرته .

الوجه الثالث والخمسون بعد المائة : ما ثبت عن بعض السلف أنه قال : تفكر ساعة

---

(١) الترمذى (٢٣٢٥) فى الزهد ، باب : ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر ، وقال : « حسن صحيح » ، وصححه الألبانى، وأحمد ٤ / ٢٣١ .

خير من عبادة ستين سنة . وسأل رجل أم الدرداء بعد موته عن عبادته ، فقالت : كان نهاره أجمعه فى بادية التفكر . وقال الحسن : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وقال الفضل: التفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك .وقيل لإبراهيم : إنك تطيل الفكرة ، فقال : الفكرة مخ العقل . وكان سفيان كثيرا ما يتمثل :

إذا المرء كانت له فكرة ففى كل شىء له عبرة

وقال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] قال : أمنعهم التفكر فيها . وقال بعض العارفين : لوطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ماقدر فى حجب الغيب من خير الآخرة ، لم يصف لهم فى الدنيا عيش ، ولم تقر لهم فيها عين .وقال الحسن : طول الوحدة أتم للفكرة ، وطول الفكرة دليل على طريق الجنة . وقال وهب : ما طالت فكرة أحد قط إلا علم ، وما علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة فى نعم الله من أفضل العبادة . وقال عبد الله بن المبارك لبعض أصحابه ـ وقد رآه مفكرا : أين بلغت ؟ قال : الصراط وقال بشر : لو فكر الناس فى عظمة الله ما عصوه . وقال ابن عباس : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب . وقال أبو سليمان : الفكر فى الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية ، والفكرة فى الآخرة تورث الحكمة ، وتجلى القلوب . وقال ابن عباس : التفكر فى الخير يدعو إلى العمل به . وقال الحسن : إن أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر والفكر على الذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة . ومن كلام الشافعى : استعينوا على الكلام بالصمت ، وعلى الاستنباط بالفكرة . وهذا لأن الفكرة عمل القلب ، والعبادة عمل الجوارح ، والقلب أشرف من الجوارح ، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح .

وأيضا ، فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرد ، فإن التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له وتميز مراتبها فى الخير والشر ، ومعرفة مفضولها من فاضلها ، وأقبحها من قبيحها ، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها ، وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها ، والتمييز بين ما ينبغى السعى فى تحصيله وبين ما ينبغى السعى فى دفع أسبابه ، والفرق بين الوهم والخيال المانع لأكثر النفوس من انتهاز الفرص بعد إمكانها وبين السبب المانع حقيقة ، فيشتغل به دون الأول ، فما قطع العبد عن كماله وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطع أعظم من الوهم الغالب على النفس ، والخيال الذى هو مركبها ، بل بحرها الذى لا تنفك سابحة فيه ، وإنما يقطع هذا العارض بفكرة

صحيحة ، وعزم صادق يميز به بين الوهم والحقيقة .

وكذلك إذا فكر فى عواقب الأمور وتجاوز فكره مباديها وضعها مواضعها ، وعلم مراتبها ، فإذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة فتجاوز فكره لذته ، وفرح النفس به إلى سوء عاقبته ، وما يترتب عليه من الألم والحزن الذى لا يقاوم تلك اللذة والفرحة ، ومن فكر فى ذلك فإنه لا يكاد يقدم عليه ، وكذلك إذا ورد على قلبه وارد الراحة والدعة والكسل والتقاعد عن مشقة الطاعات وتعبها ، حتى عبر بفكره إلى ما يترتب عليها من اللذات والخيرات والأفراح التى تغمر تلك الآلام ، التى فى مباديها بالنسبة إلى كمال عواقبها ، وكلما غاص فكره فى ذلك اشتد طلبه لها ، وسهل عليه معاناتها ، واستقبلها بنشاط وقوة وعزيمة ، وكذلك إذا فكر فى منتهى ما يستعبده من المال والجاه والصور ، ونظر إلى غاية ذلك بعين فكره ، استحى من عقله ونفسه أن يكون عبدا لذلك ، كما قيل :

لو فكر العاشق فى منتهى حسن الذى يسبيه لم يسبه

وكذلك إذا فكر فى آخر الأطعمة المفتخرة التى تفانت عليها نفوس أشباه الأنعام ، وما يصير أمرها إليه عند خروجها ، ارتفعت همته عن صرفها إلى الاعتناء بها ، وجعلها معبود قلبه الذى إليه يتوجه ، وله يرضى ويغضب ، ويسعى ويكدح ، ويوالى ويعادى ، كما جاء فى المسند عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله جعل طعام ابن آدم مثل الدنيا ، وإن قزحه وملحه فإنه يعلم إلى ما يصير »(١) أو كما قال ﷺ . فإذا وقع فكره على عاقبة ذلك وآخر أمره ، وكانت نفسه حرة أبية ، ربأ بها أن يجعلها عبدا لما آخره أنتن شىء وأخبثه وأفحشه .

إذا عرف هذا ، فالفكر هو إحضار معرفتين فى القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة . ومثال ذلك : إذا أحضر فى قلبه العاجلة وعيشها ونعيمها وما يقترن به من الآفات وانقطاعه وزواله ، ثم أحضر فى قلبه الآخرة ونعيمها ولذته ودوامه وفضله على نعيم الدنيا وجزم بهذين العلمين ، أثمر له ذلك علما ثالثا وهو : أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كل عاقل بإيثاره من العاجلة المنقطعة المنغصة ، ثم له فى معرفة الآخرة حالتان :

إحداهما : أن يكون قد سمع ذلك من غيره من غير أن يباشر قلبه برد اليقين به ، ولم يفض قلبه إلى مكافحة حقيقة الآخرة . وهذا حال أكثر الناس ، فيتجاذبه داعيان : أحدهما داعى العاجلة وإيثارها ، وهو أقوى الداعيين عنده ؛ لأنه مشاهد له محسوس . وداعى الآخرة ، وهو أضعف الداعيين عنده ؛ لأنه داع عن سماع لم يباشر قلبه اليقين به ، ولا

(١) أحمد ٥ / ١٣٦ ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٢٩١) : « رجاله رجال الصحيح غير عتى ، وهو ثقة » .

كافحه حقيقته العلمية ، فإذا ترك العاجلة للآخرة تريه نفسه بأنه قد ترك معلوما لمظنون ، أو متحققا لموهوم ، فلسان الحال ينادى عليه : لا أدع ذرة منقودة لذرة موعودة . وهذه الآفة هى التى منعت النفوس من الاستعداد للآخرة ، وأن يسعى لها سعيها ، وهى من ضعف العلم بها وتيقنها ، وإلا فمع الجزم التام الذى لا يخالج القلب فيه شك لا يقع التهاون بها وعدم الرغبة فيها ؛ ولهذا لو قدم لرجل طعام فى غاية الطيب واللذة وهو شديد الحاجة إليه ، ثم قيل له : إنه مسموم ، فإنه لا يقدم عليه ؛ لعلمه بأن سوء ما تجنى عاقبة تناوله تربو فى المضرة على لذة أكله ، فما بال الإيمان بالآخرة ! لا يكون فى قلبه بهذه المنزلة ما ذاك إلا لضعف شجرة العلم والإيمان بها فى القلب ، وعدم استقرارها فيه . وكذلك إذا كان سائرا فى طريق فقيل له : إن بها قطاعا ولصوصا يقتلون من وجدوه ويأخذون متاعه ، فإنه لا يسلكها إلا على أحد وجهين : إما ألا يصدق المخبر ، وإما أن يثق من نفسه بغلبتهم وقهرهم والانتصار عليهم ، وإلا فمع تصديقه للخبر تصديقا لا يتمارى فيه ، وعلمه من نفسه بضعفه وعجزه عن مقاومتهم ، فإنه لا يسلكها ، ولو حصل له هذان العلمان فيما يرتكبه من إيثار الدنيا وشهواتها لم يقدم على ذلك ، فعلم أن إيثاره للعاجلة وترك استعداده للآخرة ، لا يكون قط مع كمال تصديقه وإيمانه أبدا .

الحالة الثانية : أن يتيقن ويجزم جزما لا شك فيه بأن له دارا غير هذه الدار ، ومعادا له خلق ، وإن هذه الدار طريق إلى ذلك المعاد ، ومنزل من منازل السائرين إليه ، ويعلم مع ذلك أنها باقية ونعيمها وعذابها لا يزول ، ولا نسبة لهذا النعيم والعذاب العاجل إليه إلا كما يدخل الرجل أصبعه فى اليم ثم ينزعها ، فالذى تعلق بها منه هو كالدنيا بالنسبة إلى الآخرة، فيثمر له هذا العلم إيثار الآخرة وطلبها والاستعداد التام لها ، وأن يسعى لها سعيها، وهذا يسمى تفكرا وتذكرا ، ونظرا وتأملا ، واعتبارا وتدبرا واستبصارا . وهذه معان متقاربة تجتمع فى شىء ، وتتفرق فى آخر .

ويسمى تفكرا ؛ لأنه استعمال الفكرة فى ذلك وإحضاره عنده . ويسمى تذكرا ؛ لأنه إحضار للعلم الذى يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** (٢٠١) ﴾ [الأعراف] . ويسمى نظرا ؛ لأنه التفات بالقلب إلى المنظور فيه . ويسمى تأملا ؛ لأنه مراجعة للنظر كرة بعد كرة حتى يتجلى له وينكشف لقلبه . ويسمى اعتبارا ، وهو افتعال من العبور ؛ لأنه يعبر منه إلى غيره ، فيعبر من ذلك الذى قد فكر فيه إلى معرفة ثالثة وهى المقصود من الاعتبار ؛ ولهذا يسمى عبرة ، وهى على بناء الحالات كالجلسة والركبة والقتلة ، إيذانا بأن هذا العلم والمعرفة قد صار حالا لصاحبه يعبر منه إلى المقصود به ، وقال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ**

﴿ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٢٦) ﴾ [النازعات] ، وقال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) ﴾ [النور]. ويسمى تدبرا ؛ لأنه نظر فى إدبار الأمور وهى أواخرها وعواقبها ، ومنه تدبر القول . وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون : ٦٨] ، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء] ، وتدبر الكلام أن ينظر فى أوله وآخره ثم يعيد نظره مرة بعد مرة ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين . وسمى استبصارا ، وهو استفعال من التبصر ، وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة .

وكل من التذكر والتفكر له فائدة غير فائدة الآخر ، فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ، ولا ينمحى فيذهب أثره من القلب جملة ، والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ماليس حاصلا عند القلب . فالتفكر يحصله والتذكر يحفظه ؛ ولهذا قال الحسن : مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة ، فالتفكر والتذكر بذار العلم ، وسقيه مطارحته ، ومذاكرته تلقيحه . كما قال بعض السلف : ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها . فالمذاكرة بها لقاح العقل ، فالخير والسعادة فى خزانة مفتاحها التفكر ، فإنه لابد من تفكر وعلم يكون نتيجته الفكر ، وحال يحدث للقلب من ذلك العلم ، فإن كل من علم شيئا من المحاب أو المكروه لابد أن يبقى لقلبه حالة ، وينصبغ بصبغة من علمه ، وتلك الحال توجب له إرادة ، وتلك الإرادة توجب وقوع العمل . فهاهنا خمسة أمور : الفكر ، وثمرته العلم ، وثمرتهما الحالة التى تحدث للقلب ، وثمرة ذلك الإرادة ، وثمرتها العمل . فالفكر إذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها ، وهذا يكشف لك عن فضل التفكر وشرفه ، وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له ، حتى قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة .

فالفكر هو الذى ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة ، ومن المكاره إلى المحاب ، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة ، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه ، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله والتجافى عن دار الغرور ، ومن مصيبة العمى والصمم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه ، ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وثلج الصدور .

وبالجملة ، فأصل كل طاعة إنما هى الفكر ، وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة ، فإن الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة فيبذر فيها حب الأفكار الردية ، فيتولد منه الإرادات ، والعزوم فيتولد منها العمل ، فإذا صادف أرض القلب مشغولة ببذر الأفكار النافعة فيما خلق له ، وفيما أمر به ، وفيم هيئ له وأعد له من النعيم

المقيم أو العذاب الأليم ، لم يجد لبذره موضعا ، وهذا كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا فارغا فتمكنا

فإن قيل : فقد ذكرتم الفكر ومنفعته وعظم تأثيره فى الخير والشر ، فما متعلقه الذى ينبغى أن يوقع عليه ويجرى فيه ، فإنه لا يتم المقصود منه إلا بذكر متعلقه الذى يقع الفكر فيه وإلا ففكر بغير متفكر فيه محال .

قيل : مجرى الفكر ومتعلقه أربعة أمور :

أحدها : غاية محبوبة مرادة الحصول .

الثانى : طريق موصلة إلى تلك الغاية .

الثالث : مضرة مطلوبة الإعدام مكروهة الحصول .

الرابع : الطريق المفضى إليها الموقع عليها ، فلا تتجاوز أفكار العقلاء هذه الأمور الأربعة ، وأى فكر تخطاها فهو من الأفكار الردية والخيالات والأمانى الباطلة ، كما يتخيل الفقير المعدم نفسه من أغنى البشر ، وهو يأخذ ويعطى ، وينعم ويحرم . وكما يتخيل العاجز نفسه من أقوى الملوك ، وهو يتصرف فى البلاد والرعية ، ونظير ذلك من أفكار القلوب الباطولية التى من جنس أفكار السكران والمحشوش والضعيف العقل ، فالأفكار الردية هى قوت الأنفس الخسيسة التى هى فى غاية الدناءة ، فإنها قد قنعت بالخيال ورضيت بالمحال ، ثم لا تزال هذه الأفكار تقوى بها وتتزايد حتى توجب لها آثارا ردية ، ووساوس وأمراضا بطيئة الزوال .

وإذا كان الفكر النافع لا يخرج عن الأقسام الأربعة التى ذكرناها ، فله أيضا محلان ومنزلان : أحدهما : هذه الدار والآخر: دار القرار ، فأبناء الدنيا الذين ليس لهم فى الآخرة من خلاق عمروا بيوت أفكارهم بتلك الأقسام الأربعة فى هذه الدار ، فأثمرت لهم أفكارهم فيها ما أثمرت ، ولكن إذا حقت الحقائق وبطلت الدنيا وقامت الآخرة ، تبين الرابح من المغبون ، وخسر هنالك المبطلون . وأبناء الآخرة الذين خلقوا لها عمروا بيوت أفكارهم على تلك الأقسام الأربعة فيها ، ونحن نفصل ذلك بعون الله وفضله فنقول :

كل طالب لشىء فهو محب له ، مؤثر لقربه ، ساع فى طريق تحصيله ، متوصل إليه بجهده . وهذا يوجب له تعلق أفكاره بجمال محبوبه وكماله وصفاته التى يحب لأجلها ، وتعلقها بما يناله به من الخير والفرح والسرور ، ففكره فى حال محبوبه دائر بين الجمال والإجمال والحسن والإحسان ، فكلما قويت محبته ازداد هذا الفكر وقوى وتضاعف حتى

يستغرق أجزاء القلب ، فلا يبقى فيه فضل لغيره ، بل يصير بين الناس بقالبه وقلبه كله فى حضرة محبوبه ، فإن كان هذا المحبوب هو المحبوب الحق الذى لا تنبغى المحبة إلا له ولا يحب غيره إلا تبعا لمحبته ، فهو أسعد المحبين به ، وقد وضع الحب موضعه ، وتهيأت نفسه لكمالها الذى خلقت له ، والذى لا كمال لها بدونه بوجه . وإن كانت تلك المحبة لغيره من المحبوبات الباطلة الملاشية التى تفنى وتبقى حزازات القلوب بها على حالها ، فقد وضع المحبة فى غير موضعها ، وظلم نفسه أعظم ظلم وأقبحه ، وتهيأت بذلك نفسه لغاية شقائها وألمها .

وإذا عرف هذا ، عرف أن تعلق المحبة بغير الإله الحق هو عين شقاء العبد وخسرانه ، فأفكاره المتعلقة بها كلها باطلة ، وهى مضرة عليه فى حياته وبعد موته ، والمحب الذى قد ملك المحبوب أفكار قلبه لا يخرج فكره عن تعلقه بمحبوبه أو بنفسه ، ثم فكره فى محبوبه لا يخرج عن حالتين : إحداهما : فكرته فى جماله وأوصافه . والثانية : فكرته فى أفعاله وإحسانه وبره ولطفه الدالة على كمال صفاته .

وإن تعلق فكره بنفسه لم يخرج أيضا عن حالتين : إما أن يفكر فى أوصافه المسخوطة ، التى يبغضها محبوبه ويمقته عليها ويسقطه من عينه ، فهو دائما يتوقع بفكره عليها ليتجنبها ويبعد منها . والثانية : أن يفكر فى الصفات والأخلاق والأفعال التى تقربه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها . فالفكرتان الأولتان توجب له زيادة محبته وقوتها وتضاعفها ، والفكرتان الآخرتان توجب محبة محبوبه له وإقباله عليه وقربه منه وعطفه عليه وإيثاره على غيره ، فالمحبة التامة مستلزمة لهذه الأفكار الأربعة . فالفكرة الأولى والثانية تتعلق بعلم التوحيد وصفات الإله المعبود ـ سبحانه ـ وأفعاله . والثالثة والرابعة تتعلق بالطريق الموصلة إليها وقواطعها وآفاتها ، وما يمنع من السير فيها إليه .

فتفكره فى صفات نفسه يميز له المحبوب لربه منها من المكروه له ، وهذه الفكرة توجب ثلاثة أمور : أحدها : أن هذا الوصف هل هو مكروه مبغوض لله أم لا ؟ الثانى : هل العبد متصف به أم لا ؟ والثالث : إذا كان متصفا به فما طريق دفعه والعافية منه ، وإن لم يكن متصفا به فما طريق حفظ الصحة وبقائه على العافية والاحتراز منه ؟

وكذلك الفكرة فى الصفة المحبوبة تستدعى ثلاثة أمور : أحدها : أن هذه الصفة هل هى محبوبة لله مرضية له أم لا ؟ الثانى : هل العبد متصف بها أم لا ؟ الثالث : أنه إذا كان متصفا بها فما طريق حفظها ودوامها ، وإن لم يكن متصفا بها فما طريق اجتلائها والتخلق بها ؟ ثم فكرته فى الأفعال على هذين الوجهين أيضا سواء ، ومجارى هذه الأفكار

ومواقعها كثيرة جدا لاتكاد تنضبط : و إنما يحصرها ستة أجناس : الطاعات الظاهرة والباطنة، والمعاصى الظاهرة والباطنة ، والصفات والأخلاق الحميدة ، والأخلاق والصفات الذميمة .

فهذه مجارى الفكرة فى صفات نفسه وأفعالها . وأما الفكرة فى صفات المعبود وأفعاله وأحكامه فتوجب له التمييز بين الإيمان والكفر ، والتوحيد والشرك ، والإقرار والتعطيل ، وتنزيه الرب عما لا يليق به ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام .

ومجارى هذه الفكرة تدبر كلامه وما تعرف به ـ سبحانه ـ إلى عباده على ألسنة رسله من أسمائه وصفاته وأفعاله ، وما نزه نفسه عنه مما لا ينبغى له ولا يليق به ـ سبحانه ـ وتدبر أيامه وأفعاله فى أوليائه وأعدائه التى قصها على عباده ، وأشهدهم إياها ليستدلوا بها على أنه إلههم الحق المبين ، الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، ويستدلوا بها على أنه على كل شىء قدير ، وأنه بكل شىء عليم ، وأنه شديد العقاب ، وأنه غفور رحيم ، وأنه العزيز الحكيم ، وأنه الفعال لما يريد ، وأنه الذى وسع كل شىء رحمة وعلما ، وأن أفعاله كلها دائرة بين الحكمة والرحمة ، والعدل والمصلحة ، لا يخرج شىء منها عن ذلك . وهذه الثمرة لا سبيل إلى تحصيلها إلا بتدبر كلامه ، والنظر فى آثار أفعاله .

وإلى هذين الأصلين ندب عباده فى القرآن فقال فى الأصل الأول : ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ** ﴾ [النساء : ٨٢] ، ﴿ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ** ﴾ [المؤمنون: ٦٨] ، ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ** ﴾ [ص : ٢٩] ، ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** (٢) ﴾ [يوسف] ، ﴿ **كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** (٣) ﴾ [فصلت] . وقال فى الأصل الثانى : ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [يونس : ١٠١] ، ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** (١٩٠) **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [آل عمران] ، ﴿ **إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ** (٣) **وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** (٤) **وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** (٥) ﴾ [الجاثية] ، ﴿ **أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ [الروم : ٩] ، ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ** ﴾ [الروم : ٤٢] ، ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ** (٢٠) **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (٢١) ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ**

﴿ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم] .

ونوع ـ سبحانه ـ الآيات فى هذه السور ، فجعل خلق السموات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم ؛ لاشتراكهم فى العلم بذلك ، وظهوره ووضوح دلالته ، وجعل خلق الأزواج التى تسكن إليها الرجال وإلقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون ، فإن سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة ، فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التى صدر عنها ذلك ، دله فكره على أنه الإله الحق المبين الذى أقرت الفطر بربوبيته وإلهيته وحكمته ورحمته .

وجعل المنام بالليل والنهار للتصرف فى المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون ، وهو سمع الفهم ، وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له ، مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم ، وقيامهم من قبورهم ، كما أحياهم ـ سبحانه ـ بعد موتهم وأقامهم للتصرف فى معاشهم . فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه ، واستدل بهذه الآية عليه .

وجعل إراءتهم البرق ، وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون ، فإن هذه أمور مرتبطة بالأبصار ، مشاهدة بالحس ، فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله ، استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته ، وإمكان ما أخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم كما أحيا هذه الأرض بعد موتها . وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل ، فإن الحس دل على الآية ، والعقل دل على ما جعلت له آية ، فذكر ـ سبحانه ـ الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) ﴾ [الروم] فتبارك الذى جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما فى الصدور .

وبالجملة ، فلا شىء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر ، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين ، وهو الذى يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر ، وسائر الأحوال التى بها حياة القلب وكماله ، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التى بها فساد القلب وهلاكه . فلو علم الناس مافى قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها ، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاج إليها فى شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم ، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن ، وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم

الآية إلى الصباح . وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح ، وهى قوله : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة] (١) . فقراءة القرآن بالتفكر هى أصل صلاح القلب ، ولهذا قال ابن مسعود : لاتهذوا القرآن هذ الشعر ، ولا تنثروه نثر الدقل ، وقفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب . لايكن هم أحدكم آخر السورة . وروى أبو أيوب عن أبى جمرة قال : قلت لابن عباس : إنى سريع القراءة ، إنى أقرأ القرآن فى ثلاث . قال : لأن أقرأ سورة من القرآن فى ليلة فأتدبرها وأرتلها ، أحب إلىَّ من أن أقرأ القرآن كما تقرأ .

والتفكر فى القرآن نوعان : تفكر فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه ، وتفكر فى معانى ما دعا عباده إلى التفكر فيه ، فالأول تفكر فى الدليل القرآنى ، والثانى تفكر فى الدليل العيانى . الأول تفكر فى آياته المسموعة ، والثانى تفكر فى آياته المشهودة ؛ ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به ، لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه . قال الحسن البصرى : أنزل القرآن ليعمل به ، فاتخذوا تلاوته عملا (٢) .

فصل

من منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « العلم » .

وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه فى الطريق إلى آخر قدم ينتهى إليه ، فسلوكه على غير طريق . وهو مقطوع عليه طريق الوصول ، مسدود عليه سبل الهدى والفلاح ، مغلقة عنه أبوابها . وهذا إجماع من الشيوخ العارفين ، ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق منهم ، ونواب إبليس وشُرطه .

قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد ـ رحمه الله (٣) : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ .

وقال : من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث ، لا يقتدى به فى هذا الأمر ؛ لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة .

---

(١) النسائى (١٠١٠) فى الافتتاح ، باب : ترديد الآية ، وابن ماجه (١٣٥٠) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : ما جاء فى القراءة فى صلاة الليل ، وحسنه الألبانى .

(٢) مفتاح دار السعادة (٤٨ ـ ١٨٧) .

(٣) الجنيد هو الإمام القدوة المحدث ، شيخ الصوفية ، الفقيه الفاضل ، والمحدث الصدوق (٤٦٦ ـ ٥٤٧) رحمه الله تعالى . سير أعلام النبلاء (١٥ / ٧٦) ط / دار الفكر .

وقال أبو حفص ـ رحمه الله : من لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسنة ، ولم يتهم خواطره ، فلا يعد فى ديوان الرجال .

وقال أبو سليمان الدارانى ـ رحمه الله : ربما يقع فى قلبى النكتة من نكت القوم أياما ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب ، والسنة .

وقال سهل بن عبد الله ـ رحمه الله : كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء ـ طاعة كان أو معصية ـ فهو عيش النفس . وكل فعل يفعله العبد بالاقتداء : فهو عذاب على النفس .

وقال السرى: التصوف اسم لثلاثة معان: لا يطفئ نور معرفته نور ورعه،ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب،ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله.

وقال أبو يزيد: عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدت شيئا أشد على من العلم ومتابعته ، ولولا اختلاف العلماء لبقيت ،واختلاف العلماء رحمة ،إلا فى تجريد التوحيد .

وقال مرة لخادمه : قم بنا إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالصلاح لنزوره ، فلما دخلا عليه المسجد تنخع ، ثم رمى بها نحو القبلة ، فرجع ولم يسلم عليه ، وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه ؟

وقال : لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفينى مؤنة النساء . ثم قلت : كيف يجوز لى أن أسأل الله هذا ، ولم يسأله رسول الله ﷺ ؟ ولم أسأله . ثم إن الله كفانى مؤنة النساء ، حتى لا أبالى استقبلتنى امرأة أو حائط .

وقال : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات إلى أن يرتفع فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة ؟

وقال أحمد بن أبى الحوارى ـ رحمه الله : من عمل عملا بلا اتباع سنة ، فباطل عمله .

وقال أبو عثمان النيسابورى ـ رحمه الله : الصحبة مع الله : بحسن الأدب ، ودوام الهيبة والمراقبة ، والصحبة مع الرسول ﷺ : باتباع سنته ، ولزوم ظاهر العلم ، ومع أولياء الله : بالاحترام والخدمة ، ومع الأهل : بحسن الخلق ، ومع الإخوان : بدوام البشر ، مالم يكن إثما ، ومع الجهال: بالدعاء لهم والرحمة .

زاد غيره : ومع الحَافِظَين [1] : بإكرامهما واحترامهما ،وإملائهما ما يحمدانك عليه ،

---

(١) يقصد الملكين الحَافَظين ، فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [ق] .

ومع النفس : بالمخالفة ، ومع الشيطان : بالعداوة .

وقال أبو عثمان أيضا : من أمَّر السنة على نفسه قولا وفعلا : نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا : نطق بالبدعة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور : ٥٤]

وقال أبو الحسين النووى : من رأيتموه يدعى مع الله عز وجل حالة تخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقربوا منه .

وقال محمد بن الفضل البامجى من مشايخ القوم الكبار : ذهاب الإسلام من أربعة : لا يعملون بما يعلمون ، ويعملون بما لا يعلمون ، ولا يتعلمون ما يعملون ويمنعون الناس من التعلم والتعليم .

وقال عمرو بن عثمان المكى: العلم قائد، والخوف سائق، والنفس حرون بين ذلك، جموح خداعة رواغة، فاحذرها وراعها بسياسة العلم، وسقها بتهديد الخوف: يتم لك ما تريد.

وقال أبو سعيد الخراز : كل باطن يخالفه الظاهر فهو باطل .

وقال ابن عطاء : من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب فى أوامره وأفعاله وأخلاقه .

وقال : كل ما سألت عنه فاطلبه فى مفازة العلم ، فإن لم تجده ففى ميدان الحكمة ، فإن لم تجده فزنه بالتوحيد ، فإن لم تجده فى هذه المواضع الثلاثة فاضرب به وجه الشيطان .

وألقى بُنان الحمال[1] بين يدى السبع ، فجعل السبع يشمه ولا يضره ، فلما أخرج قيل له: ما الذى كان فى قلبك حين شمك السبع ؟ قال : كنت أتفكر فى اختلاف العلماء فى سؤر السباع .

وقال أبوحمزة البغدادى : من أكابر الشيوخ ، وكان أحمد بن حنبل يقول له فى المسائل: ماتقول ياصوفى ؟ من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول ﷺ فى أحواله وأقواله وأفعاله .

ومر الشيخ أبو بكر محمد بن موسى الواسطى يوم الجمعة إلى الجامع ، فانقطع شسع نعله ، فأصلحه له رجل صيدلانى. فقال: تدرى لم انقطع شسع نعلى؟ فقلت: لا . فقال: لأنى ما اغتسلت للجمعة . فقال: ههنا حمام تدخله ؟ فقال : نعم . فدخل واغتسل .

---

(١) هو بُنان الحمّال ، الإمام المحدث الزاهد ، شيخ الإسلام أبو الحسن بن محمد بن حمدان بن سعيد الواسطى . السير (١١ / ٤٣٨) ط / دار الفكر .

وقال أبو إسحاق الرقى ـ من أقران الجنيد : علامة محبة الله : إيثار طاعته ، ومتابعة رسوله ﷺ .

وقال أبو يعقوب النهرجورى : أفضل الأحوال : ماقارن العلم .

وقال أبو القاسم النصراباذى ـ شيخ خراسان فى وقته : أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع ، وتعظيم كرامات المشايخ ، ورؤية أعذار الخلق ، والمداومة على الأوراد ، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات .

وقال أبو بكر الطمستانى ـ من كبار شيوخ الطائفة : الطريق واضح ، والكتاب والسنة قائم بين أظهرنا ، وفضل الصحابة معلوم ؛ لسبقهم إلى الهجرة ولصحبتهم ، فمن صحب الكتاب والسنة ، وتغرب عن نفسه وعن الخلق ، وهاجر بقلبه إلى الله : فهو الصادق المصيب .

وقال أبو عمرو بن نجيد : كل حال لا يكون عن نتيجة علم ، فإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه . وقال : التصوف الصبر تحت الأوامر والنواهى .

وكان بعض أكابر الشيوخ المتقدمين يقول : يامعشر الصوفية ، لاتفارقوا السواد فى البياض تهلكوا [١] .

فصل
ومن فضائل العلم

به تعرف الشرائع والأحكام ، ويتميز الحلال من الحرام ، وبه توصل الأرحام، وبه تعرف مراضى الحبيب ، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب .

وهو إمام ، والعمل مأموم . وهو قائد ، والعمل تابع . وهو الصاحب فى الغربة والمحدث فى الخلوة ، والأنيس فى الوحشة ، والكاشف عن الشبهة ، والغنى الذى لافقر على من ظفر بكنزه ، والكنف الذى لاضيعة على من آوى إلى حرزه .

مذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلبه قربة ، وبذله صدقة ، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام . والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام .

قال الإمام أحمد رضي الله عنه : الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب ؛ لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب فى اليوم مرة أو مرتين ، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٦٤ ـ ٤٦٨) .

ورويِنا عن الشافعى رضى الله تعالى عنه أنه قال : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة . ونص على ذلك أبو حنيفة ﷺ .

وقال ابن وهب : كنت بين يدى مالك ﷺ ، فوضعت ألواحى وقمت أصلى . فقال : ما الذى قمت إليه بأفضل مما قمت عنه . ذكره ابن عبد البر وغيره .

واستشهد الله عز وجل بأهل العلم على أجَلّ مشهود به وهو « التوحيد » ، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته . وفى ضمن ذلك تعديلهم ، فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يستشهد بمجروح .

ومن ههنا ـ والله أعلم ـ يؤخذ الحديث المعروف : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وتأويل المبطلين » (١) .

وهو حجة الله فى أرضه ، ونوره بين عباده ، وقائدهم ودليلهم إلى جنته ، ومدنيهم من كرامته .

ويكفى فى شرفه : أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها ، وتظلهم بها ، وأن العالم يستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض ، حتى الحيتان فى البحر ، وحتى النمل فى جحرها ، وأن الله وملائكته يصلون على معلمى الناس الخير .

ولقد رحل كليم الرحمن موسى بن عمران ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى طلب العلم هو وفتاه ، حتى مسهما النصب فى سفرهما فى طلب العلم ، حتى ظفر بثلاث مسائل ، وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به .

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) ﴾ [طه] .

وحرم الله صيد الجوارح الجاهلة ، وإنما أباح للأمة صيد الجوارح العالمة . فهكذا جوارح الإنسان الجاهل لا يجدى عليه صيدها من الأعمال شيئا ، والله سبحانه وتعالى أعلم (٢) .

فصل
ومن أسباب شرح الصدور

العلم ، فإنه يشرح الصدر يوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا ، والجهل يورثه الضيق

(١) سبق تخريجه ص (٢٥٠) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٧٠ ، ٤٧١) .

والحصر والحبس ، فكلما اتسع علم العبد انشرح صدره واتسع ، وليس هذا لكل علم ، بل للعلم الموروث عن الرسول ﷺ ، وهو العلم النافع ، فأهله أشرح الناس صدرا وأوسعهم قلوبا وأحسنهم أخلاقا وأطيبهم عيشا (١) .

فصل
فى تهذيب الأخلاق بالعلم

أما تهذيب الأخلاق بالعلم : فالمراد به إصلاحها وتصفيتها بموجب العلم ، فلا يتحرك بحركة ظاهرة أو باطنة إلا بمقتضى العلم ، فتكون حركات ظاهره وباطنه موزونة بميزان الشرع (٢) .

فصل
فى بيان فضل العالم

فإن قيل : قد ذكرتم : أن المحب يسامح بما لا يسامح به غيره ، ويعفى للولى عما لا يعفى لسواه . وكذلك العالم أيضا ، يغفر له مالا يغفر للجاهل ، كما روى الطبرانى بإسناد جيد ـ مرفوعا إلى النبى ﷺ : « إن الله ـ سبحانه ـ إذا جمع الناس يوم القيامة فى صعيد واحد ، قال للعلماء : إنى كنت أعبد بفتواكم ، وقد علمت أنكم كنتم تخلطون كما يخلط الناس ، وإنى لم أضع علمى فيكم وأنا أريد أن أعذبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم » (٣) هذا معنى الحديث . وقد روى مسندا ومرسلا .

فهذا الذى ذكرتم صحيح ، وهو مقتضى الحكمة والجود والإحسان ، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التى ورد التهديد بها فى حق أولئك إن وقع منهم مايكره ؟ كقوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ منكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ [الاحزاب : ٣٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (٧٥) ﴾ [الإسراء] أى : لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشىء ، ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب

---

(١) زاد المعاد (٢ / ٢٤) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٤٧٦) .

(٣) الطبرانى فى الصغير (٥٩١) ،وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ١٣١) : « رواه الطبرانى فى الكبير وفيه موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف جدا »، وقال الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٨٦٨) : « ضعيف جدا » .

الممات ؛ أى ضاعفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة . وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)** ﴾ [الحاقة] أى : لو أتى بشىء من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه ، وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه . وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه ، ومن التقول عليه سبحانه . وكم من راكن إلى أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعبأ به ، كأرباب البدع كلهم ، المتقولين على أسمائه وصفاته ودينه .

فالجواب: أن هذا أيضا حق ، ولا تنافى بين الأمرين . فإن من كملت عليه نعمة الله ، واختصه منها بما لم يختص به غيره : فى إعطائه منها ما حرمه غيره ، فحبى بالإنعام ، وخص بالإكرام . وخص بمزيد التقريب ، وجعل فى منزلة الولى الحبيب ، اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص : بأن يراعى مرتبته من أدنى مشوش وقاطع . فلشدة الاعتناء به ، ومزيد تقريبه ، واتخاذه لنفسه ، واصطفائه على غيره ، تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم ، ونعمه عليه أكمل ، والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره . فهو إذا غفل وأخل بمقتضى مرتبته نبه بما لم ينبه عليه البعيد البرانى ، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك أيضا . فيجتمع فى حقه الأمران .

وإذا أردت معرفة اجتماعهما ، وعدم تناقضهما ، فالواقع شاهد به . فإن الملك يسامح خاصته وأولياءه بما لم يسامح به من ليس فى منزلتهم ، ويأخذهم ، ويؤدبهم بما لم يأخذ به غيرهم . وقد ذكرنا شواهد هذا وهذا ، ولا تناقض بين الأمرين .

وأنت إذا كان لك عبدان ، أو ولدان ، أو زوجتان ، أحدهما : أحب إليك من الآخر، وأقرب إلى قلبك ، وأعز عليك : عاملته بهذين الأمرين ، واجتمع فى حقه المعاملتان بحسب قربه منك ، وحبك له ، وعزته عليك . فإذا نظرت إلى كمال إحسانك إليه ، وإتمام نعمتك عليه : اقتضت معاملته بما لا تعامل به من دونه ، من التنبيه وعدم الإهمال . وإذا نظرت إلى إحسانه ومحبته لك ، وطاعته وخدمته ، وكمال عبوديته ونصحه : وهبت له وسامحته ، وعفوت عنه ، بما لا تفعله مع غيره . فالمعاملتان بحسب ما منك وما منه .

وقد ظهر اعتبار هذا المعنى فى الشرع ، حيث جعل حد من أنعم عليه بالتزوج إذا تعداه إلى الزنا : الرجم ، وحد من لم يعطه هذه النعمة الجلد . وكذلك ضاعف الحد على الحر الذى قد ملكه نفسه ، وأتم عليه نعمته ، ولم يجعله مملوكا لغيره . وجعل حد العبد المنقوص بالرق ، الذى لم تحصل له هذه النعمة : نصف ذلك .

فسبحان من بهرت حكمته فى خلقه وأمره وجزائه عقول العالمين ، وشهدت بأنه أحكم الحاكمين .

لله سر تحت كل لطيفة فأخو البصائر غائص يتملق [١]

وأيضا

لما كان الجلاد بالسيف والسنان ، والجدال بالحجة والبرهان كالأخوين الشقيقين والقرينين المتصاحبين ، كانت أحكام كل واحد منهما شبيهة بأحكام الآخر ومستفادة منه .

فالإصابة فى الرمى والنضال كالإصابة فى الحجة والمقال ، والطعن والتبطيل : نظير إقامة الحجة ، وإبطال حجة الخصم والخروج : نظير الإيراد والاحتراز منه ، وجواب القرن عند دخوله عليك : كجواب الخصم عما يورده عليك .

فالفروسية فروسيتان : فروسية العلم والبيان ، وفروسية الرمى والطعان . ولما كان أصحاب النبى ﷺ أكمل الخلق فى الفروسيتين فتحوا القلوب بالحجة والبرهان ، والبلاد بالسيف والسنان . وما الناس إلا هؤلاء الفريقان ومن عداهما ، فإن لم يكن ردءا وعونا لهما فهو كَلٌّ على نوع الإنسان ، وقد أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله ﷺ بجدال الكفار والمنافقين وجلاد أعدائه المشاقين والمحاربين ، فعلم أن الجدال والجلاد من أهم العلوم وأنفعها للعباد فى المعاش والمعاد ، ولا يعدل مداد العلماء إلا دم الشهداء ، والرفعة وعلو المنزلة فى الدارين إنما هى لهاتين الطائفتين وسائر الناس رعية لهما منقادون لرؤسائهما [٢] .

فصل
فى بيان فضل الراسخين فى العلم

الطبقة الرابعة [٣] : ورثة الرسل وخلفاؤهم فى أممهم ، وهم القائمون بما بعثوا به علما وعملا ودعوة الخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم . وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة ، وهى مرتبة الصديقية ، ولهذا قرنهم الله فى كتابه بالأنبياء ، فقال تعالى : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** (٦٩) ﴾ [النساء] ، فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٣٣ ـ ٣٣٥) .
(٢) الفروسية (٧٠ ، ٧١) .
(٣) من طبقات المكلفين فى الدار الآخرة .

النبوة ، وهؤلاء هم الربانيون ، وهم الراسخون فى العلم ، وهم الوسائط بين الرسول وأمته ، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه ، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ، وقال الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** ﴾ [الحديد : ١٩] وقيل : إن الوقف على قوله تعالى ﴿ **هُمُ الصِّدِّيقُونَ** ﴾ ثم يبتدئ ﴿ **وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ ، فيكون الكلام جملتين أخبر فى إحداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم الصديقون ، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه ، وأخبر فى الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم .

ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ؛ ولهذا قدمهم عليهم فى الآيتين ، هنا وفى سورة النساء ، وهكذا جاء ذكرهم مقدما على الشهداء فى كلام النبى ﷺ فى قوله : « أثبت أحد ، فإنما عليك نبى وصديق وشهيد » (١) ؛ ولهذا كان نعت الصديقية وصفا لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبى بكر الصديق ، ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتا له رضي الله عنه .

وقيل : إن الكلام كله جملة واحدة ، وأخبر عن المؤمنين بأنهم الصديقون والشهداء عند ربهم ، وعلى هذا فالشهداء هم الذين يستشهدهم الله على الناس يوم القيامة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ [البقرة : ١٤٣] وهم المؤمنون ، فوصفهم بأنهم صديقون فى الدنيا وشهداء على الناس يوم القيامة ، ويكون الشهداء وصفا لجملة المؤمنين الصديقين . وقيل : الشهداء هم الذين قتلوا فى سبيل الله ، وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام جملتين ، ويكون قوله : ﴿ **وَالشُّهَدَاءُ** ﴾ مبتدأ خبره ما بعده ؛ لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيدا فى سبيل الله (٢) .

فصل
فى خشية العلماء لله عز وجل

الخشية أخص من الخوف ، فإن الخشية للعلماء بالله ، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨] فهى خوف مقرون بمعرفة ، وقال النبى ﷺ : « إن

(١) البخارى (٣٦٧٥) فى فضائل الصحابة ، باب : قول النبى ﷺ : « لو كنت متخذا خليلا » .
(٢) طريق الهجرتين (٣٥١) .

أتقاكم لله وأشدكم له خشية » [١] [٢] .

وأيضا

على قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية ، كما قال النبى ﷺ : « إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية » ، وفى رواية : « خوفا » ، وقال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى » [٣] [٤] .

فصل
فى تقديم الأعلم

ينبغى الاستعانة فى كل علم وصناعة بأحذق من فيها ، فالأحذق ، فإنه إلى الإصابة أقرب . وهكذا يجب على المستفتى أن يستعين على ما نزل به بالأعلم فالأعلم ؛ لأنه أقرب إصابة ممن هو دونه .

وكذلك من خفيت عليه القبلة فإنه يقلد أعلم من يجده وعلى هذا فطر الله عباده كما أن المسافر فى البر والبحر إنما سكون نفسه وطمأنينته إلى أحذق الدليلين وأخبرهما ، وله يقصد ، وعليه يعتمد ، فقد اتفقت على هذا الشريعة والفطرة والعقل [٥] .

فصل
فى بيان فضل التفقه فى دين الله عز وجل

وهذا الكلام [٦] لا يفقه معناه إلا الفقيه فى دين الله ، فإن من شهد حقيقة الخلق

---

(١) البخارى (٥٠٦٤) فى النكاح ، باب : الترغيب فى النكاح ، ومسلم (١١١٠ / ٧٩) فى الصيام ، باب : صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٥١٢) .

(٣) الترمذى (٢٣١٢) فى الزهد ، باب : قول النبى ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا » ، وقال : « حسن غريب » ، وابن ماجه (٤١٩٠) فى الزهد ، باب : الحزن والبكاء .

(٤) مدارج السالكين (١ / ٥١٣) .

(٥) زاد المعاد (٤ / ١٣٢) .

(٦) إشارة إلى ما تقدم من قوله : « قال بعض السلف : لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس فى ذات الله ، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتا » .

وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم ، بل تفريطهم وإضاعتهم لحق الله وإقبالهم على غيره ، وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفانى، لم يجد بدا من مقتهم ، ولا يمكنه غير ذلك البتة ، ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره وكان على بصيرة من ذلك: كان لنفسه أشد مقتا واستهانة ، فهذا هو الفقيه [١] .

فصل
فى الحث على طلب العلم

المرتبة الخامسة [٢] : الحياة التى أشار إليها المصنف وهى « حياة العلم من موت الجهل » فإن الجهل موت لأصحابه ، كما قيل :

وفى الجهل ـ قبل الموت ـ موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبـــور
وأرواحهم فى وحشة من جسـومهـم ... فليس لهم حتى النشور نشور

فإن الجاهل ميت القلب والروح وإن كان حى البدن ، فجسده قبر يمشى به على وجه الأرض ، قال الله تعالى : ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٧٠** ﴾ [يس] ، وقال تعالى : ﴿ **فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ** ﴾ [الروم : ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۝٢٢** ﴾ [فاطر] ، وشبههم ـ فى موت قلوبهم ـ بأهل القبور ، فإنهم قد ماتت أرواحهم ، وصارت أجسامهم قبورا لها ، فكما أنه لا يسمع أصحاب القبور كذلك لا يسمع هؤلاء ، وإذا كانت الحياة هى الحس والحركة وملزومهما ، فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم والإيمان ولم تتحرك له ، كانت ميتة حقيقة ، وليس هذا تشبيها لموتها بموت البدن ، بل ذلك موت القلب والروح .

وقد ذكر الإمام أحمد فى (كتاب الزهد) من كلام لقمان أنه قال لابنه : « يابنى ، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل القطر » .

وقال معاذ بن جبل : « تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ،

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٣٨) .
(٢) من مراتب الحياة .

ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ؛ لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل أهل الجنة ، وهو الأنيس فى الوحشة ، والصاحب فى الغربة ، والمحدث فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الأخلاء ، يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة وأئمة تقتضى آثارهم ، ويقتدى بأفعالهم ، وينتهى إلى رأيهم ، ترغب الملائكة فى خلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، يستغفر لهم كل رطب ويابس ، وحيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل ، ومصابيح الأبصار من الظلم ، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة . التفكر فيه يعدل الصيام ، ومدارسته تعدل القيام ، به توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال من الحرام ، وهو إمام العمل ، والعمل تابع له ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء » . رواه الطبرانى وابن عبد البر وغيرهما وقد روى مرفوعا إلى النبى ﷺ والوقف أصح .

والمقصود : قوله : « لأن العلم حياة القلوب من الجهل » فالقلب ميت وحياته بالعلم والإيمان (١) .

فصل
فى فضل تعلم العلم وتعليمه

جهاد النفس أربع مراتب :

إحداها : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذى لا فلاح لها ، ولا سعادة فى معاشها ومعادها إلا به ، ومتى فاتها علمه شقيت فى الدارين .

الثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه ، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها .

الثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه ، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ، ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله .

الرابعة : أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ، ويتحمل ذلك كله لله ، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين ، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه ، فمن علم

(١) مدارج السالكين (٣ / ٢٦١ ـ ٢٦٣) .

وعمل وعلم فذاك يدعى عظيما فى ملكوت السموات [١] .

فصل
فى الجود بالعلم وبذله

الجود بالعلم وبذله من أعلى مراتب الجود ، والجود به أفضل من الجود بالمال ؛ لأن العلم أشرف من المال .

والناس فى الجود به على مراتب متفاوتة ، وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ ألا ينفع به بخيلا أبدا .

ومن الجود به : أن تبذله لمن يسألك عنه بل تطرحه عليه طرحا . ومن الجود بالعلم : أن السائل إذا سألك عن مسألة ، استقصيت له جوابها جوابا شافيا ، لا يكون جوابك له بقدر ماتدفع به الضرورة ، كما كان بعضهم يكتب فى جواب الفتيا : « نعم » أو « لا » مقتصرا عليها .

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ فى ذلك أمرا عجيبا : كان إذا سئل عن مسألة حكمية ، ذكر فى جوابها مذاهب الأئمة الأربعة إذا قدر ، ومأخذ الخلاف ، وترجيح القول الراجح ، وذكر متعلقات المسألة التى ربما تكون أنفع للسائل من مسألته . فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللوازم أعظم من فرحه بمسألته . وهذه فتاويه ـ رحمه الله ـ بين الناس ، فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك .

فمن جود الإنسان بالعلم : أنه لا يقتصر على مسألة السائل ، بل يذكر له نظائرها ، ومتعلقها ، ومأخذها ، بحيث يشفيه ويكفيه .

وقد سأل الصحابة رضي الله عنهم النبى ﷺ عن التوضئ بماء البحر ؟ فقال : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » [٢] ، فأجابهم عن سؤالهم وجاد عليهم بما لعلهم فى بعض الأحيان إليه أحوج مماسألوه عنه .

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم على علته وحكمته ، كما سألوه عن بيع الرطب

---

(١) زاد المعاد (٣ / ١٠) .

(٢) أبو داود (٨٣) فى الطهارة ، باب : الوضوء بماء البحر ، والترمذى (٦٩) فى الطهارة ، باب : ما جاء فى ماء البحر ، وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى (٥٩) فى الطهارة ، باب : ماء البحر ، وابن ماجه (٣٨٦) فى الطهارة ، باب : الوضوء بماء البحر ، والدارمى ١ / ١٨٦ فى الطهارة ، باب : الوضوء من ماء البحر ، وأحمد ٢ / ٢٣٧ .

بالتمر ؟ فقال : « أينقص الرطب إذا جف ؟ » قالوا : نعم ، قال :« فلا إذن »[١] . ولم يكن يخفى عليه ﷺ نقصان الرطب بجفافه ، ولكن نبههم على علة الحكم .

وهذا كثير جدا فى أجوبته ﷺ ، مثل قوله : « إن بعت من أخيك ثمرة ، فأصابتها جائحة فلا يحل لك أن تأخذ من مال أخيك شيئا ، بم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق ؟ »[٢] ، وفى لفظ : « أرأيت إن منع الله الثمرة ، بم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق ؟ »[٣] ، فصرح بالعلة التى يحرم لأجلها إلزامه بالثمن ، وهى منع الله الثمرة التى ليس للمشترى فيها صنع .

وكان خصومه ـ يعنى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ يعيبونه بذلك ويقولون : سأله السائل عن طريق مصر ـ مثلا ـ فيذكر له معها طريق مكة والمدينة وخراسان والعراق والهند ، وأى حاجة بالسائل إلى ذلك ؟

ولعمر الله ليس ذلك بعيب ، وإنما العيب : الجهل والكبر ، وهذا موضع المثل المشهور :

لقبوه بحامض وهو خل مثل من لم يصل إلى العنقود[٤]

فصل
فى درجات العلم

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله : « العلم ماقام بدليل ، ورفع الجهل » .

يريد : أن للعلم علامة قبله ، وعلامة بعده . فعلامته قبله : ماقام به الدليل ، وعلامته بعده : رفع الجهل .

قال : « وهو على ثلاث درجات : الدرجة الأولى : علم جلى ، به يقع العيان ، واستفاضة صحيحة ، أو صحة تجربة قديمة » .

يريد بالجلى : الظاهر ، الذى لاخفاء به ، وجعله ثلاثة أنواع .

---

(١) أبو داود (٣٣٥٩) فى البيوع ، باب : فى التمر بالتمر ، والترمذى (١٢٢٥) فى البيوع ، باب : ما جاء فى النهى عن المحاقلة والمزابنة ، وقال : « حسن صحيح » .

(٢) مسلم (١٥٥٤ / ١٤) فى المساقاة ، باب : وضع الجوائح .

(٣) البخارى (٢١٩٨) فى البيوع ، باب : إذا باع الثمار قبل أن يبدو صلاحها ثم أصابته عاهة فهو من البائع ، ومسلم (١٥٥٥ / ١٥) فى المساقاة ، باب : وضع الجوائح .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٢٩٣ ـ ٢٩٥) .

أحدها : ماوقع عن عيان ، وهو البصر .

والثانى : ما استند إلى السمع ، وهو علم الاستفاضة .

والثالث : ما استند إلى العقل ، وهو علم التجربة .

فهذه الطرق الثلاثة ـ وهى السمع ، والبصر ، والعقل ـ وهى طرق العلم وأبوابه ولا تنحصر طرق العلم فيما ذكره ، فإن سائر الحواس توجب العلم .

وكذا مايدرك بالباطن ، وهى الوجدانيات .

وكذا مايدرك بخبر المخبر الصادق ، وإن كان واحدا .

وكذا ما يحصل بالفكر والاستنباط ، وإن لم يكن عن تجربة .

فالعلم لا يتوقف على هذه الثلاثة التى ذكرها فقط .

قال : « الدرجة الثانية : علم خفى ، ينبت فى الأسرار الطاهرة من الأبدان الزاكية ، بماء الرياضة الخالصة ، ويظهر فى الأنفاس الصادقة لأهل الهمة العالية ، فى الأحايين الخالية ، والأسماع الصاحية ، وهو علم يظهر الغائب ، ويغيب الشاهد ، ويشير إلى الجمع » .

يعنى : أن هذا العلم خفى على أهل الدرجة الأولى ، وهو المسمى بالمعرفة عند هذه الطائفة .

قوله : « ينبت فى الأسرار الطاهرة » : لفظ « السر » يطلق فى لسانهم ويراد به أمور :

أحدها : اللطيفة المودعة فى هذا القالب ، التى حصل بها الإدراك والمحبة والإرادة والعلم ، وذلك هو الروح .

الثانى : معنى : قائم بالروح ، نسبته إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن ، وغالب مايريدون به : هذا المعنى .

وعندهم : أن القلب أشرف مافى البدن ، والروح أشرف من القلب ، والسر ألطف من الروح .

وعندهم : للسر سر آخر ، لا يطلع عليه غير الحق سبحانه ، وصاحبه لا يطلع عليه ، وإن اطلع على سره . فيقولون : « السر » مالك عليه إشراف ، و « سر السر » مالا اطلاع عليه لغير الحق ـ سبحانه .

والمعنى الثالث : يراد به مايكون مصونا مكتوبا بين العبد وبين ربه ، من الأحوال والمقامات . كما قال بعضهم : أسرارنا بكر ، لم يفتضها وهم واهم .

ويقول : قائلهم : لو عرف زرى سرى لطرحته .

والمقصود قوله : « ينبت فى الأسرار الطاهرة » ، يعنى : الطاهرة من كدر الدنيا والاشتغال بها ، وعلائقها التى تعوق الأرواح عن ديار الأفراح . فإن هذه أكدار ، وتنفسات فى وجه مرآة القلب والروح ، فلا تنجلى فيها صور الحقائق كما ينبغى ، والنفس تنفس فيها دائما بالرغبة فى الدنيا والرهبة من فوتها ، فإذا جليت المرآة بإذهاب هذه الأكدار صفت ، وظهرت فيها الحقائق والمعارف .

وأما « الأبدان الزكية » : فهى التى زكت بطاعة الله ، ونبتت على أكل الحلال . فمتى خلصت الأبدان من الحرام ، وأدناس البشرية ، التى ينهى عنها العقل والدين والمروءة ، وطهرت الأنفس من علائق الدنيا : زكت أرض القلب ، فقبلت بذر العلوم والمعارف . فإن سقيت ـ بعد ذلك ـ بماء الرياضة الشرعية النبوية المحمدية ـ وهى التى لا تخرج عن علم ، ولا تبعد عن واجب ، ولا تعطل سنة ـ أنبتت من كل زوج كريم ، من علم وحكمة وفائدة وتعرف ، فاجتنى منها صاحبها ومن جالسه أنواع الطرف والفوائد ، والثمار المختلفة الألوان ، والأذواق ، كما قال بعض السلف : إذا عقدت القلوب على ترك المعاصى ، جالت فى الملكوت ، ثم رجعت إلى أصحابها بأنواع التحف والفوائد .

قوله : « وتظهر فى الأنفاس الصادقة » : يريد بالأنفاس أمرين :

أحدهما : أنفاس الذكر والمعرفة .

والثانى : أنفاس المحبة والإرادة ، وما يتعلق بالمعروف المذكور ، وبالمحبوب المراد من الذاكر والمحب . و « صدقها » : خلوصها من شوائب الأغيار والحظوظ .

وقوله : « لأهل الهمم العالية » : فهى التى لا تقف دون الله عز وجل ، ولا تعرج فى سفرها على شئ سواه . وأعلى الهمم : ما تعلق بالعلى الأعلى . وأوسعها : ما تعلق بصلاح العباد ، وهى همم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، وورثتهم .

وقوله : « فى الأحايين الخالية » : يريد بها : ساعات الصفاء مع الله تعالى ، وأوقات النفحات الإلهية ، التى من تعرض لها يوشك ألا يحرمها . ومن أعرض عنها فهى عنه أشد إعراضا .

وقوله : « فى الأسماع الصاخية » : فهى التى صحت من تعلقها بالباطل واللغو ، وأصاخت لدعوة الحق ، ومنادى الإيمان . فإن الباطل واللغو خمر الأسماع والعقول ، فصحوها بتجنبه والإصغاء إلى دعوة الحق .

قوله : « وهو علم يظهر الغائب » : أى يكشف ما كان غائبا عن العارف .

قوله : « ويغيب الشاهد » : أى يغيبه عن شهود ماسوى مشهوده الحق .

« ويشير إلى الجمع » وهو مقام الفردانية ، واضمحلال الرسوم ، حتى رسم الشاهد نفسه ، والله سبحانه أعلم .

قال : « الدرجة الثالثة : علم لدنى ، إسناده وجوده ، وإدراكه عيانه ، ونعته حكمه ، وليس بينه وبين الغيب حجاب » .

يشير القوم بالعلم « اللدنى » إلى ما يحصل للعبد من غير واسطة ، بل بإلهام من الله ، وتعريف منه لعبده ، كما حصل للخضر عليه السلام بغير واسطة موسى ، قال الله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف] .

وفرق بين الرحمة والعلم وجعلهما « من عنده » و « من لدنه » ، إذ لم ينلهما على يد بشر ، وكان « من لدنه » أخص وأقرب من « عنده » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) ﴾ [الإسراء] فـ « السلطان النصير » الذى من لدنه سبحانه : أخص وأقرب مما عنده ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ ، وهو الذى أيده به . والذى من عنده : نصره بالمؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) ﴾ [الأنفال] .

و « العلم اللدنى » ثمرة العبودية والمتابعة ، والصدق مع الله ، والإخلاص له ، وبذل الجهد فى تلقى العلم من مشكاة رسوله ، وكمال الانقياد له . فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به ، كما قال على بن أبى طالب رضي الله عنه ـ وقد سئل : هل خصكم رسول الله ﷺ بشئ دون الناس ؟ ـ فقال : لا ، والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، إلا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه ، فهذا هو العلم اللدنى الحقيقى .

وأما علم من أعرض عن الكتاب والسنة ، ولم يتقيد بهما : فهو من لدن النفس والهوى ، والشيطان . فهو لدنى ، لكن من لدن من ؟ وإنما يعرف كون العلم لدنيا رحمانيا : بموافقته لما جاء به الرسول ﷺ عن ربه عز وجل . فالعلم اللدنى نوعان : لدنى رحمانى ، ولدنى شيطانى بطناوى . والمحك : هو الوحى ، ولا وحى بعد رسول الله ﷺ .

وأما قصة موسى مع الخضر عليهما السلام : فالتعلق بها فى تجويز الاستغناء عن الوحى بالعلم اللدنى إلحاد ، وكفر مخرج عن الإسلام ، موجب لإراقة الدم .

والفرق : أن موسى لم يكن مبعوثا إلى الخضر ، ولم يكن الخضر مأمورا بمتابعته ،

ولو كان مأمورا بها لوجب عليه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه ؛ ولهذا قال له : « أنت موسى نبى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم » ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين ، فرسالته عامة للجن والإنس ، فى كل زمان ، ولو كان موسى وعيسى عليهما السلام حيين لكانا من أتباعه ، وإذا نزل عيسى ابن مريم عليهما السلام فإنما يحكم بشريعة محمد ﷺ .

فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى ، أو جوز ذلك لأحد من الأمة : فليجدد إسلامه ، وليتشهد شهادة الحق ؛ فإنه بذلك مفارق لدين الإسلام بالكلية ، فضلا عن أن يكون من خاصة أولياء الله ، وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه .

وهذا الموضع مقطع ومفرق بين زنادقة القوم ، وبين أهل الاستقامة منهم ، فحرك تره .

قوله : « إسناده وجوده » : يعنى : أن طريق هذا العلم : وجدانه ، كما أن طريق غيره : هو الإسناد .

و « إدراكه عيانه » : أى إن هذا العلم لا يؤخذ بالفكر ، والاستنباط ، وإنما يؤخذ عيانا وشهودا .

« ونعته حكمه » يعنى : أن نعوته لا يوصل إليها إلا به ، فهى قاصرة عنه ، يعنى أن شاهده منه ، ودليله وجوده وإنيته [1] لميته ، فبرهان الإن فيه هو برهان اللم ، فهو الدليل وهو المدلول ؛ ولذلك لم يكن بينه وبين الغيوب حجاب ، بخلاف ما دونه من العلوم ، فإن بينه وبين العلوم حجابا .

والذى يشير إليه القوم هو نور من جناب المشهود ، يمحو قوى الحواس وأحكامها ، ويقوم لصاحبها مقامها ، فهو المشهود بنوره ، ويفنى ماسواه بظهوره ، وهذا عندهم معنى الأثر الإلهى : « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، فبى يسمع ، وبى يبصر » [2] .

والعلم اللدنى الرحمانى : هو ثمرة هذه الموافقة ، والمحبة التى أوجبها التقرب بالنوافل بعد الفرائض .

واللدنى الشيطانى : ثمرة الإعراض عن الوحى ، وتحكيم الهوى والشيطان . والله المستعان [3] .

---

(١) المراد بالإنية ، والبرهان الإنى : الاستدلال بالمعلول على العلة ، وهو منسوب إلى « إن » التوكيدية . وبالبرهان «اللمى » الاستدلال بالعلة على المعلول ، وهو منسوب إلى « لم ؟ » الاستفهامية والمراد أن العلة والمعلول متساويان فى هذا العلم ، أحدهما عين الآخر .

(٢) البخارى (٦٥٠٢) فى الرقاق ، باب : التواضع .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٤٧١ ـ ٤٧٧) .

وأيضا

فالعلم اللدنى : ما قام الدليل الصحيح عليه : أنه جاء من عند الله على لسان رسله ، وما عداه فلدنى من لدن نفس الإنسان ، منه بدأ وإليه يعود . وقد انبثق سد العلم اللدنى ورخص سعره ، حتى ادعت كل طائفة أن علمهم لدنى ، وصار من تكلم فى حقائق الإيمان والسلوك وباب الأسماء والصفات بما يسنح له ويلقيه شيطانه فى قلبه : يزعم أن عَلمه لدنى .

فملاحدة الاتحادية وزنادقة المتسبين إلى السلوك يقولون : إن علمهم لدنى . وقد صنف فى العلم اللدنى متهوكو المتكلمين ، وزنادقة المتصوفين ، وجهلة المتفلسفين ، وكل يزعم أن علمه لدنى ، وصدقوا وكذبوا ، فإن « اللدنى » منسوب إلى « لدن » بمعنى « عند » ، فكأنهم قالوا : العلم العندى ولك الشأن فيمن هذا العلم من عنده ومن لدنه .

وقد ذم الله بأبلغ الذم من ينسب إليه ماليس من عنده ، كما قال تعالى : ﴿ **وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (٧٨) ﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ [البقرة : ٧٩] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ : أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ** ﴾ [الأنعام : ٩٣] .

فكل من قال : هذا العلم من عند الله وهو كاذب فى هذه النسبة ، فله نصيب وافر من هذا الذم وهذا فى القرآن كثير ، يذم الله ـ سبحانه ـ من أضاف إليه مالا علم له به ومن قال عليه مالا يعلم ؛ ولهذا رتب ـ سبحانه ـ المحرمات أربع مراتب . وجعل أشدها : القول عليه بلا علم ، فجعله آخر مراتب المحرمات التى لا تباح بحال ، بل هى محرمة فى كل ملة وعلى لسان كل رسول . فالقائل : « إن هذا علم لدنى » لما لا يعلم أنه من عند الله ، ولا قام عليه برهان من الله أنه من عنده : كاذب مفتر على الله ، وهو من أظلم الظالمين ، وأكذب الكاذبين [١] .

فصل
فى مراتب العلم والعمل

ومراتب العلم والعمل ثلاثة :

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٤٣٢ ، ٤٣٣) .

« رواية » : وهى مجرد النقل وحمل المروى .

و « دراية » : وهى فهمه وتعقل معناه .

و « رعاية » : وهى العمل بموجب ما علمه ومقتضاه .

فالنقلة همتهم الرواية ، والعلماء همتهم الدراية ، والعارفون همتهم الرعاية ، وقد ذم الله من لم يرع ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حق رعايته (١) .

فصل
من مراتب العلم والهداية إليه من الله عز وجل

المرتبة الرابعة (٢) : مرتبة التحديث ، وهذه دون مرتبة الوحى الخاص ، وتكون دون مرتبة الصديقين ، كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كما قال النبى ﷺ : « إنه كان فى الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن فى هذه الأمة فعمر بن الخطاب » (٣) .

وسمعت شيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية رحمه الله يقول : جزم بأنهم كائنون فى الأمم قبلنا ، وعلق وجودهم فى هذه الأمة بـ « إن » الشرطية ، مع أنها أفضل الأمم ؛ لاحتياج الأمم قبلنا إليهم ، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته ، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدث ولا ملهم ، ولا صاحب كشف ولا منام ، فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها .

والمحدث : هو الذى يحدث فى سره وقلبه بالشىء ، فيكون كما يحدث به .

قال شيخنا : والصديق أكمل من المحدث . لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف ، فإنه قد سلم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول ، فاستغنى به عما منه .

قال : وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ماجاء به الرسول ، فإن وافقه قبله ، وإلا رده ، فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث .

قال : وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات : « حدثنى قلبى عن ربى »

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٦٠) .

(٢) من مراتب الهداية الخاصة والعامة .

(٣) البخارى (٣٦٨٩) فى فضائل الصحابة ، باب : مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن أبى هريرة ، وعن عائشة عند مسلم (٢٣٩٨ / ٢٣) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل عمر رضي الله عنه .

فصحيح أن قلبه حدثه ، ولكن عمن ؟ عن شيطانه ، أو عن ربه ؟ فإذا قال : « حدثنى قلبى عن ربى » كان مسندا الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به ، وذلك كذب . قال : ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك ، ولا تفوه به يوما من الدهر ، وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك ، بل كتب كاتبه يوما : « هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فقال لا ، امحه ، واكتب : هذا ما رأى عمر بن الخطاب ، فإن كان صوابا فمن الله ، وإن كان خطأ فمن عمر ، والله ورسوله منه برىء » ، وقال فى الكلالة : « أقول فيها برأيى ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان » ، فهذا قول المحدث بشهادة الرسول ﷺ . وأنت ترى الاتحادى والحلولى والإباحى الشطاح ، والسماعى : مجاهر بالقحة والفرية ، يقول : « حدثنى قلبى عن ربى » .

فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين . وأعط كل ذى حق حقه ، ولا تجعل الزغل والخالص شيئا واحدا .

فصل

المرتبة الخامسة : مرتبة الإفهام: قال الله تعالى : ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ [الأنبياء] فذكر هذين النبيين الكريمين ، وأثنى عليهما بالعلم والحكم ، وخص سليمان بالفهم فى هذه الواقعة المعينة . وقال على بن أبى طالب ـ وقد سئل : هل خصكم رسول الله ﷺ بشىء دون الناس ؟ ـ فقال : « لا ، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه ، وما فى هذه الصحيفة . وكان فيها العقل ، وهو الديات ، وفكاك الأسير ، وألا يقتل مسلم بكافر » . وفى كتاب عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى رضي الله عنهما : « والفهم الفهم فيما أدلى إليك » ، فالفهم نعمة من الله على عبده ، ونور يقذفه الله فى قلبه ، يعرف به ، ويدرك مالا يدركه غيره ، ولا يعرفه ، فيفهم من النص مالا يفهمه غيره ، مع استوائهما فى حفظه ، وفهم أصل معناه .

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية ، ومنشور الولاية النبوية ، وفيه تفاوتت مراتب العلماء ، حتى عد ألف بواحد . فانظر إلى فهم ابن عباس ، وقد سأله عمر ، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)** ﴾ [النصر] ، وما خص به ابن عباس من فهمه منها : « أنها نعى الله ـ سبحانه ـ نبيه إلى نفسه » ، وإعلامه بحضور أجله ، وموافقة عمر له على ذلك ، وخفائه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنا . وأين تجد فى هذه السورة الإعلام بأجله ، لولا الفهم الخاص ؟ ويدق

هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس ، فيحتاج مع النص إلى غيره ، ولا يقع الاستغناء بالنصوص فى حقه ، وأما فى حق صاحب الفهم : فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها .

فصل

المرتبة السادسة : مرتبة البيان العام ، وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه ، بحيث يصير مشهودا للقلب ، كشهود العين للمرئيات .

وهذه المرتبة هى حجة الله على خلقه ، التى لا يعذب أحدا ولا يضله إلا بعد وصوله إليها ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ** ﴾ [التوبة: ١١٥] ، فهذا الإضلال عقوبة منه لهم ، حين بين لهم ، فلم يقبلوا ما بينه لهم ، ولم يعملوا به ، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى ، وما أضل الله ـ سبحانه ـ أحدا قط إلا بعد هذا البيان .

وإذا عرفت سر القدر ، وزالت عنك شكوك كثيرة ، وشبهات فى هذا الباب ، وعلمت حكمة الله فى إضلاله من يضله من عباده . والقرآن يصرح بهذا فى غير موضع ، كقوله : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ [الصف : ٥] وقولهم: ﴿ **قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ** ﴾ [النساء : ١٥٥] فالأول : كفر عناد . والثانى : كفر طبع ، وقوله : ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)** ﴾ [الأنعام] فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه ، بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له . فتأمل هذا الموضع حق التأمل ، فإنه موضع عظيم .

وقال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ** ﴾ [فصلت : ١٧] فهذا هدى بعد البيان والدلالة ، وهو شرط لاموجب ؛ فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء ، وهو هدى التوفيق والإلهام .

وهذا البيان نوعان : بيان بالآيات المسموعة المتلوة ، وبيان بالآيات المشهودة المرئية ، وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله ، وصدق ما أخبرت به رسله عنه ، ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكر فى آياته المشهودة ، ويحضهم على التفكر فى هذه وهذه . وهذا البيان هو الذى بعثت به الرسل ، وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم ، وبعد ذلك يضل الله من يشاء ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)** ﴾ [إبراهيم] فالرسل تبين ،

والله هو الذى يضل من يشاء ويهدى من يشاء بعزته وحكمته .

فصل

المرتبة السابعة : البيان الخاص ، وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة ، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء ، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عن الهداية البتة ، قال تعالى فى هذه المرتبة : ﴿ **إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ** ﴾ [النحل : ٣٧] ، وقال : ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [القصص : ٥٦] فالبيان الأول شرط ، وهذا موجب .

فصل

المرتبة الثامنة : مرتبة الإسماع ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ** ﴿٢٣﴾ ﴾ [الانفال] ، وقد قال تعالى : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ** ﴿١٩﴾ **وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ** ﴿٢٠﴾ **وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ** ﴿٢١﴾ **وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ** ﴿٢٢﴾ **إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ** ﴿٢٣﴾ ﴾ [فاطر] وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ . فإن ذلك حاصل لهم ، وبه قامت الحجة عليهم ، لكن ذاك إسماع الآذان ، وهذا إسماع القلوب ، فإن الكلام له لفظ ومعنى ، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما . فسماع لفظه حظ الأذن ، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب . فإنه ـ سبحانه ـ نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذى هو حظ القلب ، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذى هو حظ الأذن فى قوله : ﴿ **مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ** ﴿٢﴾ **لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الانبياء] وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه ، أو تمكنه منها . وأما مقصود السماع وثمرته ، والمطلوب منه : فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه ، بل يخرج السامع قائلا للحاضر معه : ﴿ **مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** ﴾ [محمد : ١٦] (١) .

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٩ ـ ٤٤) .

فصل
فى بيان فضل الله عز وجل
على خلقه فيما أعطاهم من العلم وما منعه عنهم

تأمل حكمة اللطيف الخبير فيما أعطى الإنسان علمه بما فيه صلاح معاشه ومعاده ، ومنع عنه علم ما لا حاجة له به ، فجهله به لا يضر ، وعلمه به لا ينتفع به انتفاعا طائلا ، ثم يسر عليه طرق ما هو محتاج إليه من العلم أتم تيسير ، وكل ما كانت حاجته إليه من العلم أعظم كان تيسيره إياه عليه أتم ، فأعطاه معرفة خالقه وبارئه ومبدعه ـ سبحانه ـ والإقرار به ، ويسر عليه طرق هذه المعرفة ، فليس فى العلوم ما هو أجل منها ، ولا أظهر عند العقل والفطرة ، وليس فى طرق العلوم التى تنال بها أكثر من طرقها ، ولا أدل ولا أبين ولا أوضح ، فكل ما تراه بعينك أو تسمعه بأذنك أو تعقله بقلبك ، وكل ما يخطر ببالك وكل ما نالته حاسة من حواسك ، فهو دليل على الرب تبارك وتعالى ، فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية ليس فى المعلوم أجلى منها ، وكل ما استدل به على الصانع فالعلم بوجوده أظهر من دلالته ؛ ولهذا قالت الرسل لأممهم : ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ [إبراهيم : ١٠] فخاطبوهم مخاطبة من لا ينبغى أن يخطر له شك ما فى وجود الله ـ سبحانه ـ ونصب من الأدلة على وجوده ووحدانيته وصفات كماله الأدلة على اختلاف أنواعها ، ولا يطيق حصرها إلا الله ، ثم ركز ذلك فى الفطرة ووضعه فى العقل جملة .

ثم بعث الرسل مذكرين به ؛ ولهذا يقول تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات] ، وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعلى] ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الغاشية] ، وقوله : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [المدثر] وهو كثير فى القرآن .

ومفصلين لما فى الفطرة والعقل العلم به جملة ، فانظر كيف وجد الإقرار به وبتوحيده وصفات كماله ونعوت جلاله وحكمته فى خلقه وأمره ، المقتضية إثبات رسالة رسله ، ومجازاة المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، مودعا فى الفطرة مركوزا فيها ، فلو خليت على ما خلقت عليه لم يعرض لها ما يفسدها ويحولها ويغيرها عما فطرت عليه ، ولأقرت بوحدانيته ووجوب شكره وطاعته وبصفاته وحكمته فى أفعاله وبالثواب والعقاب ، ولكنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذى خلقت عليه أنكرت ما أنكرت وجحدت ماجحدت ، فبعث الله رسله مذكرين لأصحاب الفطر الصحيحة السليمة ، فانقادوا طوعا واختيارا

ومحبة وإذعانا بما جعل من شواهد ذلك فى قلوبهم ، حتى أن منهم من لم يسأل عن المعجزة والخارق بل علم صحة الدعوة من ذاتها ، وعلم أنها دعوة حق برهانها فيها .

ومعذرين ومقيمين البينة على أصحاب الفطر الفاسدة ؛ لئلا تحتج على الله بأنه ما أرشدها ولا هداها ، فيحق القول عليها بإقامة الحجة ، فلا يكون ـ سبحانه ـ ظالما لها بتعذيبها وإشقائها . وقد بين ذلك ـ سبحانه ـ فى قوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يس] .

فتأمل كيف ظهرت معرفة الله والشهادة له بالتوحيد ، وإثبات أسمائه وصفاته ورسالة رسله ، والبعث للجزاء مسطورة مثبتة فى الفطرة ، ولم يكن ليعرف بها أنها ثابتة فى فطرته ، فلما ذكرته الرسل ونبهته رأى ما أخبروه به مستقرا فى فطرته شاهدا به عقله ، بل وجوارحه ولسان حاله ، وهذا أعظم ما يكون من الإيمان ، وهو الذى كتبه ـ سبحانه ـ فى قلوب أوليائه وخاصته فقال : ﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

والمقصود : أن الله ـ سبحانه ـ أعطى العبد من هذه المعارف وطرقها ويسرها عليه ما لم يعطه من غيرها ؛ لعظم حاجته فى معاشه ومعاده إليها ، ثم وضع فى العقل من الإقرار بحسن شرعه ودينه الذى هو ظله فى أرضه وعدله بين عباده ونوره فى العالم ، مالو اجتمعت عقول العالمين كلهم ، فكانوا على عقل أعقل رجل واحد منهم لما أمكنهم أنه يقترحوا شيئا أحسن منه ولا أعدل ولا أصلح ولا أنفع للخليقة فى معاشها ومعادها ، فهو أعظم آياته ، وأوضح بيناته ، وأظهر حججه على أنه الله الذى لا إله إلا هو ، وإنه المتصف بكل كمال ، المنزه عن كل عيب ومثال ، فضلا عن أن يحتاج إلى إقامة شاهد من خارج عليه بالأدلة والشواهد لتكثير طرق الهدى ، وقطع المعذرة ، وإزاحة العلة والشبهة : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال] .

فأثبت فى الفطرة حسن العدل والإنصاف ، والصدق والبر والإحسان ، والوفاء بالعهد ، والنصيحة للخلق ، ورحمة المسكين ، ونصر المظلوم ، ومواساة أهل الحاجة والفاقة ، وأداء الأمانات ، ومقابلة الإحسان بالإحسان ، والإساءة بالعفو والصفح ، والصبر فى مواطن الصبر ، والبذل فى مواطن البذل ، والانتقام فى موضع الانتقام ، والحلم فى موضع الحلم ، والسكينة والوقار ، والرأفة والرفق والتؤدة ، وحسن الأخلاق ، وجميل المعاشرة مع الأقارب والأباعد ، وستر العورات ، وإقالة العثرات ، والإيثار عند الحاجات وإغاثة اللهفات ، وتفريج الكربات ، والتعاون على أنواع الخير والبر ، والشجاعة ، والسماحة ، والبصيرة ، والثبات والعزيمة ، والقوة فى الحق ، واللين لأهله ،

والشدة على أهل الباطل والغلظة عليهم ، والإصلاح بين الناس ، والسعى فى إصلاح ذات البين ، وتعظيم من يستحق التعظيم ، وإهانة من يستحق الإهانة ، وتنزيل الناس منازلهم ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، وأخذ ماسهل عليهم وطوعت به أنفسهم من الأعمال والأموال والأخلاق ، ولإرشاد ضالهم ، وتعليم جاهلهم ، واحتمال جفوتهم ، واستواء قريبهم وبعيدهم فى الحق .

فأقربهم إليه أولاهم بالحق وإن كان بعيدا ، وأبعدهم عنه أبعدهم من الحق وإن كان حبيبا قريبا ، إلى غير ذلك من معرفة العقل الذى وضعه بينهم فى المعاملات والمناكحات والجنايات ، وما أودع فى فطرهم من حسن شكره وعبادته وحده لاشريك له ، وأن نعمه عليهم توجب بذل قدرتهم وطاقتهم فى شكره والتقرب إليه ، وإيثاره على ماسواه . وأثبت فى الفطر علمها بقبيح أضداد ذلك .

ثم بعث رسله فى الأمر بما أثبت فى الفطر حسنه وكماله ، والنهى عما أثبت فيها قبحه وعيبه وذمه ، فطابقت الشريعة المنزلة للفطرة المكملة مطابقة التفصيل بجملته ، وقامت شواهد دينه فى الفطر تنادى للإيمان : حى على الفلاح ، وصدعت تلك الشواهد والآيات دياجى ظلم الإباء ، كما صدع الليل ضوء الصباح ، وقبل حاكم الشريعة شهادة العقل والفطرة لما كان الشاهد غير متهم ولا معرض للجراح .

وكذلك أعطاهم من العلوم المتعلقة بصلاح معاشهم ودنياهم بقدر حاجاتهم ؛ كعلم الطب والحساب ، وعلم الزراعة والغراس ، وضروب الصنائع ، واستنباط المياه ، وعقد الأبنية ، وصنعة السفن ، واستخراج المعادن وتهيئتها لما يراد منها ، وتركيب الأدوية ، وصنعة الأطعمة ، ومعرفة ضروب الحيل فى صيد الوحش والطير ودواب الماء ، والتصرف فى وجوه التجارب ، ومعرفة وجوه المكاسب ، وغير ذلك مما فيه قيام معايشهم . ثم منعهم ـ سبحانه ـ علم ماسوى ذلك مما ليس فى شأنهم ،ولا فيه مصلحة لهم،ولا نشأتهم قابلة له ؛ كعلم الغيب ، وعلم ما كان وكل ما يكون،والعلم بعدد القطر وأمواج البحر،وذرات الرمال ،ومساقط الأوراق،وعدد الكواكب ومقاديرها،وعلم ما فوق السموات وما تحت الثرى،وما فى لجج البحار وأقطار العالم،وما يكنه الناس فى صدورهم،وما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، إلى سائر ما عزب عنهم علمه.

فمن تكلف معرفة ذلك فقد ظلم نفسه ، وبخس من التوفيق حظه ، ولم يحصل إلا على الجهل المركب والخيال الفاسد فى أكثر أمره ، وجرت سنة الله وحكمته أن هذا الضرب من الناس أجهلهم بالعلم النافع ، وأقلهم صوابا . فترى عند من لا يرفعون به

رأسا من الحكم والعلم الحق النافع مالا يخطر ببالهم أصلا ، وذلك من حكمة الله فى خلقه وهو العزيز الحكيم ، ولا يعرف هذا إلا من اطلع على ما عند القوم من أنواع الخيال ، وضروب المحال ، وفنون الوساوس والهوى ، والهوس والخبط ، وهم يحسبون أنهم على شىء ، ألا إنهم هم الكاذبون ، فالحمد لله الذى من على المؤمنين : ﴿ **إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)** ﴾ [آل عمران] .

ومن حكمته ـ سبحانه ـ ما منعهم من العلم : علم الساعة ومعرفة آجالهم ، وفى ذلك من الحكمة البالغة مالا يحتاج إلى نظر ، فلو عرف الإنسان مقدار عمره فإن كان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش ، وكيف يتهنأ به وهو يترقب الموت فى ذلك الوقت ، فلولا طول الأمل لخربت الدنيا ، وإنما عمارتها بالآمال ، وإن كان طويل العمر وقد تحقق ذلك فهو واثق بالبقاء ، فلا يبالى بالانهماك فى الشهوات والمعاصى وأنواع الفساد ، ويقول : إذا قرب الوقت أحدثت توبة . وهذا مذهب لا يرتضيه الله عز وجل من عباده ، ولا يقبله منهم ، ولا تصلح عليه أحوال العالم ، ولا يصلح العالم إلا على هذا الذى اقتضته حكمته وسبق فى علمه .

فلو أن عبدا من عبيدك عمل على أن يسخطك أعواما ، ثم يرضيك ساعة واحدة إذا تيقن أنه صائر إليك ، لم تقبل منه ، ولم يفز لديك بما يفوز به من همه رضاك . وكذا سنة الله عز وجل أن العبد إذا عاين الانتقال إلى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا إقلاع ، قال تعالى : ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ** ﴾ [النساء : ١٨] ، وقوله : ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ** ﴾ [غافر] .

والله تعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه على وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة ، فيواقع الذنب مع كراهته له من غير إصرار فى نفسه ، فهذا ترجى له مغفرة الله وصفحه وعفره ؛ لعلمه تعالى بضعفه وغلبة شهوته له ، وأنه يرى كل وقت ما لا صبر له عليه ، فهو إذا واقع الذنب واقعه مواقعة ذليل خاضع لربه ، خائف مختلج فى صدره شهوة النفس الذنب ، وكراهة الإيمان له ، فهو يجيب داعى النفس تارة وداعى الإيمان تارات .

فأما من بنى أمره على ألا يقف عن ذنب ، ولا يقدم خوفا ، ولا يدع لله شهوة ، وهو فرح مسرور ، يضحك ظهرا لبطن إذ ظفر بالذنب ، فهذا الذى يخاف عليه أن يحال

بينه وبين التوبة ولا يوفق لها ، فإنه من معاصيه وقبائحه على نقد عاجل يتقاضاه سلفا وتعجيلا ، ومن توبته وإيابه ورجوعه إلى الله على دين مؤجل إلى انقضاء الأجل .

وإنما كان هذا الضرب من الناس يحال بينهم وبين التوبة غالبا ؛ لأن النزوع عن اللذات والشهوات إلى مخالفة الطبع والنفس والاستمرار على ذلك شديد على النفس ، صعب عليها ، أثقل من الجبال ، ولا سيما إذا انضاف إلى ذلك ضعف البصيرة ، وقلة النصيب من الإيمان ، فنفسه لا تطوع له أن يبيع نقدا بنسيئة ، ولا عاجلا بآجل ، كما قال بعض هؤلاء وقد سئل : أيما أحب إليك درهم اليوم أو دينار غدا ؟ فقال : لا هذا ولا هذا ، ولكن ربع درهم من أول أمس . فحرام على هؤلاء أن يوفقوا للتوبة إلا أن يشاء الله ، فإذا بلغ العبد حد الكبر ، وضعفت بصيرته ، ووهت قواه ، وقد أوجبت له تلك الأعمال قوة فى غيه ، وضعفا فى إيمانه ، صارت كالملكة له بحيث لا يتمكن من تركها ، فإن كثرة المزاولات تعطى الملكات فتبقى للنفس هيئة راسخة وملكة ثابتة فى الغى والمعاصى ، وكلما صدر عنه واحد منها أثر أثرا زائدا على أثر ما قبله ، فيقوى الأثران وهلم جرا ، فيهجم عليه الضعف والكبر ووهن القوة على هذه الحال ، فينتقل إلى الله بنجاسته وأوساخه وأدرانه ، لم يتطهر للقدوم على الله ، فما ظنه بربه .

ولو أنه تاب وأناب وقت القدرة والإمكان لقبلت توبته ، ومحيت سيئاته ، ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون ، ولا شىء لمن انتقل إلى الله على هذه الحال من التوبة ، ولكن فرط فى أداء الدين حتى نفذ المال ، ولو أداه وقت الإمكان لقبله ربه ، وسيعلم المسرف والمفرط أى ديان أدان وأى غريم يتقاضاه ، يوم يكون الوفاء من الحسنات ، فإن فنيت فيحمل السيئات . فبان أن من حكمة الله ونعمه على عباده أن ستر عنهم مقادير آجالهم ومبلغ أعمارهم ، فلا يزال الكيس يترقب الموت وقد وضعه بين عينيه ، فينكف عما يضره فى معاده ، ويجتهد فيما ينفعه ويسر به عند القدوم [١] .

فصل
فى الجمع بين العلم والحال

قال [٢] : « والمعنى الثانى : اسم الطريق سالك ، يسير بين تمكن وتلون ، لكنه إلى التمكن ما هو ؟ يسلك الحال ويلتفت إلى العلم ، فالعلم يشغله فى حين ، والحال يحمله

(١) مفتاح دار السعادة (٢٨٠ ـ ٢٨٤) .

(٢) أى صاحب منازل السائرين .

فى حين ، فبلاؤه بينهما ، يذيقه شهودا طورا ، ويكسوه عبرة طورا ، ويريه غيره تفرقًا طورا » .

هذا المعنى هو المعنى الثانى من المعانى الثلاثة من معانى الوقت عنده .

قوله : « اسم لطريق سالك » : هو على الإضافة ، أى لطريق عبد سالك .

قوله : « يسير بين تمكن وتلون » : أى ذلك العبد يسير بين تمكن وتلون . و « التمكن » : هو الانقياد إلى أحكام العبودية بالشهود والحال ، و« التلون » ـ فى هذا الموضع خاصة : هو الانقياد إلى أحكام العبودية بالعلم . فالحال يجمعه بقوته وسلطانه فيعطيه تمكينا ، والعلم بلونه بحسب متعلقاته وأحكامه .

قوله : « لكنه إلى التمكن ما هو ؟ يسلك الحال ، ويلتفت إلى العلم » : يعنى أن هذا العبد هو سالك إلى التمكن ما دام يسلك الحال ويلتفت إلى العلم . فأما إن سلك العلم والتفت إلى الحال ، لم يكن سالكا إلى التمكن .

فالسالكون ضربان : سالكون على الحال ، ملتفتون إلى العلم ، وهم إلى التمكن أقرب ، وسالكون على العلم ملتفتون إلى الحال ، وهم إلى التلون أقرب هذا حاصل كلامه .

وهذه الثلاثة : هى المفرقة بين أهل العلم وأهل الحال ، حتى كأنهما غيران وحزبان ، وكل فرقة منهما لا تأنس بالأخرى ، ولا تعاشرها إلا على إغماض ونوع استكراه .

وهذا من تقصير الفريقين ، حيث ضعف أحدهما عن السير فى العلم . وضعف الآخر عن الحال فى العلم ، فلم يتمكن كل منهما من الجمع بين الحال والعلم ، فأخذ هؤلاء العلم ، وسعته ونوره ، ورجحوه ، وأخذ هؤلاء الحال وسلطانه وتمكينه ، ورجحوه ، وصار الصادق الضعيف من الفريقين : يسير بأحدهما متلفتا إلى الآخر .

فهذا مطيع للحال ، وهذا مطيع للعلم ، لكن المطيع للحال متى عصى به العلم كان منقطعا محجوبا ، وإن كان له من الحال ما عساه أن يكون ، والمطيع للعلم متى أعرض به عن الحال كان مضيعا منقوصا ، مشتغلا بالوسيلة عن الغاية .

وصاحب التمكين يتصرف علمه فى حاله ، ويحكم عليه فينقاد لحكمه ، ويتصرف حاله فى علمه فلا يدعه أن يقف معه بل يدعوه إلى غاية العلم . فيجيبه ويلبى دعوته . فهذه حال الكمل من هذه الأمة ، ومن استقرأ أحوال الصحابة ﷺ وجدها كذلك .

فلما فرق المتأخرون بين الحال والعلم : دخل عليهم النقص والخلل ، والله المستعان

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى] ، فكذلك يهب لمن يشاء علما ، ولمن يشاء حالا ، ويجمع بينهما لمن يشاء ، ويخلى منهما من يشاء .

قوله : « فالعلم يشغله فى حين » : أى يشغله عن السلوك إلى تمكن الحال ؛ لأن العلم متنوع التعلقات ، فهو يفرق والحال يجمع ؛ لأنه يدعوه إلى الفناء ، وهناك سلطان الحال .

قوله : « والحال يحمله فى حين » : أى يغلب عليه الحال تارة ، فيصير محمولا بقوة الحال وسلطانه على السلوك ، فيشتد سيره بحكم الحال ، يعنى : وإذا غلبه العلم شغله عن السلوك . وهذا هو المعهود من طريقة المتأخرين : أن العلم عندهم يشغل عن السلوك ؛ ولهذا يعدون السالك من سلك على الحال ملتفتا عن العلم .

وأما على ما قررناه ـ من أن العلم يعين على السلوك ، ويحمل عليه ، ويكون صاحبه سالكا به وفيه ـ فلا يشغله العلم عن سلوكه ، وإن أضعف سيره على درب الفناء . فلا ريب أن العلم لا يجامع الفناء ، فالفناء ليس هو غاية السالكين إلى الله ، بل ولا هو لازم من لوازم الطريق ، وإن كان عارضا من عوارضها ، يعرض لغير الكمل .

فبينا أن الفناء الكامل ، الذى هو الغاية المطلوبة : هو الفناء عن محبة ماسوى الله وإرادته ، فيفنى بمحبة الله عن محبة ماسواه ، وبإرادته ورجائه ، والخوف منه ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه عن إرادة ماسواه ، وخوفه ورجائه والتوكل عليه .

وهذا الفناء لا ينافى العلم بحال ، ولا يحول بين العبد وبينه ، بل قد يكون فى أغلب الأحوال من أعظم أعوانه ، وهذا أمر غفل عنه أكثر المتأخرين ، بحيث لم يعرفوه ولم يسلكوه ، ولكن لم يخل الله الأرض من قائم به ، داع إليه .

قوله : « فبلاؤه بينهما » : أى عذابه وألمه بين داعى الحال وداعى العلم ، فإيمانه يحمله على إجابة داعى العلم ، ووارده يحمله على إجابة داعى الحال ، فيصير كالغريم بين مطالبين ، كل منهما يطالبه بحقه ، وليس بيده إلا ما يقضى أحدهما .

وقد عرفت أن هذا من الضيق ، وإلا فمع السعة يوفى كلا منهما حقه .

قوله : « يذيقه شهودا طورا » : أى ذلك البلاء الحاصل بين الداعيين يذيقه شهودا طورا ، وهو الطور الذى يكون الحاكم عليه فيه هو العلم .

قوله : « ويكسوه عبرة طورا » : الظاهر : أنه عبرة بالباء الموحدة والعين ، أى اعتبارا

بأفعاله ، واستدلالا عليه ، فإنه ـ سبحانه ـ دل على نفسه بأفعاله ، فالعلم يكسو صاحبه اعتبارًا واستدلالا على الرب بأفعاله .

ويصح أن يكون « غيرة » بالغين المعجمة والياء المثناة من تحت ، ومعناه : أن العلم يكسوه غيرة من حجابه عن مقام صاحب الحال ، فيغار من احتجابه عن الحال بالعلم ، وعن العيان بالاستدلال ، وعن الشهود ـ الذى هو مقام الإحسان ـ بالإيمان ، الذى هو إيمان بالغيب .

قوله : « ويريه غيره تفرق طورا » : هذا بالغين المعجمة ليس إلا ، أى : ويريه العلم غيره تفرقه فى أوديته ، فيفرق بين أحكام الحال وأحكام العلم ، وهو حال صحو وتمييز .

وكأن الشيخ يشير إلى أن صاحب هذا المقام تغار تفرقته من جمعيته على الله ، فنفسه تفر من الجمعية على الله إلى تفرق العلم ، فإنه لا أشق على النفوس من جمعيتها على الله ، فهى تهرب من الله إلى الحال تارة ، وإلى العمل تارة ، وإلى العلم تارة ، هذه نفوس السالكين الصادقين (١) .

وأيضا

قال أبو يعقوب النهرجورى : « أفضل الأحوال ما قارن العلم » . وهذا كثير فى كلام المشايخ ، وإنما وصوا بذلك لما يعلمونه من حال كثير من السالكين : أنه يجرى مع ذوقه ووجده وما يراه وما يهواه غير متبع لسبيل الله التى بعث بها رسوله ، وهذا هو اتباع الهوى بغير هدى من الله .

ولا ريب أن السماع المحدث من أعظم المحركات للهوى ولهذا سمى بعض الأئمة المصنفين كتابه فى إبطاله وذمه بالدليل الواضح فى النهى عن ارتكاب الهوى الفاضح ولهذا يأمر المشايخ المستقيمون منهم باتباع العلم ويعنون به الشريعة ، كقول أبى يزيد البسطامى : عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدت شيئا أشد على من العلم ومتابعته . وقال أبو الحسين النورى : من رأيته يدعى مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقربن منه . وقال أبو عثمان النيسابورى : الصحبة مع الله بحسن الأدب ، ودوام الهيبة والمراقبة . والصحبة مع الرسول ﷺ باتباع سنته ، ولزوم ظاهر العلم . والصحبة مع أولياء الله بالاحترام والخدمة . والصحبة مع الأهل بحسن الخلق . والصحبة من الإخوان بدوام بشر

(١) مدارج السالكين (٣ / ١٣٣ ـ ١٣٦) .

مالم يكن إثما . والصحبة من الجهال بالدعاء لهم والرحمة والشفقة عليهم ؛ وذلك لأنه لما كان أصل الطريق هو الإرادة والقصد والعمل وذلك يتضمن الحب ، فكثيرا مايعمل السالك بمقتضى ما يجده فى قلبه من المحبة ، وما يدركه بذوقه من طعم العبادة ، وهذا إذا لم يكن موافقا لأمر الله ورسوله فصاحبه فى ضلال ، وهو ممن اتبع هواه ، قال تعالى : ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً** (٤٣) ﴾ [الفرقان] ، وقال : ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (٥٠) ﴾ [القصص] ، فجعل كل ما خالف الأمر فصاحبه متبع هواه ، فما ثم واسطة بل إما الأمر وإما الهوى ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** (١٢٠) ﴾ [البقرة] ، وقال : ﴿ **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ** (١٤٥) ﴾ [البقرة] (١) .

وأيضا

دخل الداخل على أكثر السالكين وانعكس سيرهم ، حيث أحالوا العلم على الحال وحكموه عليه .

وسير أولياء الله وعباده الأبرار والمقربين بخلاف هذا ، وهو إحالة الحال على العلم وتحكيمه عليه ، وتقديمه ووزنه به ، وقبول حكمه ، فإن وافقه العلم وإلا كان حالا فاسدا منخرفا عن أحوال الصادقين بحسب بعده عن العلم ، فالعلم حاكم والحال محكوم عليه ، والعلم راع والحال من رعيته ، فمن لم يكن هذا أصل بناء سلوكه فسلوكه فاسد ، وغايته : الانسلاخ من العلم والدين ، كما جرى ذلك لمن جرى له ، والله المستعان (٢) .

وأيضا

وأما إبقاء العلم يجرى مجراه : فالذهاب مع داعى العلم أين ذهب به ، والجرى معه فى تياره أين جرى .

وحقيقة ذلك : الاستسلام للعلم ، وألا تعارضه بجمعية ولا ذوق ولا حال ، بل امض معه حيث ذهب ، فالواجب تسليط العلم على الحال وتحكيمه عليه ، وألا يعارض به .

---

(١) الكلام على مسألة السماع (٢٧٩) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٨٨) .

وهذا صعب جدا إلا على الصادقين من أرباب العزائم ، فلذلك كان من أنواع الرياضة .

ومتى تمرنت النفس عليه وتعودته صار خلقا ، وكثير من السالكين إذا لاحت له بارقة أو غلبه حال أو ذوق خلى العلم وراء ظهره ، ونبذه وراءه ظهريا ، وحكم عليه الحال . هذا حال أكثر السالكين ، وهى حال أهل الانحراف الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ؛ ولهذا عظمت وصية أهل الاستقامة من الشيوخ بالعلم والتمسك به (١) .

وأيضا

العلم خير من الحال ، العلم حاكم والحال محكوم عليه ، والعلم هاد والحال تابع ، والعلم آمر ناه ، والحال منفذ قابل ، والحال سيف ، إن لم يصحبه علم ألقى صاحبه فى المهالك والمتالف ، والحال كالمال يؤتاه البر والفاجر ، فإن لم يصحبه نور العلم كان وبالا على صاحبه .

الحال بلا علم كالسلطان الذى لا يزعه عن سطوته وازع .

الحال بلا علم كالنار التى لا سائس لها .

نفع الحال لا يتعدى صاحبه ، ونفع العلم كالغيث يقع على الظراب والآكام وبطون الأودية ومنابت الشجر .

دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة . ودائرة الحال تضيق عن غير صاحبه . وربما ضاقت عنه .

العلم هاد والحال الصحيح مهتد به ، وهو تركة الأنبياء وتراثهم ، وأهله عصبتهم ووراثهم ، وهو حياة القلوب . ونور البصائر . وشفاء الصدور ، ورياض العقول ، ولذة الأرواح ، وأنس المستوحشين ، ودليل المتحيرين ، وهوالميزان الذى به توزن الأقوال والأعمال والأحوال .

وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين ، والغى والرشاد ، والهدى والضلال .

به يعرف الله ويعبد ، ويذكر ويوحد ، ويحمد ويمجد . وبه اهتدى إليه السالكون ، ومن طريقه وصل إليه الواصلون ، ومن بابه دخل عليه القاصدون (٢) .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٧٧) .

(٢) المرجع السابق (٢ / ٤٦٩) .

فصل
فى الجمع بين العلم والعمل

السائر إلى الله والدار الآخرة ، بل كل سائر إلى مقصد ، لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين : قوة علمية ، وقوة عملية . فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائرا فيها ، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل . فقوته العلمية كنور عظيم بيده ، يمشى فى ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشى فى الظلمة فى مثله من الوهاد والمتالف ، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره ، ويبصر بذلك النور أيضا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضل عنها ، فيكشف له النور عن الأمرين : أعلام الطريق ، ومعاطبها . وبالقوة العملية يسير حقيقة ، بل السير هو حقيقة القوة العملية ، فإن السير هو عمل المسافر .

وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها ، وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها ، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح ، وبقى عليه الشطر الآخر وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر ، مسافرا فى الطريق ، قاطعا منازلها منزلة بعد منزلة ، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى ، واستشعر القرب من المنزل فهانت عليه مشقة السفر ، وكلما سكنت نفسه من كلال السير ومواصلة الشد والرحيل ، وعدها قرب التلاقى وبرد العيش عند الوصول ، فيحدث لها ذلك نشاطا وفرحا وهمة ،فهو يقول : يانفس ، أبشرى فقد قرب المنزل ، ودنا التلاقى ، فلا تنقطعى فى الطريق دون الوصول ، فيحال بينك وبين منازل الأحبة . فإن صبرت وواصلت المسرى وصلت حميدة مسرورة جذلة ، وتلقتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات ، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة ، فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة ، وعمرك درجة من درج تلك الساعة ، فالله الله ، لا تنقطعى فى المفازة ، فهو ـ والله ـ الهلاك والعطب لو كنت تعلمين .

فإن استصعبت عليه فليذكرها ما أمامها من أحبابها ، وما لديهم من الإكرام والإنعام ، وما خلفها من أعدائها ، وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء ، فإن رجعت فإلى أعدائها رجوعها ، وإن تقدمت فإلى أحبابها مصيرها ، وإن وقفت فى طريقها أدركها أعداؤها ، فإنهم وراءها فى الطلب ، ولا بد لها من قسم من هذه الأقسام الثلاثة ، فلتختر أيها شاءت ، وليجعل حديث الأحبة حاديها وسائقها ، ونور معرفتهم وإرشادهم هاديها

ودليلها ، وصدق ودادهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءها ، ولا يوحشه انفراده فى طريق سفره . ولا يغتر بكثرة المنقطعين ، فألم انقطاعه وبعاده واصل إليه دونهم ، وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم ، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم ؟ وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم ، بل هى من عوارض الطريق ، فسوف تبدو له الخيام ، وسوف يخرج إليه المتلقون يهنئونه بالسلام والوصول إليهم ، فيا قرة عينه إذ ذاك ، ويافرحته إذ يقول : ﴿ لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) ﴾ [يس] .

ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبع وذوب النفس وبطء سيرها ، فكلما أدمن على السير وواظب عليه ، غدوا ورواحا وسحرا ، قرب من الدار ، وتلطفت تلك الكثافة وذابت تلك الخبائث والأدران ، فظهرت عليه همة المسافرين وسيماهم فتبدلت وحشته أنسا ، وكثافته لطافة ، ودرنه طهارة (١) .

وأيضا

لما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهما الهدى ودين الحق ، وبتكميله لغيره فى هذين الأمرين كما قال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر] أقسم ـ سبحانه ـ أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان ، وقوته العملية بالعمل الصالح ، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه . فالحق هو الإيمان والعمل ، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصى بهما كان حقيقا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره ، بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية ويخلص به من الخسران المبين ، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره ، واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه ، وصرف العناية إليه ، والعكوف بالهمة عليه ، فإنه الكفيل بمصالح العباد فى المعاش والمعاد ، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة كلها لا تقتبس إلا من مشكاته ولا تستثمر إلا من شجراته (٢) .

وأيضا

إن العبد إما أن يكون عالما بالحق أو جاهلا به ، والعالم بالحق إما أن يكون عاملا بموجبه أو مخالفا له . فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها البتة .

---

(١) طريق الهجرتين (١٨٣ ، ١٨٤) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٦) .

فالعالم بالحق العامل به : هو المنعم عليه ، وهو الذى زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهو المفلح : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ ﴾ [الشمس] . والعالم به المتبع هواه : هو المغضوب عليه . والجاهل بالحق : هو الضال ، والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل ، والضال مغضوب عليه لضلاله من العلم الموجب للعمل ، فكل منهما ضال مغضوب عليه ، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به ، ومن ههنا كان اليهود أحق به ، وهو متغلظ فى حقهم كقوله تعالى فى حقهم : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ [البقرة : ٩٠] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المائدة] .

والجاهل بالحق : أحق باسم الضلال ، ومن هنا وصفت النصارى به فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المائدة] ، فالأولى : فى سياق الخطاب مع اليهود ، والثانية : فى سياقه مع النصارى . وفى الترمذى وصحيح ابن حبان من حديث عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » (١) (٢) .

فصل
فى تقسيم الناس من حيث القوة العلمية والعملية

من الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها ، وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه ، ويكون ضعيفا فى القوة العملية يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها ، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها ، فهو فقيه مالم يحضر العمل ، فإذا حضر العمل شارك الجهال فى التخلف وفارقهم فى العلم ، وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم ، والمعصوم من عصمه الله ولا قوة إلا بالله .

ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية وتكون أغلب القوتين عليه ، وتقتضى هذه القوة السير والسلوك ، والزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ، والجد والتشمير فى العمل ، ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات فى العقائد والانحرافات فى الأعمال

(١) الترمذى (٢٩٥٤) فى تفسير القرآن ، باب : ومن سورة فاتحة الكتاب .
(٢) مدارج السالكين (١ / ١١) .

والأقوال والمقامات ، كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشهوات ، فداء هذا من جهله ، وداء الأول من فساد إرادته ، وضعف عقله ، وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم ، بل على طريق الذوق والوجد والعادة ، يرى أحدهم أعمى عن مطلوبه لا يدرى من يعبد ولا بماذا يعبده ، فتارة يعبده بذوقه ووجده وتارة يعبده بعادة قومه وأصحابه من لبس معين أو كشف رأس أو حلق لحية ونحوها ، وتارة يعبده بالأوضاع التى وضعها بعض المتحذلقين وليس له أصل فى الدين ، وتارة يعبده بما تحبه نفسه وتهواه كائنا ما كان .

وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا رب العباد . فهؤلاء كلهم عمى عن ربهم وعن شريعته ودينه ، لا يعرفون شريعته ودينه الذى بعث به رسله وأنزل به كتبه ، ولا يقبل من أحد دينا سواه ، كما أنهم لا يعرفون صفات ربهم التى تعرف بها إلى عباده على ألسنة رسله ، ودعاهم إلى معرفته ومحبته من طريقها ، فلا معرفة له بالرب ولا عبادة له .

ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره إلى الله ، ورجى له النفوذ وقوى على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته ، فإن القواطع كثيرة شأنها شديد ، لا يخلص من حبائلها إلا الواحد بعد الواحد ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين ، ولو شاء الله لأزالها وذهب بها ، ولكن الله يفعل ما يريد . والوقت ، كما قيل : سيف ، فإن قطعته وإلا قطعك ، فإذا كان السير ضعيفا ، والهمة ضعيفة ، والعلم بالطريق ضعيفا ، والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة ، فإنه جهد البلاء ، ودرك الشقاء ،وشماتة الأعداء، إلا أن يتداركه الله برحمته من حيث لا يحتسب ، فيأخذ بيده ويخلصه من أيدى القواطع ، والله ولى التوفيق [1] .

فصل
فى بدعة التزهيد فى العلم

الكلمات التى تروى عن بعضهم : من التزهد فى العلم ، والاستغناء عنه ، كقول من قال : « نحن نأخذ علمنا من الحى الذى لا يموت ، وأنتم تأخذونه من حى يموت » .

وقول الآخر ـ وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق ؟ ـ فقال : ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق ، من يسمع من الخلاق ؟

---

(١) طريق الهجرتين (١٨٤ ، ١٨٥) .

وقول الآخر : العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل .

وقول الآخر : إذا رأيت الصوفى يشتغل بـ « أخبرنا » و « حدثنا » فاغسل يدك منه .

وقول الآخر : لنا علم الحرف ، ولكم علم الورق .

ونحو هذا من الكلمات التى أحسن أحوال قائلها : أن يكون جاهلا يعذر بجهله ، أو شاطحا معترفا بشطحه ، وإلا فلولا عبد الرزاق وأمثاله ، ولولا « أخبرنا » و « حدثنا » لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام .

ومن أحالك على غير « أخبرنا » و « حدثنا » فقد أحالك إما على خيال صوفى ، أو قياس فلسفى ، أو رأى نفسى . فليس بعد القرآن و « أخبرنا » و « حدثنا » إلا شبهات المتكلمين ، وآراء المنحرفين ، وخيالات المتصوفين ، وقياس المتفلسفين . ومن فارق الدليل ضل عن سواء السبيل ، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة ، وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهى من طرق الجحيم ، والشيطان الرجيم [١] .

فصل
فى أن أساس العلم ملازمة الكتاب والسنة

كان الجنيد يقول دائما : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يحفظ القرآن ، ويكتب الحديث ، ولم يتفقه لا يقتدى به .

وقال غيره من العارفين : كل حقيقة لا تتبعها شريعة فهى كفر .

وقال الجنيد : علمنا هذا متشبك بحديث رسول الله ﷺ .

وقال أبو سليمان الدارانى : إنه لتمر بقلبى النكتة من نكت القوم ، فلا أقبلها إلا بشاهدى عدل ، من الكتاب والسنة . وقال النصر أبادى : أصل هذا المذهب : ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع ، والاقتداء بالسلف ، وترك ما أحدثه الآخرون ، والإقامة على ما سلكه الأولون .

فهذا العلم الصافى ، المتلقى من مشكاة الوحى والنبوة : يهذب صاحبه لسلوك طريق العبودية . وحقيقتها : التأدب بآداب رسول الله ﷺ باطنا وظاهرا ، وتحكيمه باطنا وظاهرا ، والوقوف معه حيث وقف بك ، والمسير معه حيث سار بك ، بحيث تجعله بمنزلة شيخك

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٦٨ ، ٤٦٩) .

الذى قد ألقيت إليه أمرك كله ، سره وظاهره ، واقتديت به فى جميع أحوالك ، ووقفت مع ما يأمرك به ، فلا تخالفه البتة . فتجعل رسول الله ﷺ لك شيخا وإماما وقدوة وحاكما ، وتعلق قلبك بقلبه الكريم ، وروحانيتك بروحانيته ، كما يعلق المريد روحانيته بروحانية شيخه . فتجيبه إذا دعاك ، وتقف معه إذا استوقفك ، وتسير إذا سار بك ، وتقيل إذا قال ، وتنزل إذا نزل ، وتغضب لغضبه ، وترضى لرضاه ، وإذا أخبرك عن شىء أنزلته منزلة ما تراه بعينك ، وإذا أخبرك عن الله بخبر أنزلته منزلة ما تسمعه من الله بأذنك .

وبالجملة : فتجعل الرسول شيخك وأستاذك ، ومعلمك ومربيك ومؤدبك ، وتسقط الوسائط بينك وبينه إلا فى التبليغ ، كما تسقط الوسائل بينك وبين المرسل فى العبودية ، ولا تثبت وساطة إلا فى وصول أمره ونهيه ورسالته إليك .

وهذان التجريدان : هما حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله . والله وحده هو المعبود المألوه ، الذى لا يستحق العبادة سواه ، ورسوله المطاع المتبع ، المهتدى به ، الذى لا يستحق الطاعة سواه . ومن سواه فإنما يطاع إذا أمر الرسول بطاعته . فيطاع تبعا للأصل .

وبالجملة : فالطريق مسدودة إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ ، واقتدى به فى ظاهره وباطنه .

فلا يتعنى السالك على غير هذا الطريق ، فليس حظه من سلوكه إلا التعب ، وأعماله ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور] .

ولا يتعنى السالك على هذا الطريق ، فإنه واصل ولو زحف زحفا ، فاتباع الرسول ﷺ إذا قعدت بهم أعمالهم ، قامت بهم عزائمهم وهممهم ومتابعتهم لنبيهم ، كما قيل :

من لى بمثل سيرك المدلل تمشى رويدا وتجى فى الأول

والمنحرفون عن طريقه ، إذا قامت بهم أعمالهم واجتهاداتهم ، قعد بهم عدولهم عن طريقه .

فهم فى السرى لم يبرحوا من مكانهم وما ظعنوا فى السير عنه ، وقد كلوا [1]

(١) مدارج السالكين (٣ / ١٤٢ ـ ١٤٥) .

فصل
فى بيان خطورة الجهل

الجهل نوعان : عدم العلم بالحق النافع ، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه ، فكلاهما جهل لغة وعرفا وشرعا وحقيقة ، قال موسى : ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) ﴾ [البقرة] لما قال له قومه : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ أى من المستهزئين ، وقال يوسف الصديق : ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ [يوسف] أى من مرتكبى ما حرمت عليهم ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ [النساء : ١٧] قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل ماعصى الله به فهو جهالة ، وقال غيره : أجمع الصحابة أن كل من عصى الله فهو جاهل . وقال الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وسمى عدم مراعاة العلم جهلا ؛ إما لأنه لم ينتفع به فنزل منزلة الجهل ، وإما لجهله بسوء ما تجنى عواقب فعله [١] .

فصل
فى أن دواء الجهل سؤال العلماء

قد جعل النبى ﷺ الجهل داء ، وجعل دواءه سؤال العلماء ، فروى أبو داود فى سننه من حديث جابر بن عبد الله قال : خرجنا فى سفر ، فأصاب رجلا منا حَجَرٌ ، فَشَجَّهُ فِى رَأْسِهِ ، ثم احتلم ، فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لى رخصة فى التيمم ؟ قالوا : ما نجد لك رخصة ، وأنت تقدر على الماء ، فاغتسل فمات ، فلما قدمنا على النبى ﷺ أخبر بذلك ، فقال : « قتلوه ، قتلهم الله ! ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العى السؤال ، إنما كان يكفيه أن يتيمم وَيَعْصِرَ ـ أَوْ يَعْصِبَ ـ عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ، ثم يمسح عليها ، ويغسل سائر جسده » [٢] .

فأخبر أن الجهل داء ، وأن شفاءه السؤال .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٦٩) .

(٢) الداء والدواء (١٩) ، أبو داود (٣٣٦) فى الطهارة ، باب : فى المجروح يتيمم .

فصل
فى حرمة القول على الله بغير علم

إن المحرمات نوعان : محرم لذاته لا يباح بحال ، ومحرم تحريما عارضا فى وقت دون وقت ، قال الله تعالى فى المحرم لذاته : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ، ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: ﴿ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه . فقال : ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال : ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [الاعراف] فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثما ، فإنه يتضمن الكذب على الله ، ونسبته إلى ما لا يليق به ، وتغيير دينه وتبديله ، ونفى ما أثبته وإثبات ما نفاه ، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه ، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه ، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه ، ووصفه بما لا يليق به فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله .

فليس فى أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ، ولا أشد إثما ، وهو أصل الشرك والكفر ، وعليه أسست البدع والضلالات ، فكل بدعة مضلة فى الدين أساسها القول على الله بلا علم .

ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها ، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض ، وحذروا فتنتهم أشد التحذير ، وبالغوا فى ذلك ما لم يبالغوا مثله فى إنكار الفواحش ، والظلم والعدوان . إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد ، وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شئ أو تحريمه من عنده بلا برهان من الله ، فقال : ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ الآية [النحل : ١١٦] .

فكيف بمن نسب إلى أوصافه ـ سبحانه وتعالى ـ ما لم يصف به نفسه ؟ أو نفى عنه منها ما وصف به نفسه ؟ .

قال بعض السلف : ليحذر أحدكم أن يقول : أحل الله كذا ، وحرم الله كذا . فيقول الله : كذبت ، لم أحل هذا ، ولم أحرم هذا .

يعنى التحليل والتحريم بالرأى المجرد ، بلا برهان من الله ورسوله .

وأصل الشرك والكفر : هو القول على الله بلا علم ؛ فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبودا من دون الله ، يقربه إلى الله ، ويشفع له عنده ، ويقضى حاجته بواسطته ، كما

تكون الوسائط عند الملوك ، فكل مشرك قائل على الله بلا علم ، دون العكس . إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع فى دين الله ، فهو أعم من الشرك ، والشرك فرد من أفراده .

ولهذا كان الكذب على رسول الله ﷺ موجبا لدخول النار ، واتخاذ منزلة منها مبوأ ، وهو المنزل اللازم الذى لا يفارقه صاحبه ؛ لأنه متضمن للقول على الله بلا علم ، كصريح الكذب عليه ؛ لأن ما انضاف إلى الرسول فهو مضاف إلى المرسل ، والقول على الله بلا علم صريح افتراء الكذب عليه : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الانعام : ١٤٤] .

فذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت هذا الجنس فلا تتحقق التوبة منه إلا بالتوبة من البدع .

وأنى بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة ، أو يظنها سنة ، فهو يدعو إليها ، ويحض عليها ؟ فلا تنكشف لهذا ذنوبه التى تجب عليه التوبة منها إلا بتضلعه من السنة ، وكثرة اطلاعه عليها ، ودوام البحث عنها والتفتيش عليها ، ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبدا .

فإن السنة ـ بالذات ـ تمحق البدعة ، ولا تقوم لها . وإذا طلعت شمسها فى قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة ، وأزالت ظلمة كل ضلالة ، إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس . ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة ، ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة ، إلا المتابعة ، والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله ، بالاستعانة والإخلاص ، وصدق اللجأ إلى الله ، والهجرة إلى رسوله ، بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله » [١] ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه فى الدنيا والآخرة ، والله المستعان [٢] .

فصل
فى المناظرة فى العلم وفوائدها

المناظرة فى العلم نوعان :

أحدهما : للتمرن والتدرب على إقامة الحجج ودفع الشبهات .

---

(١) البخارى (١) فى بدء الوحى ، باب : كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ، ومسلم (١٩٠٧ / ١٥٥) فى الإمارة ، باب : قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنية » ، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٧٢ ـ ٣٧٤) .

والثانى : لنصر الحق وكبت الباطل .

والأول يشبه السباق والنضال ، والثانى يشبه الجهاد وقتال الكفار ، قال تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ** ﴾ [الأنعام : ٨٣] ، قال مالك : قال زيد ابن أسلم : بالعلم ، فعلم الحجة يرفع درجة صاحبه .

فإن العلم بالحجج والقوة على الجهاد مما رفع الله تعالى به درجات الأنبياء ، وأتباعهم ، كما قال تعالى : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [المجادلة : ١١] ، وقال تعالى : ﴿ **وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥)** ﴾ [ص] فالأيدى : القوى التى يقدرون بها على إظهار الحق وأمر الله وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه ، والأبصار : البصائر فى دينه ؛ ولهذا يسمى الله ـ سبحانه ـ الحجة سلطانا . قال ابن عباس : كل سلطان فى القرآن فهو الحجة ، كما قال الله تعالى : ﴿ **أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧)** ﴾ [الصافات] ، وقال تعالى : ﴿ **إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ** ﴾ [النجم : ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ **أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥)** ﴾ [الروم] ، وهذا لأن الحجة تسلط صاحبها على خصمه ، فصاحب الحجة له سلطان وقدرة على خصمه وإن كان عاجزا عنه بيده . وهذا هو أحد أقسام النصرة التى نصر الله تعالى بها رسله والمؤمنين فى الدنيا كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١)** ﴾ [غافر] (١) .

فصل
فى تثبيت العلم وتأكيده

فى « الصحيحين » : عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ ، إذ أتى بجمار نخلة ، فقال النبى ﷺ : « إن من الشجرة شجرة مثلها مثل الرجل المسلم لا يسقط ورقها ، أخبرونى ماهى ؟ » فوقع الناس فى شجر البوادى ، فوقع فى نفسى أنها النخلة ، فأردت أن أقول : هى النخلة ، ثم نظرت فإذا أنا أصغر القوم سنا ، فسكت ، فقال رسول الله ﷺ : « هى النخلة » فذكرت ذلك لعمر فقال : لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا (٢) .

---

(١) الفروسية (٩٥ ، ٩٦) .

(٢) البخارى (٦١) فى العلم ، باب : قول المحدث : « حدثنا » أو « أخبرنا » و « أنبأنا » ، ومسلم (٢٨١١ / ٦٣) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : مثل المؤمن مثل النخلة .

ففى هذا الحديث إلقاء العالم المسائل على أصحابه وتمرينهم واختبار ما عندهم .

وفيه ضرب الأمثال والتشبيه .

وفيه ما كان عليه الصحابة من الحياء من أكابرهم وإجلالهم وإمساكهم عن الكلام بين أيديهم .

وفيه فرح الرجل بإصابة ولده وتوفيقه للصواب .

وفيه أنه لا يكره للولد أن يجيب بما يعرف بحضرة أبيه وإن لم يعرفه الأب ، وليس فى ذلك إساءة أدب عليه .

وفيه ما تضمنه تشبيه المسلم بالنخلة ؛ من كثرة خيرها ، ودوام ظلها ، وطيب ثمرها ، ووجوده على الدوام [١] .

فصل
فى الوكالة فى إلقاء العلم

ومنها [٢] : توكيل العالم لبعض أصحابه أن يتكلم عنه ، ويجيب عنه [٣] .

فصل
فى تعليم المرأة الكتابة

وفى الحديث [٤] دليل على جواز تعليم النساء الكتابة [٥] .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٣٩٧) .

(٢) أى من الفقه فى قصة قدوم وفد بنى حنيفة على النبى ﷺ .

(٣) زاد المعاد (٣ / ٦١٣) .

(٤) هو حديث الشفاء بنت عبد الله قالت : دخل على رسول الله ﷺ وأنا عند حفصة فقال : « ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة » أبو داود (٣٨٨٧) .

(٥) زاد المعاد (٤ / ١٨٥) .

obeikandl.com